
مطبوعات كتابي
يصدرها حلمي مراد
١
مدام بوفاري
النص الكامل لقصة «جوستاف فلوبير» الخالدة
١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع

مدام بوفارى

تأليف : جوستاف فلوبير

ترجمة : الدكتور محمد مندور

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ستة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديد أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . لم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الأرض . ليدى هاملتون . الأرملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أمير مصر . الأمطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الأعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ما عدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والأعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن : ما يوازى ١٣٠ قرشا مصريا وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد Money Order

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب . وثمن كل من الأول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص البريد المسجل)

هل كنت تلومني ؟

عزيزي القارىء ..

◆ لو كنت قدمت لك الترجمة الكاملة لهذه القصة الطويلة ، فحسب ، هل كنت تلومني ؟ .. هل كان يخطر لك ان تلومني لأني لم أصدر القصة بالمقدمة الشاملة التالية ، عن حياة مؤلفها وأدبه ؟

أو هل كان يجول بخاطرك أن تحاسبني على انني لم أذيل لك القصة بمحاضر الجلسات التاريخية لمحاكمة مؤلفها ، أمام محكمة جنح باريس ، وبمرافعات الاتهام والدفاع .. التي سوف تقرأها في ختام الجزء الثاني والأخير للقصة ؟

ولو كنت اكتفيت من هذه المقدمة عن حياة « فلوبير » بربع هذه المعلومات التي جمعتها لك فيها ، أو بنصفها .. أو لو كنت اكتفيت باستقصاء هذه المعلومات من كتاب واحد عن « فلوبير » ، بدلا من التنقيب عنها في أربعة كتب ، فرنسية وانجليزية .. هل كنت تتهمني بالتقصير ؟

أو لو كنت وفرت على نفسي الجهد والوقت اللذين بذلتهما في البحث عن هذه العشرات من الصور التاريخية النادرة التي تراها على الصفحات التالية ، هل كنت تحس بهذا النقص ؟ .. ولو جنبت نفسي مشقة الحرص على اظهار هذه الصور الفوتوغرافية في أحسن مظهر وطباعة أجدهما في متناولي ، بطبعها على هذا الورق الملائم الذي طبعت لك به هذه الملزمة المصورة .. مع ما يجلبه الخلط بين نوعين من الورق في الكتاب الواحد ، من متاعب ، ومشكلات .. هل كان يخطر ببالك ان تحتج علي ؟

كنت اسائل نفسي هذه الأسئلة كلما حيرني وأجهدني - بل أذلني - الحرص على امتاعك بأقصى ما يصل الى علمي ويدي من وسائل الامتاع الذهني .. ودخل علي ذات ليلة صديق من أطباء النفس ، وأمامي مراجعي الأربعة ، أقارن بين معلوماتها ، وأحقق ، وأوفق ، واستكمل من أحدها ما أهمله الآخر .. فدفعتني نوبة من نوبات الملل الى « الاستغاثة » به من نفسي ، الأمارة بالتعب !

وكنت أحسبني امزح ، لكن صديقي التفت الى وقال ، جادا : « أتدري ان هذه « الأعراض » تنطبق على مرض نفساني يدخل في اختصاصنا ، ونطلق عليه « حب تعذيب النفس » ؟! »

وأخشى ما أخشاه الآن ، على نفسي - منك ! - ان تدعو الله ألا يشفيني قط من هذا الداء !

وتقبل تحياتي ..

حلمي مراد



٠٠وركض «رودولف» بجواده الى جوارها٠٠وبين حين وآخر ، كان يهمس لها بكلمة٠٠

جوستاف فلوبير

دراسة تحليلية لحياته ، وأدبه

للمحرر

المراجع

Flaubert par lui-même (par: La Varende)

Gustave Flaubert (par: Edouard Maynial)

Sept Visages De l'Amour (par: André Maurois)

Flaubert and «Madame Bovary» (by: Somerset Maugham)

Gustave Flaubert (by: Henry Thomas)

جميل ٠٠ كآلهة الاغريق !

◆ **فى سنة ١٨٤٠** هبط باريس ، ليدرس القانون ، فتى فى الثامنة عشرة ، غريب الأطوار : فهو وسيم الخلقة ، خجول الطبع ، رث الهندام ، مرهف الاحساس ، لاذع اللسان ، ظاهر الخشونة والفظاظة ٠٠ أو بعبارة أخرى : كتلة من المتناقضات !

وكان مظهره أشبه باله من آلهة الاغريق ، يرتدى قميصا من قماش الفانلة الأحمر ، وسترة زرقاء ! ٠٠ وكان قليل الكلام ، ولكن « اذا ما فتح فمه ليتكلم فكأنما غمس لسانه فى اناء من الخل ! »٠٠ وكان يظهر احتقارا شديدا للتقاليد ، وينظر الى كل انسان ـ بما فى ذلك نفسه ـ نظرته الى أحمق غبى ٠٠ وهو يقول فى هذا : « **ان أول أبله أراه كل يوم هو شخصى ، حين أقف أمام المرآة فى الصباح كى أحلق لحيتى ! ٠٠ وآخر أبله هو أى انسان يصادف أن أتحدث اليه قبل أن آوى الى فراشى !** »

من يكون هذا الفتى الشاذ ؟ ٠٠ أراد زملاؤه من تلاميذ مدرسته أن يعرفوا ٠٠ وقيل لهم : « انه فلوبير ٠٠ جوستاف فلوبير ٠٠ ابن كبير جراحى مستشفى (روان) »

وسأل واحد من التلاميذ فلوبير : « لابد انه أمر شائق أن تكون ابن رجل مشهور مثل أبيك ! »

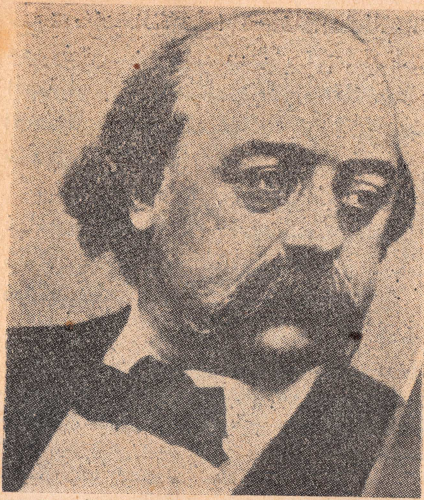
فأجابه الفتى فى عدم مبالاة : « **وما هو الأمر الشائق فى ذلك ؟** »

ـ يا للعجب ، فكر فى عدد الأرواح التى ينقذها أبوك !

فزفر الفتى من أنفه وقال ساخرا : « **نعم ٠٠ ان أبى ينقذ الغبى كى يواصل غباءه فى المستقبل !** »

★ ★ ★

◆ **وقد** نشأ فلوبير غريب الاطوار منذ البداية ، يهتم دائما بالجانب المعتل المختل من الحياة ٠٠ فقد كان أول ما تفتحت عليه



جوستاف فلوبير : وصفه معاصروه بان جماله
كان أشبه بجمال آلهة الاغريق !

عيناه فى دنياه مشاهد العراك مع الموت ، بين جدران مستشفى أبيه ..أو على حد وصفه :
«كان مدرج المستشفى يشرف على حديقتنا ، وكم من مرة تسلقنا - اخوتى وأنا - تكعيبة الكروم ، كي نتأمل الجثث الممددة تحتنا ، والشمس تحرقها بنارها ، والذباب ينهشها فى غير رحمة .. الذباب عينه الذى يحوم حولنا نحن ويطن فوق هامات الازهار!»

ويؤثر المنظر فى عقل « فلوبير » الباطن .. حتى يكبر ويغدو رجلا ، فيكتب الى خليلته «لويز كوليه» يوما رسالة يقول فيها :
« ان منظر المرأة العارية يجعلنى أتخيل هيكلها العظمى ! »

وقد ولد دقيق الملاحظة ، شغوفا بمراقبة البشر ، حتى انه بدأ يسجل ملاحظاته عن مسلك الناس بمجرد أن اتقن الكتابة .. وكان يجد متعة خاصة فى تأمل المجاذيب والبلهاء ، ويتصور انهم بدورهم يجدون متعة خاصة فى تأمله هو ! .. وبقدر ما كان أبوه ولوعا بتشريح الاجسام البشرية ، صار هو ولوعا بتشريح « النفوس » البشرية ، والتعمق الى باطنها ، وتأمل « الهيكل العظمى » للأفكار الشريرة التى تختبىء فى أعماق أنقى الناس

سيرة ، فى الظاهر ! ٠٠ فاذا الخطاب الأول الذى يكتبه الصبى وهو فى سن التاسعة ، الى أحد أصدقائه ، يتضمن هذه العبارات : « **يا صديقى ، انك محق فى ملاحظتك سخف الاحتفال برأس السنة ٠٠ ان أكثر تصرفات الناس تبدو لى سخيفة غبية !** »

وحياة فلوبير هى فى الواقع ثورة عنيفة طويلة الأمد ضد غباء بنى البشر ! ٠٠ فقد شب ساخطا حانقا على اولئك الرجال « الذين تستغرق حياتهم عاطفتان : جمع المال ، والحياة من أجل ذواتهم فقط ! »

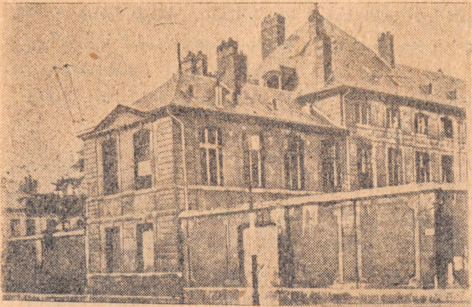
نشأ متشائما ٠٠ فى أسرة سعيدة !

◆ ولد « جوستاف فلوبير » فى مدينة (روان) فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ - وكان أبوه « أشيل كليوفاس فلوبير » يومئذ فى السابعة والثلاثين ، وأمه « كارولين فلوبير » فى السابعة والعشرين - ورغم ان الصبى نشأ فى كنف أسرة سعيدة ، رفيعة المكانة ، الا ان حسه المرهف وخياله الجامح أضفيا على نفسيته ذلك الشعور بالوحدة ، أو الوحشة الداخلية ، الذى يلازم ذوى الاحساس المرهف طيلة حياتهم ! ٠٠ كما قد يعزى « تشاؤمه » منذ شبابه الباكر الى أن « الرومانتيكية » كانت يومئذ فى عهد ازدهارها ، والتشاؤم كان « موضة » العصر ! ٠٠ لكن هذا الاعتبار وحده لا يكفى فى الواقع لتبرير شعور الفتى بسخف الحياة ونفوره من الناس ، وهو الذى كان ينعم ببيت سعيد وأبوين عطوفين ، وشقيقة تدلله ، وأصدقاء يحبونه ٠٠ وينعم فوق ذلك كله بصحة سابغة !



والد فلوبير : الدكتور « أشيل كليوفاس فلوبير »

وقد أدخل الصبى المدرسة ، لاول مرة ، متأخرا عن الوقت المناسب بسنوات - اذ كان قد جاوز العاشرة بشهور حين ألحق بمدرسة « الليسيه » فى (روان) ! - ولعل ذلك كان المنبع الاول لنزعة الخجل التى لازمته بعد ذلك - ربما لأنه وجد



الجناح الذى كانت تقطنه اسرة فلوبير بمبنى مستشفى (روان) ، الذى كان يديره ابوه الطبيب

نفسه بين زملاء متفوقين عليه فى الدراسة ، بحكم الأسبقية - فكانت تلك بذرة من بذور « مركب النقص » الذى عانى منه طويلا !

وقد ساهمت فى تغذية مخيلة الصبى « فلوبير » قبل ادخاله المدرسة ، خادمة الاسرة الوفية « جولى » - التى ظلت فى خدمتها ٥٨ عاما ! - فقد دأبت على اشباع خياله بطوفان من الحكايات والاقاصيص .. فلما التحق بالمدرسة بدا ميله الواضح الى دراسة التاريخ ، وشغف بقصصه ، حتى لقد أصدر وهو بعد فى الرابعة عشرة صحيفة مدرسية نشر فيها الكثير من القصص والموضوعات التاريخية والادبية ، التى كان منها : وفاة مرجريت دى بورجونى ، صور من حياة لورد بيرون ، يدان فوق التاج ، سر الملك فيليب الحذر ، قصة نورماندية من القرن العاشر ، اليد الحديدية ، أحلام الجحيم .. الخ .. ثم تقدم خطوة أخرى حين نشرت له احدى صحف المدينة المحلية بحثا فى « التاريخ الطبيعى » !

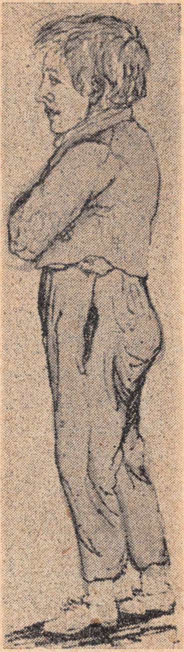
غرامه الأول !

◆ وفى تلك الفترة ، بدأ الغلام يرتاد مجاهل الحب ، لأول مرة ! .. كانت فاتنته الأولى فتاة انجليزية تدعى « هنرييت كولييه » ، كان أبوها ملحقا بحريا لبلاده فى فرنسا ، وقد أسرت قلبه بعذوبتها وعاطفيتها .. لكن تعلقه بها لم يجاوز الاعجاب البرىء ، الذى لم يبلغ حتى درجة الغزل ! .. وكان هو يومئذ على نصيب « صارخ » من الوسامة ، بل الجمال ! .. ذا قسمات دقيقة منتظمة ، وبشرة شقراء وردية ، وعينين زرقاوين ، وشعر ناعم .. كان جماله يبهر البصر ويسلب اللب ! .. وصفته « مدام ألفونس دوديه » - زوجة الكاتب الكبير - فقالت : « كان شابا غير عادى .. ذا نظرة صافية ، نظرة زرقاء ، عاشقة و .. مرهفة ! » .. وقال فيه « موريس دريفوس » : « كانت له عينان فيهما زرقة

عذبة . عينان طيبتان بالغتا الرقة ، ومفرطتان فى القوة ! » .. وقال « اميل برجيرا » : « كانت فى عينيه عذوبة خارقة للطبيعة .. عينان واسعتان زرقاوان ، تحف بهما أهداب طويلة « مذهبة » ! »

وأقبل الصيف ، صيف عامه الخامس عشر ، وبدأت التجربة الأولى « الجدية » فى حياة الفتى العاطفية .. التجربة التى تعتبر بحق « حبه الأول » !.. كانت أسرته قد ذهبت للاصطياف فى (تروفيل) ، التى كانت يومئذ « قرية » متواضعة محاذية للبحر ، ليس فيها غير فندق واحد ! .. وهناك التقى الفتى بشخص يعمل ناشرا للنوتات الموسيقية ، يدعى « موريس شليسنجر » ، كان يقضى الصيف مع زوجته وطفله . وقد وصف فلوبير الزوجة فيما بعد بقوله : « كانت طويلة ، سمراء ، ذات شعر أسود « فاخر » ، تنسدل خصلات منه على كتفيها . وكان أنفها اغريقيا ، وعيناها تشعان نارا ، وحاجباهاعاليين مقوسين، وبشرتها متوهجة كما لو كانت « مغبشة » بالذهب !.. وكانت رشيقة ، فاتنة ، تشف رقبتها الارجوانية عن شراييتها الزرقاء ، وترتسم على شفتها العليا سمة نشاط متوثب .. وبالاختصار ، كان سحرها يخسف حسن أجمل شقراء !.. وكانت تتكلم فى أناة ، بصوت موسيقى ، ناعم ، دافىء ! »

كانت «اليزا شليسنجر» يومئذ فى السادسة والعشرين .. وكان فلوبير خجولا ، بحيث ما كان ليجد الجرأة على مجرد التحدث اليها ، لو لم يكن زوجها رجلا مرحا طيب القلب ، يسهل على المرء أن يرفع الكلفة معه .. فصار يستصحب الفتى معه فى نزهات ركوب الخيل ، وفى مناسبة ما خرج ثلاثتهم - والزوجة بينهم - فى نزهة نهرية بالقارب ، فجلس فلوبير و « اليزا » جنبا الى جنب ، وقد تلامس كتفاهما ، كما لمس طرف ثوبها يده .. وكانت تتكلم بصوت عذب ، خفيض ، لكنه كان فى دوامة من الانفعال لم تترك فى ذاكرته كلمة مما قالته ساعتئذ !



فلوبير الصبى ، كما رسم صورته بالقلم شقيقه الاكبر

وانتهى الصيف .. وغادرت أسرة « شليسنجر » البلدة ، وعادت أسرة فلوبير الى روان .. واستأنف الفتى



فلوبير المراهق : رسم بالفحم للفنان « ديلونيه »

الدراسة ، وقد تمكنت من قلبه أقوى عاطفة صادفته فى حياته !

ولم يتح لفلوبير أن يعود الى (تروفيل) الا بعد عامين كاملين ، وعند وصوله علم ان « اليزا » رحلت من البلدة قبل أيام ! .. كان هو يومئذ فى السابعة عشرة ، واحس ان حبه قد داخله تطور هام : صار يحبها كرجل ، تعتمل فى نفسه الرغبة فى المرأة ! وضاعف غيابها من حدة عاطفته ، وضرامها .. فلما عاد الى بلدته ، استأنف كتابة قصة كان قد بدأها منذ حين ثم أهملها زمنا ، وكان عنوانها : « مذكرات مجنون » ، فروى فيها مغامرة حبه لاليزا فى ذلك الصيف المشهود ..

يقرأ .. ويلاحظ .. ويكتب !

◆ ولنعد الى ميول الفتى الأدبية ، وشغفه بالقراءة والكتابة .. فقد أولع منذ يفاعته بقراءة « هوجو » ، و « شكسبير » ، و « بيرون » ، و « روسو » .. لكن « هوجو » كان أحبهم اليه . وحين قدر له يوما أن يزوره فى بيته ، كتب يقول : « لقد استمتعت برؤيته عن قرب .. فحدقت فيه مشدوها ، كما أحدق فى اناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة ، متأملا كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذى جلس بجوارى على مقعد صغير ، مدققا النظر فى يده اليمنى التى كتبت كل تلك الروائع الجميلة ، قائلا لنفسى : « هذا هو الرجل الذى جعل قلبى ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت ، والذى أحببته أكثر من جميع من لم أعرف ! »

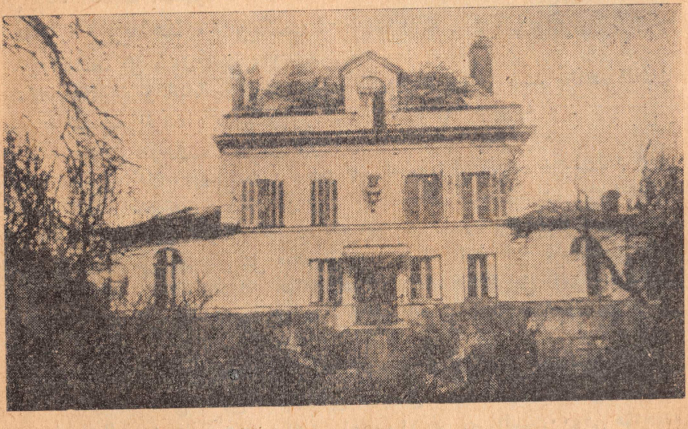
والكاتب الثانى الذى كان له تأثير أدبى كبير على فلوبير هو « جيته » ، فقد قرأ قصته « فاوست » فى شارع (كورلادين) الجميل بمدينة روان ، الذى تحف به الاشجار العالية من جانب ويحف به من الجانب الآخر نهر السين .. وفى مواجهته على الضفة الاخرى تدق أجراس الكنائس التى يختلط رنينها فى الوعى بشعر « جيته » الرائع .. فكان رأسه يدور ، ويعود الى بيته كالمأخوذ !

وقبل أن يشب عن الطوق ، ألف الفتى روايات مسرحية ، وقام بتمثيل دور

البطولة فيها مع أخته على مسرح البيت ، الذى لم يكن سوى مائدة الطعام ! ٠٠ وكان من بين تلك المسرحيات واحدة من خمسة فصول ، عن لويس الحادى عشر ٠٠ غير ان هذه التمثيليات جميعا لم تعجبه وتظفر برضائه ، فترك ميدانها الى كتابة القصص والموضوعات غير التمثيلية ، التى أنتج منهـا فى تلك الفترة : الشـهوة والفضيلة ، أفكار فى التشـكك ، رقصة الموتى ، النزع ، واخيرا « مذكرات مجنون » التى أشرت اليها آنفـا ٠٠ وفيما كان يدرس للبكالوريا ، (فى عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠) ، كتب أبحاثا ومقالات عن : روما والقياصرة ، أدب « رابليه » ، جنازة الطبيب « ماتوران » ، أدب الشاعر « كورنى » ٠٠ بل انه كتب بحثا علميا عن « الامساك » !!

وهكذا قضى فلوبير الأعوام الثمانية السابقة لحصـوله على البكالوريا - أى الاعوام بين سن العاشرة والثامنة عشرة - يحلم ، ويلاحظ ، ويكتب ، ويسخر من زملائه الطلبة ، وينشىء معهم صـداقات ٠٠ فانه - مثل أكثر الساخرين - كانت تكمن فى أعماقه نفس رقيقة !

على أنه كان يضطر الى اخفاء نفسه عن أنظار أبيه حين يكتب ٠٠ فان « الدكتور



المنزل الريفى لاسرة فلوبير بضواحى (روان) ، خلال المـدة من عام ١٨٢٥ الى عام ١٨٤٥ ، أى بين العام الرابع والعام الرابع والعشرين من حياة الأديب الكبير

فلوبير » كان مصرا على الحيلولة بين ابنه وبين المستقبل الأدبى المظلم ! وحين حاول الابن يوما أن يقرأ على أبيه احدى « درره » ، غلب على الأب النعاس ! ٠٠ كان الطبيب المشهور يتوق الى أن يجعل من ابنه جوستاف جراحا بارعا مثله ، ومثل ابنه الآخر «أشيل» ٠٠ وله فى هذا الصدد قول مأثور : « نحن آل فلوبير أسرة محترمة ، ولا نريد بيننا متشردين أو شعراء ! »

وحصل الفتى على البكالوريا ، فى سن التاسعة عشرة ، واذ ذاك صارح أباه بانه « لن » يصير طبيبا ! ٠٠ وكان أبوه قد يئس من اقناعه أو الضغط عليه ، فقال له : « حسنا ، اذا لم تشأ أن تكون طبيبا ، فينبغى اذن أن تصير محاميا » ٠٠وهكذا تقرر أن «يشحنه» الى باريس فى بداية العام الدراسى ليدرس القانون !

مغامرة غرامية جديدة !

◆ وكى يغريه أبوه على قبول هذا الوضع ، أرسله فى العطلة الصيفية مع طبيب صديق فى رحلة الى جزيرة كورسيكا وجبال « البيرينيز » ، وكان يومئذ شابا مكتمل النمو ، عريض الكتفين ، يصفه عارفوه ـ ويصف نفسه ـ بأنه « عملاق » ، رغم ان قامته لم تكن تصل الى الستة أقدام ٠ لكن الفرنسيين كانوا فى ذلك العصر أقصر قامة منهم اليوم ، فكان هذا الطول فى نظرهم « فارعا » ، غير عادى ٠ وكان الفتى رشيق القد ، مهيب الطلعة ، تظلل أهدابه السوداء عينين واسعتين ، فى لون مياه البحر ، ويتهدل شعره الطويل الجميل حتى كتفيه ٠٠ حتى لقد وصفته ، بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ ، امرأة عرفته فى شبابه ، بأنه كان يومئذ فى جمال اله من آلهة الاغريق !

وفى طريق عودة فلوبير ومرافقه من جزيرة كورسيكا ، توقفا فى مدينة مارسيليا ٠ وذات صباح عاد فلوبير الى الفندق بعد حمام فى البحر ، فصادف فى الردهة شابة حسناء ، جذبته فتنتها ، فبادأها بالحديث ٠٠ وامتد بينهما حبل الكلام ٠ علم منها انها تدعى « أولالى فوكو » ، وانها فى انتظار باخرة تقلها الى حيث يقيم زوجها ، الموظف فى اقليم (غيانا الفرنسية)

وقضى فلوبير و « اولالى » تلك الليلة معا ! ٠٠ وكانت ليلة وصفها هو بأنها انطوت على « تلك العاطفة الملتهبة التى تشبه فى جمالها غروب الشمس فوق الجليد » ! ٠٠ ورغم انه غادر مارسيليا على اثر ذلك ، ولم ير المرأة بعد ذلك قط ، فان تلك المغامرة تركت فى نفسه اثرا عميقا بعيد الغور !

المرأة التى استعصت عليه ٠٠ فى باريس !

◆ ورحل الفتى الى باريس ، ليدرس القانون ٠٠ لكنه لم يلبث ان ضاق بحياته فى الجامعة ، وضاق بكتب القانون ، بل ضاق بباريس ذاتها ! ٠٠ كان

يحتقر زملاءه من الطلاب ، لتفاهتهم ، وتكلفهم ، وأذواقهم السوقية ! ٠٠ وفى تلك الأيام كتب قصة متوسطة الطول سماها « نوفمبر » ، ووصف فيها مغامرته مع « أولالى فوكو » ٠٠ لكنه منحها بعض سمات محبوبته السابقة « اليزا شليسنجر » : الرقبة الجميلة ، والشفة العليا ، والحاجبين المقوسين العاليين ٠٠

وكان قد اتصل بأسرة « شليسنجر » من جديد ، اذ زار الزوج فى مقر عمله ، فدعاه هذا الى تناول الطعام معه ومع زوجته ! ٠٠ وكانت « اليزا » كالعهد بها فاتنة ٠ انه حين رآها فى المرة الأخيرة السابقة كان يافعا ، مايزال يترنح على عتبة الرجولة ٠٠ اما الآن فقد غدا رجلا ، ملتهب العاطفة والشوق ، وسيم الطلعة ، رشيق القوام ٠٠

وسرعان ما اتصلت بينه وبين الزوجين الأسباب ، مرة أخرى ، فعاد الى سابق ألفته معهما ، واختلاطه بهما ، ومصاحبته اياهما فى النزهات والرحلات ووجبات الطعام ٠٠ لكنه لم يكن قد تخلص بعد من خجله القديم ، فظل زمنا لا يجرؤ على مفاتحة « اليزا » بحبه ٠٠ وحين جرؤ آخر الأمر ، أدهشه انها لم تغضب ، وان كانت أفهمته بوضوح انها ليست على استعداد لأن تغدو بالنسبة له أكثر من « صديقة » ! ٠٠ وكانت للمرأة قصة عجيبة شاذة : فحين تعرف فلوبير اليها لأول مرة – فى عام ١٨٣٦ – ظن ، كما كان الجميع يعتقدون ، انها زوجة « موريس شليسنجر » ٠٠ لكنها لم تكن كذلك فى الواقع ، فقد كانت متزوجة من رجل يدعى «اميل جوديا» ٠ وكان زوجها هذا قد تورط ، بسبب افتقاره الى الامانة ، فى متاعب ومشكلات خطيرة ٠٠ واذ ذاك تقدم اليه « شليسنجر » معربا عن استعداده لامداده بالمال الكافى لانقاذه من المحاكمة ، فى نظير أن يغادر فرنسا من فوره ويترك زوجته ! وقبل الرجل الشرط ، فعاش شليسنجر واليزا منذ ذلك اليوم تحت سقف واحد – ولم يكن فى فرنسا طلاق يومئذ – الى ان مات الزوج « جوديا » فى سنة ١٨٤٠ ، فتزوجا ٠ لكن اليزا



رسم آخر يمثل فلوبير ، للفنان « ميشيل فريشون » ، منقول عن تمثال نصفى له للفنان « برناتام »

ظلت تكن لزوجها الأول المتوفى حبها الحقيقى . وقد يكون هذا السبب، مضافا اليه شعور بالولاء والعرفان بجميل الرجل الثانى الذى آواها وأنجبت منه طفلها الوحيد ، اعتبارين تضافرا ليجعلا المرأة تتردد فى الاستجابة لغزل الشاب فلوبير ورغباته !

لكن الفتى كان حارا فى عواطفه ، كما لعل المرأة شاقها غرامه الصبيانى .. فاستجابت أخيرا لالحاحه ووعدته بموافاته فى مسكنه ! وانتظرها فلوبير ، فى انفعال محموم ، لكنها لم تأت ! ويميل مؤرخو حياته الى تصديق هذه الرواية ، استنادا الى ما اشتموه من سياق كتابه المشهور « التربية العاطفية » .. وعلى أية حال ، فالذى يمكن الجزم به ان « اليزا » لم تصبح يوما خليلته !



قل بين ادباء القرن الماضى من حظى بتهافت الرسامين على رسم صورته كما حظى فلوبير . وهذا رسم آخر يمثله

الحادث الذى غير مجرى حياته !

◆ فى تلك الاثناء كان فلوبير قد هجر دراسته ، ليحترف الأدب .. فنفض أبوه يده منه ، باعتباره فتى ميئوسا منه ! .. وقابل جوستاف ذلك بالارتياح ، فلقد كان عنيدا ، او على حد قوله : « أنا بربرى ، أملك عناد البرابرة وصلابة رأيهم » .. والواقع أنه كان يملك أيضا حب البرابرة للمغامرات : « اننى أنحدر من سلالة قراصنة صقلية ، وسوف أصير قرصانا ، أهيم فى محيطات الروح ، وأغوص فيها ، باحثا عن العبارة الذهبية الخلابة .. اننى أعتزم أن أكون كاتبا ليس غير ! »

وترك فلوبير كتب القانون ، وحول وجهه شطر كتاب « دون كيشوت » ـ « توراة » الحماقة البشرية ، على حد تعبيره ! ـ وصار هذا الكتاب المنبع الأول لفلسفته ، والأساس الأول لمبادىء ايمانه .. « ان مشكلة البشر ليست أنهم أنذال ، بل حمقى أغبياء ! » .. وتحت تأثير هذه الفلسفة كتب فلوبير عددا



تمثال الببغـــاء «امازون»، الذى كان فلوبير يضعه على مكتبه اثناء كتابة قصـــته القصيرة « قلب بسيط »

من التمثيليات والروايات الطويلة التى تدور حـــول النواحى القاتمة من الحياة : مثل قصة رجل فقد نفسه ، ومأساة رجل مصاب بالصرع دفن حيا ، ومغامرات مخلوق أمه بشر وأبوه قرد !٠٠ الى غير ذلك من القصص الخرافية التى ينقصها النضوج ، والتى كتبها لمجرد تسلية نفسه وأصدقائه

وكان أصدقاء فلوبير هؤلاء أكثر منه ميلا الى فلسفة التشاؤم ٠٠ « كنا جماعة من الشبان غريبى الأطوار ، نعيش فى عالم غريب ٠٠ نتأرجح فى طريق مألوف ، بين الجنون والموت ٠٠ بعضنا قتل نفسه، وآخرون ماتوا فى فراشهم ٠٠ وواحد خنق نفســـه برباط رقبته ٠٠ وكثيرون أدمنوا الشراب كى يبددوا افكارهم المتسلطة عليهم ! »

ثم وقع حادث ، فى سنة ١٨٤٤ ، قدر له أن يغير مجرى حياة فلوبير ، ويؤثر فى انتاجه الادبى ٠ فذات ليلة مشئومة كان عائدا بالعربة الى روان بصحبة أخيه ، على أثر زيارتهما لمزرعة كانت تملكها أمهما٠ وكان أخوه ، الذى يكبره بتسعة أعوام ، قد خلف أباه فى مهنة الطب ٠٠ وفجأة ، وبغير مقدمات ، أحس فلوبير بنفسه «يحمل بعيدا فى شبه اعصار من اللهب ، ثم يسقط كالحجر على أرض العربة ! » ٠٠ وحين أفاق من اغمائه كان يسبح فى دمه ، فحمله أخوه الى دار قريبة حيث تولى فصده ٠ ثم نقل الى (روان) حيث فصده أبوه مرة أخرى، ومنعه من التدخين ومن شرب الخمر أو تناول اللحوم

وظلت تلك النوبات تعاوده بعنف ، فترة من الزمن ٠ وفى كل مرة كانت أعصابه الممزقة تظل أياما فى حالة توتر جنونى ! ٠٠ وأحاط الغموض الشديد بهذا المرض الغريب الذى حير الاطباء ، فقال بعضهم انه صرع ، وأيد أصدقاء الشاب هذا التشخيص ٠٠ ورجح آخـــرون أنه المرض المعروف باسم « صرع هستيرى » ٠ وأيا كان التشخيص فقد كان العلاج واحدا لا يتغير ، اذ عاش فلوبير بعد ذلك سنوات يتعاطى جرعات كبيرة من « سلفات الكينين » ، كما ظل طيلة حياته بعد ذلك مثابرا على تناول « بروميد البوتاسيوم » ٠

وأغلب الظن أن تلك النوبة الأولى لم تكن مفاجئة لأسرة فلوبير ، اذ قيل انه كان قد صارح « جى دى موباسان » ـ الروائى الكبير الذى تتلمذ عليه فيما بعد ـ بأنه أصيب بأول نوبة من التهوس عندما كان فى الثانية عشرة ٠٠ كما قيل أن ذلك كان سر ارساله بصحبة طبيب فى رحلته الى كورسيكا بعد ذلك التاريخ

بتسع سنوات .. ثم أن تغيير الجو والمناظر كان جزءا من العلاج الذى وضعه له أبوه الطبيب ، ولولا ذلك لما فكرت الاسرة فى ارساله الى تلك الرحلة الباهظة النفقات ، فانها رغم ثرائها كانت من الأسرات ذات العقلية الريفية ، البليدة ، التى تميل الى الاقتصاد .

وقد تكون نوبات ذلك الصرع الغامض من بين بواعث التشاؤم القاتم الذى لازم فلوبير منذ صباه ، والذى لابد قد أحدث تأثيره فى جهازه العصبى حتى من قبل أن تظهر أعراضه فى صورة تلك النوبات . أما بعد ظهور هذه النوبات فقد صار المسكين يواجه حالة مفزعة تنتابه فى أى وقت ، دون مقدمات ، فأحس بضرورة تغيير أسلوب حياته تغييرا يتفق مع هذه الظروف . وكان فى مقدمة نتائج هذا الادراك أنه عقد العزم على ألا يتزوج قط ! .. بل قد يكون مرضه من الأسباب التى أغرته على هجر دراسة القانون !

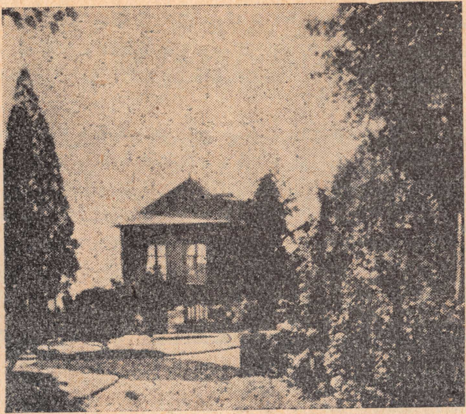
راهب الفكر فى صومعته ..

◆ وفى العام التالى ـ ١٨٤٥ ـ مات أبوه .. ثم تبعته بعد شهرين أو ثلاثة أخته الوحيدة « كارولين » التى كان يكن لها حبا مفرطا ، والتى كانت رفيقة صباه الأثيرة ، وصديقته الملازمة الى ما قبل زواجها . وقد ماتت على أثر وضع طفلة لها . وكان الدكتور فلوبير ـ الاب ـ قد ابتاع قبل وفاته ضيعة على ضفة السين يطلق عليها (كرواسيه) ، يتوسطها منزل حجرى جميل يرجع عهده الى ما قبل مائتى سنة ، وبه شرفة وجناح صغير يطلان على النهر .. فكان ان استقرت أرملته بابنها « جوستاف » وحفيدتها اليتيمة فى تلك الدار .

أما الابن الاكبر « أشيل » فكان قد تزوج وخلف أباه فى عمله بمستشفى روان .

وقدر لضيعة (كرواسيه) أن تظل المقر الدائم لفلوبير حتى نهاية حياته . وكان مرضه الذى أعجزه عن أن يحيا حياة طبيعية ، أحد العوامل التى قوت من عزمه على اختيار الادب حرفة له ، فالادب أنسب مهنة لمن ينشد العزلة ويعزف عن ارتياد المجتمعات .. وقد اختار الشاب لنفسه غرفة متسعة بالطابق الارضى ، تطل نوافذها على الحديقة والنهر . واتخذ لنفسه نظاما وعادات صارمة : كان ينهض من فراشه فى نحو العاشرة صباحا ، فيطالع البريد والصحف ، ثم يتناول غداء خفيفا فى الحادية عشرة ، ويقضى الساعتين التاليتين متكاسلا فى الشرفة ، أو جالسا فى جناحه يقرأ .. حتى اذا حانت الساعة الواحدة أكب على الكتابة حتى السابعة ، وعندئذ كان يتناول عشاءه ثم يخرج ليقوم بجولة فى الحديقة ، يعود بعدها كى يستأنف الكتابة الى ساعة متأخرة من الليل ..

ولم يكن فى عزلته تلك يرى أو يقابل أحدا ، عدا بضعة الاصدقاء القلائل



الدار الجميلة التى عاش فيها فلوبير أكثر حياته، بضاحية (كرواسيه)

الذين كان يدعوهم بين حين وآخر كى يقضوا أياما فى ضيافته ، ليتناقش واياهم فيما يكتب ٠ وكانوا ثلاثة ، من أكثر أصدقائه محافظة على التقاليد ، وأكرمهم عونا له على مواجهة نوبات تشاؤمه النفسية ، ونوبات صرعه المرضية ٠٠ بحيث يمكن القول أن فلوبير عاش مدينا لهم باحتفاظه بتوازنه ـ العقلى والنفسى ـ بين الهاويتين المروعتين اللتين كانتا تهددانه ، وتفغرا فوهتيهما عن يمينه ويساره : هاويتى الجنون ، والانتحار !٠٠ اذ بينما كان هو يهتم اهتماما مريضا بالادب و «الموت» ، كانوا هم يبدون اهتماما سليما بالادب والحياة !

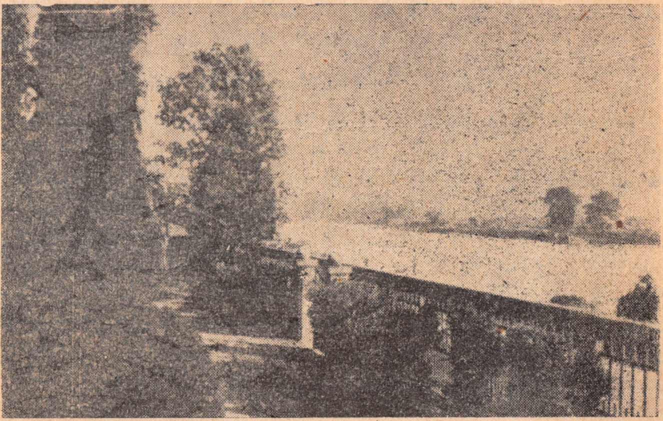
وهؤلاء الاصدقاء الثلاثة كانوا : « لويس بوييه » ، و «الفريد لو بواتفان» و « مكسيم دوكامب » ٠٠ وكانوا ثلاثتهم شغوفين بالادب : كان أولهم يكسب عيشه الضئيل من اعطاء دروس فى اللاتينية والفرنسية فى روان ٠٠ اما الثانى « لو بواتفان » فكان ابن رجل ناجح من رجال الاعمال ، تدل الدلائل على انه سيغدو بدوره ناجحا مثل أبيه ٠ وكان يكبر فلوبير فى السن ، وتربطه بالاسرة صلة صداقة وثيقة،(وقد كانت شقيقته هى أم القاص الفذ « جى دى موباسان») ٠٠ اما ثالث الاصدقاء « دوكامب » فكان محرر « صحيفة باريس » ، وكان قد تعرف به وهو يدرس القانون فى العاصمة ، فلم يلبث ان جعل نفسه بمثابة المرشد الناصح لفلوبير ، ليس فقط فى عالم الخيال بل وفى دنيا الواقع ومسالك الحياة أيضا ٠٠ وقد افلح فى اخراج «تلميذه» من صومعته وعزلته ، واغراه على ان يعاشر الناس ، وفى سنة ١٨٤٩ اخذه معه فى رحلة الى الشرق ، كما سنرى ٠٠

وكان فلوبير بطبعه عاطفيا شديد التعلق والاخلاص لاصدقائه ، لكنه من

الناحية الاخرى كان ذا نزعة الى « امتلاكهم » والسيطرة عليهم ، ومطالبتهم باكثر مما تحتمل الصداقات ، (فحين تزوج ثانيهم مثلا ، وكان ذا تأثير كبير على فلوبير ، انتاب هذا حنق شديد ، عبر عنه فيما بعد بقوله : « كان الامر يعنى بالنسبة لى مثل ما يعنيه بالنسبة لمؤمن متدين سماعه بنبأ فضيحة شائنة تلوث سمعة الاسقف الذى يحترمه ! »)

الشاعرة التى عشقته !

◆ وكان فلوبير ، حين ماتت شقيقته « كارولين » ، قد اخذ قالبا لوجهها ويديها ٠٠ وبعد شهور - فى يونية سنة ١٨٤٦ - ذهب الى باريس ، فمضى الى المثال المشهور « براديبه » ليكلفه بصنع تمثال نصفى لها ٠ وهناك التقى بشاعرة تدعى « لويز كوليه » ، كانت قد ظفرت بمكانة مرموقة فى الأوساط الأدبية بفضل جمالها ، أكثر من موهبتها الأدبية ٠٠ فلقد كانت لها موهبة ضئيلة فى الشعر ، وموهبة عظيمة فى السحر ! فظلت أضواء باريس وعبقرياتها الأدبية مغضية عن جمال شعرها ، لكنها لم تستطع الاغضاء عن شعر جمالها ! ٠٠ ومن طريف النوادر المأثورة عنها أن الشاعر الكبير فيكتور هيجو أبدى ذات يوم أمامها



شرفة الجناح الذى كان يقطنه فلوبير فى دار اسرته بضاحية (كرواسيه)، ويطل الجناح على نهر السين

أسفه وحزنه على بتر ذراع تمثال « فينوس دى ميلو » الموجود فى متحف اللوفر ، فقالت له ان الذراعين المبتورتين قد ردتا الى التمثال الخالد ! ٠٠ والتفت اليها فيكتور هيجو متسائلا فى دهشة : « حقا ٠٠ أين همـــا ! » ٠٠ فأجابت لويز كوليه : « داخل كمى ! »

وكان لها « صالون » أدبى يؤمه عدد كبير من الشخصيات البارزة فى مجتمع ذلك العصر ، وقد أطلقوا عليه اسم muse (نسبة الى الربات التسع للفنون من بنات « جوبيتر » ، فيما تقول أساطير القدماء) ٠ وكان زوج « لويز » استاذا للموسيقى يدعى « هيبوليت كوليه » ، وعشيقها ووالد طفلها هو الفيلســوف والسياسى « فيكتور كوزان » ٠ وكانت هى وقتئذ فى الثامنة والثلاثين - وان زعمت انها فى الثلاثين ! - وفلوبير فى الخامسة والعشرين ٠٠ فلم تمض عـلى لقائهما ٤٨ ساعة حتى صار عشيقها ٠٠ وبعد ثلاثة أيام تركها تذرف دموعهـا وعاد الى داره فى (كرواسيه) ! وفى الليلة ذاتها كتب اليها الرسالة الأولى من سلسلة رسائل حبه التى لعل عاشقا لم يكتب أغرب منها الى عشيقته ! ٠٠ فلقد طلبت اليه أن ينتقل ليعيش بالقرب منها فى باريس ، فاعتذر بانه لا يستطيع ترك أمه المكلومة الفؤاد بتأثير حزنها على زوجها وابنتها ٠ وعندئذ سألته أن يكثر على الأقل من التردد على العاصمة لرؤيتها ، فأجاب بأنه لا يستطيع ذلك الا اذا كانت لديه أسباب قوية تبرر السفر ٠٠ وعند هذا كتبت اليه غاضبة : « هل تعنى انك موضوع تحت المراقبة ، كالفتيات ؟ »

الغيرة تحتدم ، بين الخليلة ٠٠ والأم !

◆ وقد كثرت الروايات عن شدة تعلق أم فلوبير به ، وقيل انها صرحت مرة لاحدى صديقاتها بقولها : « لن أدع امرأة أخرى تشاركنى فيه ، حتى لو كانت ملاكا من السماء ! » واذا صحت هذه الرواية ، فلعل من سخرية القدر أن تلك المرأة قد شاركتها فى ابنها - فى الخفاء ، كما سنرى - سنوات عديدة !

على أن المؤرخين المدققين ينصفون الأم من هذه التهمة ، فالواقع أن نوبات الصرع التى كانت تنتاب فلوبير كانت تخلفه فريسة للضعف والاعياء والانقباض ، لعدة أيام ، فكان طبيعيا أن تحوطه أمه بسياج من الرعاية والقلق ، وتخشى عليه من أن يسافر بمفرده ، أو يسبح فى النهر ، أو يستقل زورقا بغير مرافق يسهر على سلامته ٠٠ فكتب الى لويز يجيبها على لومها وسخريتها بأن أمه لا تمانع فى سفره كلما أراد ، لكنه يشفق عليها من الانزعاج الموجع الذى كانت تعانيه فى تلك الظروف ٠ على أن مسلكه ذاك كانت له أيضا تعليلات أخرى الى جانب العذر السابق ايضاحه : من ذلك أن حدة خياله كانت تجعله يشعر نحو لويز بمزيد من الحب وهو بعيد عنها ، أكثر منه وهو معها ! ٠٠ كما أن المسكنات القوية التى

كان يتعاطاها للوقاية من نوبات الصرع، كانت تضعف من الحاح غريزته الجنسية بصورة ملحوظة !

وكتبت اليه لويز معاتبة : « ان حبك ليس حبا ! .. ولا يحتل فى حياتك مكانا عزيزا » .. فأجابها : « أو تريدين أن تعرفى اذا كنت أحبك ؟ نعم ، أحبك بقدر ما استطيع ان احب.. فالحب عندى ليس فى المكان الاول من الحياة ، وانما فى المكان الثانى ! » .. وقد كان فلوبير يغبط نفسه على صراحته ، لكن هذه الصراحة كانت قاسية فى الواقع. وكان افتقاره الى اللباقة عجيبا ، من ذلك انه فى احدى المناسبات طلب الى لويز ان تستفسر من صديقة لها كانت تعيش فى نفس البلدة التى تقطنها «أولالى فوكو»، عن مصير هذه المرأة التى كانت بطلة مغامرته القديمة فى مارسيليا .. بل انه سأل لويز أن تحمل رسالة موجهة الى « أولالى » لتوصيلها اليها ، ودهش حين أبدت استياءها من هذه المهمة ، رغم أنها قبلت القيام بها !



لوحة منحوتة على الخشب تمثل فلوبير. للفنان « اوفريه »

بل انه ذهب فى الصراحة الى أبعد من هذا الحد ، فقص على لويز قصص مغامراته مع العاهرات ، متباهيا بكفاءته الجنسية فى اشباع رغباتهن . وكان يعاملها هى بترفع ظاهر ، ويضن عليها باللقاء الطويل ! من ذلك أنه استجاب يوما لالحاحها فواعدها على اللقاء فى أحد فنادق (نانت) ، على أن تغادر هى باريس ويغادر هو (روان) فى الصباح الباكر ، فيلتقيا فى الفندق ليقضيا سويعات العصر معا ، ثم يعود فى الليلة ذاتها الى داره ! .. وأدهشه أن أثار الاقتراح حنقها وسخطها . وعلى هذا النمط لم يزد عدد المرات التى التقيا فيها خلال العامين اللذين استمرت فيهما علاقتهما عن ست مرات ! .. وأخيرا كانت هى التى بدأت بالقطيعة فهجرته !

قصته الفاشلة .. ورحلته الى مصر

◆ فى تلك الأثناء كان فلوبير منهمكا فى كتابة كتاب له كان قد اختمر طويلا فى رأسه ، هو « غواية القديس أنطوان » . وكان مقررا أن يسافر فى رحلته الى

الشرق الادنى بصحبة صديقه « مكسيم دو كامب » بمجرد فراغه من ذلك الكتاب. وكانت أمه قد وافقت على فكرة الرحلة بعد استشارة ابنها الاكبر ، الطبيب ، وزميله الطبيب الآخر الذى رافق فلوبير فى رحلته الى كورسيكا قبل سنوات ، اذ رجح كلاهما أن تفيد صحة الشاب تلك الرحلة المزمعة الى بلاد الشرق الادنى الدافئة .. فلما انتهى فلوبير من الكتاب أرسل يستدعى صديقيه « دو كامب » و « بوييه » الى (كرواسيه) كى يتلوه عليهما .. واستغرقت التلاوة أربعة أيام ، كان يقرأ لهما خلالها طيلة أربع ساعات ، بعد الظهر ، وأربع أخرى فى المساء ! .. وفى منتصف ليل اليوم الرابع فرغ المؤلف من التلاوة ، فدق المنضدة بقبضته وقال يسأل صديقيه : « والآن ، ما رأيكما ؟ » .. فأجابه أحدهما : « رأينا أنك ينبغى أن تلقى بالكتاب الى النار ، ولا تعود تتحدث فى شأنه الى أحد ! »

وكانت ضربة قاصمة ! .. فاحتدم الجدل والمناقشة بين الاصدقاء الثلاثة طوال الليل ، وفى النهاية رضخ فلوبير للحكم المفجع . وعندئذ اقترح عليه « بوييه » ان يحذو حذو « بلزاك » فيكتب قصة من الادب الواقعى . وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا ، فأوى الثلاثة الى مضاجعهم .. وحين استيقظوا خلال النهار استأنفوا النقاش ، ويقول « دوكامب » فى كتابه « ذكريات ادبية » ان زميله « بوييه » اقترح على فلوبير فى تلك الجلسة فكرة القصة التى قدر لها ان تعرف بعد ذلك فى العالم باسم «مدام بوفارى» .. ولكن أغلب الظن ان «دوكامب» كان مخطئا فى هذا القول ، فان رسائل فلوبير التى كتبها الى اهله واصدقائه فى الفترة التالية — خلال رحلته الى الشرق — تضمنت الاشارة الى كثير من افكار القصص التى كان يديرها فى ذهنه وقتئذ ، ولم تكن بينها فكرة «مدام بوفارى» !

وقد كانت رحلة فلوبير الى الشرق بصحبة صديقه « دوكامب » — التى استغرقت اكثر من عام — من المراحل الشائقة فى حياته .. « لن انسى يوما الألوان التى رأيتها والاصداء التى سمعتها فى مصر ، على ضفاف النيل ، وفى سوريا ، وفلسطين ، ومالطة ، والقسطنطينية ، واليونان .. ولقد لمست فى « الاهرام » سحرا خاصا ، فلم نكد نبلغ سفح التل الذى تنهض فوقه تلك الاهرامات الهائلة حتى تركت جوادى يطوف بى حولها وانا كالمذهول .. وحذا « دوكامب » حذوى .. فلقد دار رأسى حين رأيت ذلك المجد الشامخ ، وبدت لى الاهرام الثلاثة ساعة الغروب وردية اللون ، غارقة كلها فى الضياء .. »

المأساة الواقعية التى كانت نواة « مدام بوفارى »

◆ ثم عاد الصديقان الى وطنهما ، فى سنة ١٨٥١ ، ولم يكن فلوبير قد استقر بعد على فكرة القصة التالية التى سيشرع فى كتابتها . وفى الفترة « التالية »

ـ وليس قبل ذلك ـ يغلب ان يكون صديقه « بوييه » قد روى له مأساة الطبيب « يوجين ديلامار » ، التى كانت نواة عمله الأدبى التالى ، الضخم : « مدام بوفارى » : كان « ديلامار » طبيبا نوبتجيا بمستشفى (روان) ، متزوجا من ارملة تكبره فى السن ٠٠ فلما ماتت ، تزوج من ابنة حسناء لأحد المزارعين فى قرية قريبة ، وانتقل ليمارس مهنته فى تلك القرية ٠٠ لكن الزوجة الشابة كانت ذات طموح ، ونزوات ، فقد ألفت منذ صباها ان تعيش فى الخيال ، « وراء الافق » ، واعتنقت فكرة ان « ثمار الحقل المجاور أشهى مذاقا من ثمار الحقل الذى تملكه ! » ٠٠ فلم تكد تطرح بهجة الزواج الاولى وراء ظهرها حتى ضاقت بحياتها الراكدة ، المحدودة الافق ، فى كنف زوجها « الغبى » ، وازداد بمرور الايام نفورها من حياة الريف ، وخوارابقار المزرعة ، ورائحة حظائر الماشية ٠٠ فتطلعت الى «فارس الاحلام» الذى ينقلها من تلك البيئة الكريهة الى عالمها الخيالى المرموق ، ومن ثم القت بنفسها فى احضان اول عاشق لاح فى افق حياتها ٠٠ لكنه هجرها ، فارتمت بين ذراعى آخر ! ٠٠ وظلت تتلقفها احضان الرجال ، وتتقاذفها رغباتهم العابرة ، ثم ينبذونها ، فتهوى من مذلة الى مذلة ، ومن ضعة الى ضعة ٠٠ وهى اثناء ذلك كله تبدد أموال زوجها ، وتقترض ، ويطاردها الدائنون ! ٠٠ حتى تمسى حياتها خليطا بشعا من اليأس ، والاضطراب ، والجزع ! ولا تخلصها من عذابها غير النهاية المفجعة التى اختارتها الاقدار لها ، ولزوجها !

تلك كانت الخيوط الواقعية الاولى التى سنرى كيف نسج منها « فلوبير » قصته الخالدة « مدام بوفارى »



رسم نشر بمجلة « لاباروديه » فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، يمثل فلوبير فى صورة طبيب تولى « تشريح » مدام بوفارى فى قصته عنها !

المرأة الوحيدة التى أحبته !

◆ على أثر عودة فلوبير الى فرنسا ، التقى بـ « لويز كوليه » مرة أخرى ٠

وكانت أحوالها قد ساءت أثناء غيابه ، فمات زوجها ، وكف عاشقها و « ممولها » فيكتور كوزان عن الانفاق عليها ٠٠ كما لم تجد مخرجا يقبل منها مسرحية كانت قد ألفتها ! ٠٠ فلما علمت بعودة فلوبير كتبت اليه تنبئه بأنها سوف تمر بمدينة (روان) فى طريق عودتها من سياحة لها بانجلترا

والتقيا ، وتجدد تراسلهما ٠ وبعد فترة ذهب فلوبير الى باريس لأمر ما ، فاتخذها خليلة له مرة أخرى ، رغم انها كانت قد جاوزت الاربعين ، ورغم ان تقاليد العصر كانت تأبى على المرأة التى تحترم نفسها ان تتزين بالمساحيق التى تعين على اخفاء بصمات الزمن على وجهها ! ٠٠ ولعل فلوبير قد تأثر بشعورها نحوه ، فقد كانت المرأة الوحيدة التى أحبته ! ٠٠ ثم لعل عدم وثوقه من نفسه فيما يتصل بالناحية الجنسية ، قد جعله يحس وهو معها ـ فى المرات القليلة التى اتصل بها فيها اتصالا جنسيا ـ بأنه بمنجاة من انفعالات القلق والانزعاج ، بهذا الصدد

واذا كانت جميع رسائل لويز اليه قد فقدت ، فان رسائله هو اليها باقية ٠ ومن هذه الرسائل يبدو جليا انها لم تتعظ بعبر الماضى ، بل ظلت كالعهد بها لحوحة ، مستبدة ، « متعبة » ! ٠٠ فقد استمرت تلح عليه كى ينتقل الى باريس، أو يدعها تأتى لتقيم معه فى (كرواسيه) ! ٠٠ لكنه استمر يتعلل بالمعاذير كى يمتنع عن الأمر الأول ، ويمنعها من الثانى ! ٠٠ وكانت خطاباته تكاد تقتصر على التعليقات الادبية ، وان انتهت ببعض العبارات العاطفية « المتكلفة » ! ٠٠ وكان الموضوع الأدبى الرئيسى الذى يخصه باهتمامه هو تقدمه « البطىء » فى كتابة قصته الطويلة التى كان مستغرقا فيها يومئذ : « مدام بوفارى » ٠٠ وبين الحين والآخر كانت ترسل اليه قصيدة شعرية كتبتها ، فكان ينقدها فى رده نقدا لاذعا، بحيث كان لا بد من ان تنتهى العلاقة بينهما الى قطيعة محتومة !

وقد عجلت لويز بهذه القطيعة ، بتصرفاتها الطائشة : فلقد عرض عليها « فيكتور كوزان » ـ عاشقها القديم ووالد ابنتها ـ أن يتزوج منها ، من أجل تلك الابنة ٠٠ لكنها رفضته ، وأفهمت فلوبير انها انما فعلت ذلك بسببه ! ٠٠ والواقع انها كانت قد عقدت العزم على الزواج من فلوبير ، وصرحت لبعض أصدقائها بذلك ، فى تهور طائش ٠٠ فلما بلغه الأمر ، أذهله ـ وهو الذى كان خالى الذهن ، منصرف النية عن كل ما يتصل بالزواج ـ فأبدى لها استياءه الشديد من سقطة لسانها ، ثم تكررت بينهما المشاهد العنيفة الصاخبة ، التى شعر خلالها بمزيج من الفزع والمذلة ٠٠ حتى انتهى به الأمر الى مصارحتها بالقطيعة بصفة نهائية !

لكنها لم ترتدع ، بل ذهبت اليه يوما فى كرواسيه لتثير مشهدا جديدا ، فطردها فى خشونة قاسية ، أحنقت أمه ذاتها ! ٠٠ وأخيرا ، ورغم المأثور عن بنات جنسها من الاصرار العنيد على عدم تصديق ما لا يروقهن ، فقد وجدت التعسة

نفسها تواجه فى النهاية الحقيقة المريرة : القطيعة !
وكان الانتقام الوحيد الذى وجدته فى متناولها ، أن كتبت قصة طويلة ـ فاشلة ـ صورت فلوبير فيها فى صورة الحبيب الغادر .. الشرير !

الصداقة التى ذهبت .. مع الريح !

◆ فى تلك الاثناء كان صديق فلوبير المدعو « دوكامب » قد استقر فى باريس منذ عودته من رحلتهما الى الشرق ، ولم يلبث ان ابتاع أسهما فى « مجلة باريس » الأدبية ـ « ريفو دى بارى » ـ وصار واحدا من مديرى تحريرها ، فراح يلح على كل من فلوبير و « بوييه » كى يوافياه بانتاجهما الادبى . وكان يعتقد ان الأول يرتكب خطأ جسيما « بدفن نفسه » فى صومعته ب (كرواسيه) ، وفى احدى زياراته العديدة له راح يستحثه على الانتقال الى باريس ، حيث يستطيع ان يندمج فى محيط الحياة الذهنية بالعاصمة ويتبادل الآراء مع زملائه الكتاب ، فيوسع بذلك أفقه الادبى .. فالكاتب ينبغى ان يعيش فى وسط «مادته الاولية» ، ولا ينتظر التجارب حتى تأتى اليه ، بل يذهب هو اليها ، ويمضى يبحث وينقب عنها . وقد كان فلوبير يعيش حياة « ضيقة الافق » ، محدودة التجارب ، فهو لم يعرف عن الحياة غير النذر اليسير .. ولم يخبر من النساء ـ خبرة متعمقة ـ سوى أمه ، و «اليزا شليسنجر» ـ المرأة الوحيدة التى أحبها ـ ثم «لويز كوليه» ، المرأة الوحيدة التى أحبته هى ! .. وفيما عدا ذلك كان فلوبير يعيش منطويا على نفسه ، داخل قوقعة عبقريته ، فى شبه عزلة تامة عن الناس والمجتمع ، الامر الذى دفع صديقه « دوكامب » الى مصارحته ذات يوم ـ فى خطاب كتبه اليه من باريس ـ بأنه اذا واصل حياته المحدودة على ذلك المنوال ، فسوف تنتهى به الحال الى ان يفقد عقله !

وأثارت النصيحة ثائرة فلوبير ، الذى اعتبرها اهانة وتحديا له ، والذى كان بطبعه ضيق الصدر لا يطيق الانتقاد أو المعارضة .. وزاد الطين بلة أن الملاحظة لمست من نفسه وترا حساسا ، اذ كانت نوبات الصرع التى تنتابه تهدده على الدوام بهذا المصير ـ حتى لقد صارح « لويز كوليه » فى احدى رسائله اليها بأنه فى خلال أربع سنوات سوف يصاب بالبلاهة ! ـ ومن هنا أجاب على خطاب « دوكامب » برسالة تفيض بالحنق والغضب ، قال فيها انه انما يعيش الحياة التى تلائمه ، وانه يحتقر « الخيول العجفاء » التى يتألف منها المجتمع الادبى فى باريس ! .. الى آخر ما تضمنته تلك الرسالة من العبارات السليطة اللاذعة ، التى كانت بداية الجفاء بين الصديقين ، بل القطيعة .. وكانت آخر عبارة وجهها فلوبير الى دوكامب فى نهاية مراسلاتهما : « اننا لم نعد نسير فى الطريق ذاتها ، أنت وأنا .. لم نعد نبحر على ظهر سفينة واحدة .. فليهد الله كلينا

سواء السبيل ، الى حيث يريد أن يذهب : أنت الى مرفأ أمين ، وأنا الى عرض البحر ! »

وهكذا هجر فلوبير صديقه ، بعد عشيقته ، ونشر الشراع متجها نحو البحر العريض ٠٠ نحو المستقبل الادبى الذى لايعرف انصاف النتائج : فهو يفضى اما الى نجاح كامل ، واما الى فشل ذريع !

وانقضت ثلاث أو أربع سنوات ، لم يكن فلوبير يورد فيهـا اسم دوكامب على لسانه الا بلهجة الاحتقار البالغ ، والغض من شأنه ومن موهبته الادبية ٠٠ ورغم أن « الصديقين » عادا فاستأنفا شيئا من صلتهما بعد أعوام ، فان الود لم يرجع بينهما سـيرته الاولى !٠٠ وان كان ذلك لم يمنع دوكامب ، حين فرغ فلوبير من كتابة « مدام بوفارى » ، من أن يعرض عليـه نشرها مسلسلة فى مجلته ـ «ريفو دى بارى» ـ كما لم يمنع الجفاء السابق فلوبير من أن يقبل العرض

يكتب « مدام بوفارى » فى ٥٥ شـهرا !

• وظل « لويس بوييه » الصديق الحميم الاوحد لفلوبير ، وكان هذا يعتبره شاعرا عظيما ـ وقد أثبتت الايام خطأه ! ـ كما كان يثق بحكمه وصواب آرائه الادبية ٠ ولاشك أن فلوبير يدين لـ « بوييه » بالفعل بفضل لا ينسى ، فلولاه لما كتب « مدام بوفارى » فى أغلب الظن ـ أو فى القليل لما جاءت بهذه الروعة ـ فلقد كان هو الذى أوحى لفلوبير بفكرتها كما أشرت ٠٠ وهو الذى راح يلح عليه ويحثه ، حتى أقنعه بعد مناقشات طويلة بأن يكتب ملخصا قصيرا لها ٠ فلما أطلع عليه أعجبه ، فشجع فلوبير على أن يلقى بنفسه فى « المعمعة » !٠٠ وكان هذا فى الثلاثين من عمره حين بدأ قصته الخالدة ، عام ١٨٥١

أقول حين « بدأها » ، لان كتابة القصة استغرقت مرحلة كاملة من حياته ٠٠ خمس سنوات !٠٠ أو ان شئت الدقة خمسة وخمسين شـهرا !٠٠ فلقد كان فلوبير مثالا للفنان « المجود » ، الذى يصقل ويعيد صقل عباراته ، بلا ملل ، حتى ليقضى أحيانا يوما كاملا فى الكتـابة ، يخرج منه بمحصول لايزيد على سطرين !٠٠ سطرين يرضى عنهما ، فيبقى عليهما ٠ كان فى أسلوبه يحذو حذو أساتذة البيان من أسلافه ، وعلى الاخص « لابروير » و « مونتسكيو » ٠ كان يؤمن بأن النثر ينبغى أن يكون مصقولا ، ناعمـا ، موسيقيا ، موزونا ـ كالشعر ـ وفى الوقت نفسه منطقيا ، يلتزم المعانى فى دقة وأمانة كاملتين ٠ كان من رأيه أن ليس هناك طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد ، وانما طريقة واحدة ، فان اللفظ ينبغى أن يطابق المعنى مثلما يطابق القفاز اليد !٠٠ كما أن مجموعة الالفاظ التى تتألف منها الفقرة الواحدة أو الصفحة من الكتاب ينبغى أن تكون وحدة موسيقية بالغة حد الكمال !٠٠ لم تكن الكلمة فى نظره مجرد رسول ينقل الفكرة الى القارىء ، وانما كانت « كيانا حيا » له صوت ، ورائحة ،

وشخصية ، وروح !٠٠ وكان يحرص جهد طاقته على أن لا يستعمل الكلمة الواحدة مرتين فى الصفحة الواحدة : « فانه من الخطأ أن يتحدى الكاتب « اذن » قرائه ، كما أن من الخطأ أن يتحدى قلبهم ! » ٠٠ أو على حد تعبيره فى مناسبة أخرى : « عندما أجد تكرارا فى احدى عباراتى ، أشعر انى قد وقعت فى شرك ، وارتكبت زيفا ! » ٠٠ وفى سبيل تجنب لفظ مكرر ، أو الاهتداء الى لفظ أقوى وأجمل ، لم يكن فلوبير يحجم عن مواصلة التفكير والبحث ، ولو اقتضاه ذلك أن ينفق فيه أسبوعا كاملا !٠٠

(ولعل « أوسكار وايلد » لم يكن مغاليا اذن حين وصف نفسه ، ومبلغ تأنقه فى الكتابة ، فقال انه توقف مرة عند عبارة واحدة يوما كاملا ، يتردد بين وضع علامة « شولة » فى وسطها أو حذفها ، فوضعها فى بداية النهار ، ورفعها فى نهاية الليل !)

وكان فلوبير يستخدم كل براعته فى « التأليف » بين الكلمات والعبارات ، كى يوحى بما كان يستشعره أحد أبطال القصة مثلا من حالة نفسية : من لهفة أو تراخ ، من تعب أو راحة ، من انفعال أو بلادة ٠٠ الخ ٠٠ بل ان براعته تبلغ الذروة حين يصف الملل أو الضجر الذى كانت تعانى منه « مدام بوفارى » بطلة القصة ، فى عشرات الصفحات ، دون أن يجعل الملل يتطرق اليك وأنت تقرأ وصفه التفصيلى له ! ٠٠ فهو يسرد سلسلة طويلة من الوقائع التافهة الضئيلة القيمة ، لما تفعله «ايما بوفارى»، وتشعر به ، أو تراه ، أو تفكر فيه ٠٠ حتى يبلغ من فرط تفاهة هذه السفاسف المتوالية أنك تحس احساسا صادقا عارما بمبلغ الضجر الذى كانت المرأة تعانيه !



رسم يصور فلوبير فى اخريات أيامه، رسمه الفنان « ا ٠ دى ليفار » ونشر بصحيفة « الحياة العصرية » فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٠.

وقد كانت طريقة فلوبير فى الكتابة أن يكتب مسودة لكل ما يعن له من أفكار بصدد الموقف الذى يصوره ، ثم يعود فيحذف ويؤخر او يقدم فى العبارات ، أو يعيد كتابتها ، حتى يحصل على النتيجة التى ينشدها ٠٠ وعندئذ يخرج الى

الشرفة فيروح يتلو ما كتب بصوت مسموع*، فاذا وجد فيه شيئا من «النشاز»، عاد الى مكتبه فانكب عليه ينقحه ويهذبه

وكان صديقه « بوييه » يحضر الى (كرواسيه) فى بعض أيام الآحاد ، فيقرأ عليه فلوبير ما كتبه خلال الاسبوع ، ويأخذ هذا فى انتقاده ، فيثـــور الكاتب ويجادل ، لكن الناقد يصمد له ، حتى يقنعه باجراء شيء من التعديل فى سياق الحوادث ، او حذف أو اضافة بعض التوافه والتفصيلات ٠٠ ومن ثم لم يكن عجيبا أن تستغرق كتابة احد الفصول - وهو الفصل الاخير من هذا الجزء الذى بين يديك - شهرين كاملين ، مع ان صفحاته لا تزيد على العشرين !٠٠ بل لقد كتب فلوبير فى احدى رسائله يقول : « انقضى يوما الاثنين والثلاثاء بأكملهمافى كتابة سطرين اثنين ! » ٠ وهذا لا يعنى انه لم يكتب سوى ذينك السطرين ، فقديكون كتب عشر صفحات ، ثم مزقها فلم يبق على غير السطرين اللذين رضى عنهما !٠٠ وبفضل هذا المجهود الشاق ، وذلك النقد الصارم من جانب « بوييه » ، - وقبل ذلك - بفضل حدة ملاحظة فلوبير لاتفه التوافه التى تمر تحت سمعه وبصره ، خرج على العالم فى نهاية الخمسة والخمسين شهرا بهذه التحفة الخالدة التى رفعته الى الصف الاول من ادباء العالم فى جميع العصور !

بل ان هذه الدقة الهائلة ، والصبر العجيب ، والخيال القدير على تصور - وتصوير - أضأل التفصيلات والتوافه ، هى سر طابع الصدق و « الواقعيــة » الذى تتسم به القصة ، والذى يجعلنا لا نكاد نلتقى باشخاصها حتى نحس انهم « أحياء » يعيشون فى عالمنا ، ونشاركهم مشـــاعرهم ٠٠ بل ونتعرف فيهم على بعض من نعرف فى مجتمعاتنا ، حتى لننسى بل نكذب انهم ابطـــال وهميون فى قصة مؤلفة !٠٠ واذا كنت تذكر من شـــخصيات « ديكنز » شخصية « مستر ميكاوبر » الفكهة مثلا ، فانك واجد هنا فى شخصية الصيدلى « هوميه » مخلوقا طريفا يفوق صداه فى نفوس الفرنسيين صدى الشخصية الاولى فى نفوس الانجليز

أبطال القصة جميعهم انذال !

◆ وقصة « مدام بوفارى » هى - مثل ملحمة « جيته » المشهورة « فاوست » - قصة حياة نفس خاطئة ، مع فارق هام : هو أن بطل قصة « جيته » تقـــوده غريزته فى النهاية الى الطريق الصائب ، بينما بطلةقصة فلوبير تقودها غريزتها الى الطريق الخاطىء ، رغم تخبط الاول فى حياته ، وتدبر الثانية لامر مستقبلها ٠٠ وما ذلك الطريق الخاطىء غير طريق الضجر ، فالخطيئة ، فالهلاك !٠٠ والملاحظ ان جميع الشخصيات الرئيسية فى القصة تغلب عليهم الضعة ، والنذالة ، والغباء ، والسوقية ، والتفاهة ٠٠ وهنا يبدو الانعكاس المباشر لنفسية فلوبير على القصة ، فان تشاؤمه التى تحدثنا عنه ، وحنقه على الذين يتصفون بتلك الصفات ، والمذلة

التى عاش يستشعرها بسبب نوبات مرضه واعتلال مزاجه واعصابه ٠٠ كل ذلك جعل معين الرحمة والبر ينضب من نفسه ، فلما اكب على كتابة قصة هذه المرأة الخاطئة ، فعل ذلك بقسوة الرجل الذى يخوض فى الوحل كى ينتقم لنفسه من الحياة التى لم تحقق تطلعه الى المثل العليا !

محاكمة فلوبير ٠٠ وتبرئته

◆ وقد نشرت « مدام بوفارى » مسلسلة على صفحات « ريفو دى بارى » ، فى سنة ١٨٥٧ ، فأقبل عليها القراء بحماسة هائلة ، وحين طبعت فى كتاب لقيت من فورها رواجا لا مزيد عليه ٠٠ ولكن بقدر اعجاب الجماهير بهـا ، كانت حملة النقاد عليها ، فقد اتهموا مؤلفها بانه مريض « بالجذام الخلقى » !٠٠ ثم القت السلطات القبض عليه بتهمة « نشر أدب الدعارة على الناس » !٠٠ وبعد محاكمة صاخبة ـ كما سترى عند مطالعة محاضر جلسات المحاكمة ومرافعتها فى ختـام الجزء الثانى من الكتاب ـ اخلى سبيله وحكم ببراءته ، وان شفعت المحكمة حكمها بكلمة لوم وتأنيب شفوية القاها عليه القاضى ! على ان الرأى العام تكفل باقناع النقاد والسلطات بأن « مدام بوفارى » انما هى صورة أمينة للحياة ٠٠ وانهـا فى تصويرها الدقيق ، ومطابقتها للواقع ، ليست اكثر انحرافا عن مبادىءالاخلاق من الوصف الصادق لاية كارثة من الكوارث التى تصيب الناس !

وبقى فلوبير قابعا فى عقر داره ، كراهب فى صومعة ، غير آبه سواء بعواصف التصفيق او حملات التقريع !٠٠ وبين حين وآخر كان يطلع على الناس برواية جديدة تشغلهم وتسليهم ـ أو على حد قوله : « أنا ساخر ، والسخرية هى الملح الذى يمكن الانسانية من هضم تفاهة الحياة ! » ـ وهكذا كتب عـلى التوالى : « سالامبو » (١٨٥٨ ـ ١٨٦٢) ، التى تجرى حوادثها فى (قرطاجنة) القديمة، وقد سافر من اجلها خصيصا الى تونس ، كى يدرس الجو الذى يمكنه من كتابتها ٠٠لكنها جاءت قصة فاشلة٠ثم اعقبتها « التربية العاطفية » (١٨٦٣ ـ ١٨٦٩)، التى صور فيها حبه لأليزا شليسنجر، والتى يعتبرها الكثيرون من أروع آياته٠٠

انتقاله الى باريس

◆ وتتابعت الاعوام ، وتزوجت ابنة اخته كارولين ، التى كانت تعيش مع أمه ومعه فى البيت ٠٠ وفى سنة ١٨٧٢ ماتت امه ، فاتخذ له مسكنا فى باريس ، حيث قضى أكثر وقته خلال الاعوام التالية ، ولكن فى مثل العزلة التى التزمها فى (كرواسيه) ، فيما عدا مرة او مرتين فى الشهر كان يلتقى فيهما مع بعض الادباء ليتعشوا سويا فى مطعم «مانييس»٠٠ونفر قليل من الاصدقاء كانوا يترددون عليه بين الفينة والفينة ٠ ويصفه احدهم ، وهو « ادمون دى جونكور » احد صاحبى الجائزة الادبية المعروفة بهذا الاسم ، بانه ظل ريفيا فى عاداته حتى بعد

انتقاله الى باريس ، فكان يحرص حين يتعشى فى مطعم على الجلوس فى احدى مقصورات المطعم الخاصة ، اذ لم يكن يحتمل ان يسمع ضجيجا او يجلس بالقرب من غرباء . وكان لا يشعر بالارتياح اثناء الاكل الا اذا خلع سترته وحذاءيه !

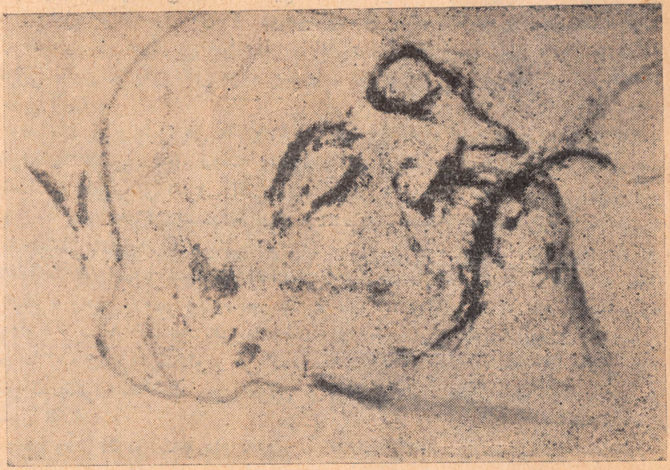
وفى تلك الاثناء اصيب زوج ابنة شقيقته كارولين بأزمة مالية هددته بالافلاس، فاضطر فلوبير كى ينقذه الى التنازل له عن ثروته كلها ! فلم تبق له غير داره فى (كرواسيه) وغير ايراد ضئيل ، سيما وان المسرحية التى كتبها فى عام ١٨٧٣ واطلق عليها اسم « المرشح » ، منيت بالفشل عند تمثيلها فى العام التالى ..فكان من نتيجة هذه الظروف السيئة ان عاودته نوبات الصرع التى كانت قد انقطعت عنه خلال السنوات السابقة .. فصار « جى دى موباسان » ـ الذى تتلمذ عليه ـ يوصله الى مسكنه كلما تعشى فى الخارج . ورغم ازدياد توتر اعصابه وسرعة غضبه ، فقد وصفه « جونكور » بانه كان شخصا مرحا له ضحكة الاطفال « المعدية » و ودهم الجذاب ، ووصفه « دو كامب » بانه كان ـ رغم عصبيته ـ « ألطف ابن يمكن أن تحلم به امرأة !.. ويكفى ان تقرأ رسائله الشائقة الى ابنة اخته كى ترى اى معين من الرقة كان فى أعماقه !» ..وهكذا، لو علم جيرانه ان هذا الكاره للجنس البشرى ، الذى اطلقوا عليه انه « رجل نكد يبغض الناس » ، قد انفق اكثر امواله على اقارب له معوزين يعيشون فى مناطق نائية ، وانه عاش يهب احسانه دون ان ينتظر جزاء ولا شكورا .. لكان رأيهم فيه غير ما قالوا وما أشاعوا !

يقرأ ١٥٠٠ كتاب .. ليؤلف كتابا !

◆ وفى سنواته الاخيرة عاد فلوبير الى عزلته الموحشة فى (كرواسيه) ، حيث صار يقضى اكثر العام ، فلا يذهب الى باريس الا فيما ندر ، كى يثرثر مع جورج صاند او يتناول العشاء مع فيكتور هوجو .. وصار يفرط فى الطعام والشراب والتدخين ، وتضاءلت موارده المالية ، فحصل له اصدقاؤه على وظيفة بلا عمل ، تكفل له ٣ آلاف فرنك فى العام . ورغم ان فكرة قبض مرتب بغير عمل قد أذلته، فانه اضطر الى قبولها ـ وان لم يمتد به الاجل فينتفع بها طويلا !

وكان آخر عمل أدبى اصدره فلوبير فى حياته ، (عام ١٨٧٧) ، كتابا باسم « ثلاث قصص » ، تضمن قصته القصيرة الممتازة « قلب بسيط » .. وفى تلك الاثناء كان يعد العدة لكتابة قصته الطويلة الاخيرة « بوفار وبيكوشيه » ، التى اعتزم ان يحمل فيها حملة جديدة على غباء الجنس البشرى . ولكى يزود نفسه بالمادة الاولية لكتابة القصة ، طالع ـ بدقته المعهودة ـ نحو الف وخمسمائة كتاب (كذا !) . وكان يقدر انه سيصدر القصة فى جزءين ، لكنه لم يكن قد فرغ الا من كتابة الجزء الاول ، حين دخلت الخادم حجرة مكتبه ، فى الساعة الحادية

عشرة من صبيحة يوم ٨ مايو سنة ١٨٨٠ ، كى تقدم اليه طعام الغداء ٠٠ فوجدته ملقى على الاريكة ، يتمتم بكلمات متقطعة غير مفهومة ! وهرعت من فورها الى الطبيب فأحضرته ، لكنه لم يستطع ان يفعل شيئا ٠٠ وبعد اقل من ساعة كان « جوستاف فلوبير » قد لفظ آخر أنفاسه !



فلوبير كمـــا بدا على فراش الموت بعـــد وفاته

خليلات ٠٠ اخريات

◆ وقد اصدرت احدى دور النشر الفرنسية فى الشهور الاخيرة كتابا حديثا عن فلوبير ، بقلم «لافاريند» ، أشار الى أسماء عدد من النساء الاخريات اللواتى كانت لفلوبير معهن صلات عشق عابرة ، عدا من ذكرنا ٠٠ ومن هؤلاء : « جين دى توربى » ، التى صارت تدعى فيما بعد : « الكونتة دى ليون » ، أو « غادة البنفسج » ٠٠ ثم «ابوللونى ساباتييه» ، أو « الرئيسة » ٠٠ و « الاميرة ماتيلد » ٠٠ فضلا عن امرأتين اقتصرت صلتهما به على تبادل المراسلات ، هما « اميلى بوسكيه » و « مدام دى جينيت » ٠ وقد وصفته أولاهما بانه لم يكن يحب غير

.. عمله ! .. وفيما عداه كانت غرامياته الاخرى محض « تسلية » !.. اما آخر امرأة ارتبط معها فلوبير برباط الصداقة فكانت « جورج صاند » ، التى كانت فى اخريات ايامها ، وقد ماتت قبله بأربعة أعوام

على انه يمكن القول ان المرأة« الوحيدة » التىأحبها فلوبير- حبا خالصا ،بتفان وتكريس- هى المرأةالتى لم ينلها: «اليزا شليسنجر»!.. وقدصرح ذات ليلة وهويتعشى مع «تيوفيل جوتييه» و «تين» و «دىجونكور» فى مطعم «مانييس»، تصريحا غريبا. قال انه لم ينل امرأة فى حياته نيلا كاملا ، وانه ما يزال بكرا ، وان جميع اللواتى نالهن لم يكن اكثر من « حشايا » لامرأة اخرى ، هى امرأة احلامه ! (يعنى اليزا)

وقد مات زوج اليزا فى عام ١٨٧١ ، بعد أن عادت عليه مضارباته المالية بالخراب والافلاس ، فأخذ زوجته واطفاله وذهب ليعيش فى مدينة (بادن) . وبعد موته كتب فلوبير الى اليزا ، التى أحبها طوال ٣٥ عاما ، رسالة الحب الاولى منه اليها .. فبدلا من ان يستهلها بعبارته المألوفة « سيدتى العزيزة » ، كتب : « يا حبيبتى الاولى ، يا حبيبتى الوحيدة » !.. ووافته فى (كرواسنيه) . كان كلاهما قد تغير تغيرا كبيرا منذ لقائهما الاخير : ترهل هو وصار بدينا ، تملأ « البقع » وجهه الاحمر ويتوسطه شارب كثيف ، ويغطى رأسه الاصلع بقلنسوة سوداء .. بينما جف عود اليزا فنحفت ، وفقدت بشرتها لونها الوردى ، وابيض شعرها !.. وقد وصف فلوبير فى كتاب « التربية العاطفية » هذا اللقاء التاريخى، الذى لم يتكرر بعد ذلك سوى مرتين أو ثلاث مرات ، فكان ذلك الوصف امتع فصول الكتاب ..

وبعد وفاة فلوبير بنحو عام ، قضى « مكسيم دوكامب » الصيف فى (بادن). وذات يوم خرج للصيد ، بجوار مصحة « ايناو » للامراض العقلية ، وفتحت بوابة المصحة كى تقوم المريضات بنزهتهن اليومية ، باشراف الحراس .. فخرجن اثنتين اثنتين ، واذا احداهن تنحنى له محيية

ولم تكن سوى « اليزا شليسنجر » ، المرأة التى أحبها فلوبير طيلة حياته .. حبا بلا أمل !

مدام بوفاري

جوستاف فلوبير



MADAME BOVARY

اهداء المؤلف

الى

مارى انتوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق للجمعية الوطنية ، والوزير الســابق للداخلية

أيها الصديق العزيز النابه :

اسمح لى بأن أسجل اسمك فى صدر هذاالكتاب ، وأن أتوج به الاهداء ، اذ أننى مدين لك ـ قبل أى انسان آخر ـ بنشره ٠ فبفضل دفاعك المجيد ، اكتسب كتابى هذا فى نظرى الخاص من الأهمية فوق ما كنت أرجو وأتوقع ٠٠

فتقبل هنا تحية اعترافى بالجميل ٠٠ تحية لن تبلغ قط ـ مهما تكن ـ مستوى بلاغتك واخلاصك

جوستاف فلوبير

باريس فى ١٢ ابريل سنة ١٨٥٧



- ١ -

الفصل الأول

• **كنا** فى حجرة الدراسة ، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدى الزى المدرسى ، وفراش يحمل قمطرا كبيرا ، فاستيقظ من كان نائما ، وانتصب كل منا واقفا ، وكأنه فوجىء على حين غرة برقيب على عمله !

وأشار الينا الناظر بالعودة الى الجلوس ، ثم التفت الى المدرس قائلا فى صوت خفيض : « مسيو روجيه .. هذا تلميذ أوصيك به . لقد التحق بالسنة الخامسة ، ولكن اذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل الى الفرق العليا التى تناسب سنه »

وفى الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقا ريفيا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، أطول قامة منا جميعا . وكان شعره منسقا ومستويا فوق جبهته ، كمغنى القرية ، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك . وبالرغم من انه لم يكن عريض المنكبين ، فان

سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العرى ٠٠ كما كانت قدماه - اللتان يكسوهما جوربان أزرقان - تبرزان من بنطلون أصفر ، تشده الحمالة شدا قويا ٠٠ وفى طرفيهما حذاءان سيئا التلميع ، تنتشر فيهما المسامير بكثرة ملحوظة ٠

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فأخذ التلميذ الجديد ينصت اليهم بكل جوارحه ، وكأنه يصغى الى موعظة فى الكنيسة ، دون أن يجسر حتى على أن يضع ساقا على ساق ، أو أن يتكىء بمرفقيه على القمطر !٠٠ وعندما دق الجرس فى الساعة الثانية ، اضطر المدرس الى أن ينبهه كى يتخذ مكانه فى الصف !

وكان من عادتنا ، اذا ما دخلنا حجرة الدرس ، أن نلقى بقلنسواتنا أرضا ، كى تتحرر أيدينا لأداء الصلاة ٠٠ فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيرا من الغبار ٠٠ وكانت هذه الحركة من « الاصول المرعية » التى نتباهى بها !

غير أن التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة ، أو لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها ٠٠ فانتهت الصلاة وقلنسوته ماتزال على ركبتيه ٠ وكانت قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين « الطاقية » ذات الوبر ، و « اللبدة » ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية !٠٠ وبالجملة ، كانت من تلك الأشياء المزرية التى يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة مايحمله وجه الأبله !٠٠ كانت بيضاوية ، يرفع جوانبها هيكل مضلع فى داخلها يكسبها الشكل المنتفخ ،وتبدأ بثلاث كريات صغيرة ، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل « المعين » الهندسى ، يفصل بينها شريط أحمر ٠٠ ويعقب ذلك شىء يشبه الكيس ، ينتهى بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة معقدة

الأشكال ، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع ، فى نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه « الشرابة » !

٠٠ كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقة !

وقال الأستاذ للفتى : « قف ! » ، فوقف ٠ وسقطت القلنسوة ، فانفجر التلاميذ جميعا ضاحكين ، بينما انحنى هو فالتقطها ، ولكن جاره أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه ، فعاد الفتى الى التقاطها من جديد ٠ وكان المدرس حاضر النكتة ، فقال له : « **تخلص يا أخي من خوذتك !** »

وانطلق التلاميذ فى ثورة من الضحك المجلجل ، أربكت الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدرى أيحتفظ بقلنسوته فى يده ، أم يلقيها على الأرض ، أم يضعها على رأسه ٠٠ وأخيرا ، جلس ووضعها على ركبتيه ٠

وعاد الأستاذ يقول له : « قف ٠٠ ما اسمك ؟ » ٠٠ وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم ، فهتف الأستاذ : « أعد ! » ٠٠ وكرر التلميذ المقاطع ذاتها ، فى تمتمة طغت عليها قهقهة زملائه جميعا ٠٠ فصاح الاستاذ : « ارفع صوتك ! ٠٠ ارفع صوتك ! »

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وفغر فاها مترامى الأبعاد ، وعبأ رئتيه ثم قذف باسم « شار بوفارى » وكأنه ينادى شخصا !

وانفجر التلاميذ فى ضجيج صاخب ، حاد ، مضطرد ٠٠ فأخذوا يصيحون ، وينبحون ، ويدقون الأرض بأقدامهم مرددين : « شار بوفارى ٠٠ شار بوفارى ! » ، فى نغمات مسترسلة ، لم تكن تهدأ ــ بعد مشقة بالغة ــ الا لتعود فى ناحية من حجرة الدراسة ، أو فى صف بأكمله من صفوف التلاميذ ، تتخللها ــ هنا وهناك ــ ضحكة مكتومة ، كصاروخ لم يخمد بعد تماما ٠٠

وأخيرا ، عاد الهدوء الى حجرة الدراسة رويدا ، بعد وابل

من العقاب ، وتمكن الاستاذ من التقاط اسم « شارل بوفارى »، بعد أن طلب الى صاحبه أن يوضحه كتابة ، وهجاء ، وتلاوة ! .. ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على « مقعد الكسالى » تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبنا يتحرك . بيد أنه تردد قبل أن يبرح مكانه ، فسأله الأستاذ : « عم تبحث ؟»

وأجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة : « قلنسو .. » !.. ولم يتم كلمته ، اذ انفجرت العاصفة من جديد ، فصاح الأستاذ فى غضب هادر : « على كل منكم أن ينسخ خمسمائة بيت من الشعر » . وكانت صرخته أشبه بصيحة « نبتون » ـ اله البحار ـ التى أطلقها متوعدا الرياح اذ ثارت دون أمر منه ، على ماجاء فى الأساطير !.. ومالبث أن أضاف وهو يجفف جبينه بمنديل أخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل : « كفى !.. الزموا السكون ! » .. ثم التفت الى التلميذ الجديد قائلا : « اما انت ، فعليك أن تنسخ لى عبارة « انا مضحك » عشرين مرة ».. ثم أردف فى صوت أكثر رقة : « لسوف تجد قلنسوتك ، فان أحدا لم يسرقها » !

وعاد كل شىء الى هدوئه ، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين فى جلسة مثالية ، وان أخذت تنطلق ـ بين وقت وآخر ـ كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه . وكان يمسح المداد بيده ، ويستأنف جلسته بغير حراك ، وهو منكس البصر !

وفى حجرة الاستذكار ـ فى المساء ـ أخرج من درجه الكمين الأسودين اللذين يلبسان لصيانة كمى السترة وقت العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وأنجز فى عناية كتابة العبارة التى فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله فى اخلاص، باحثا فى القاموس عن جميع الكلمات ، غير مدخر جهدا . ولا شك أن هذه الارادة الطيبة هى التى حالت دون نقله الى فرقة دراسية أدنى من التى ألحق بها ! .. ومع أنه كان ملما

بقواعد اللغة الى حد ما ، الا أنه لم يؤت رشاقة التعبير ، فقد كان قس قريته هو الذى بدأ تلقينه اللاتينية ، اذ أرجأ أهله ارساله الى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصادا للنفقات !

* * *

• **كان أبوه** « شارل دنى بارتلومى بوفارى » مساعد جراح سابق فى الجيش ، تورط فى بعض المسائل المتصلة بالتجنيد فى سنة ١٨١٢ ، واضطر الى ترك الخدمة . بيد انه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية ، فظفر بصداق — « دوطة » — قدره ستون ألفا من الفرنكات ، حملته اليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته !.. فقد كان فارع القوام ، يحسن التهريج والشنشنة بمهمازيه ، وقد أرسل لحية متصلة بشاربيه ، واعتاد ان يزين أصابعه دائما بالخواتم ، وأن يتخير لملابسه الألوان الصارخة !.. وكان له مظهر الرجل الشجاع ، مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش — بعد الزواج — عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغذاء الطيب ، ويستيقظ متأخرا ، ويدخن فى غلايين كبيرة من الخزف ، ويتردد على المقاهى ، ولا يعود الى منزله فى كل مساء الا بعد أن تغلق المقاهى أبوابها . حتى اذا مات والد زوجته ، أحنقه أن الرجل لم يخلف ثروة تذكر ، فحاول أن يدير المصنع من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فآثر الانسحاب الى الريف حيث حاول أن يعمل فى الانتاج الزراعى .. غير أنه لم يكن أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة .. **وكان يمتطى الخيل بدلا من أن يرسلها للحرث ، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلا من أن يبيعه بالبرميل ، ويأكل خير مافى حظيرته من دواجن ، ويؤثر حذاءى الصيد بشحم خنازيره ، فلم يلبث أن تبين أن من الخير له ان يتخلى عن استثمار مابقى له من مال !**

واستطاع أن يجد فى احدى القرى المتاخمة لمقاطعتى (كو) و (بيكاردى) ، مسكنا ـ يشبه دور الفلاحين بقدر مايشبه دور السادة ـ مقابل مائتى فرنك فى العام ، فاحتبس فيه نفسه مذ كان فى الخامسة والأربعين من عمره ، وقد استبد به الغم ، وأخذ الندم ينهشه ، وراح يسب القدر ، ويحسد الناس ، ويعلن أنه قد سئم البشر أجمعين .. وقرر أن يعيش فى هدوء !

وكانت زوجته فى البداية مدلهة فى هواه ، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع مازاده منها نفورا !.. وكانت فى فجر شبابها مرحة ، منطلقة ، تفيض نفسها حبا ، فأمست بمضى الأعوام عصبية المزاج ، كثيرة الصياح ، ثائرة .. وكأنها النبيذ الذى تخلخل غطاء دنه فاستحال الى خل !

كانت قد تحملت أشد الآلام في بادىء الأمر ، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود اليها فى المساء ـ بعد أن تلفظه عشرات المواخير ـ وريح الخمر تهب منه !.. فلما ثارت كبرياؤها ، لم تملك سوى أن تكتم الغضب فى صدرها ، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفى لازمها حتى الموت !.. وكانت دائمة الحركة ، تذهب الى موثقى العقود ، وتسعى الى العمدة ، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين .. أما في البيت ، فكانت تنهمك فى الكى والحياكة والغسيل ، وتراقب العمال ، وتنقدهم أجورهم .. فى حين لم يكن السيد يعبأ بشىء ، بل كان يستغرق فى اغفاء عابس واجم ، لا يفيق منه الا ليوجه اليها عبارات جارحة ، ثم ينصرف الى التدخين بجوار المدفأة ، باصقا بين الفينة والفينة على رمادها !

وعندما أنجبت طفلا ، اضطرت الى أن تعهد به الى مرضعة .. حتى اذا عاد « المحروس » الى أبويه ، أسرفا فى تدليله كما لو كان أميرا ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربى ..

وكان الأب يتركه يرتع حافى القدمين ،ويتعلل ـ متفلسفا آ ـ بأن طفله قادر على أن يظل عاريا كصغار الحيوانات !٠٠ وكان الأب ـ على العكس من اتجاهات الأم ـ يتخيل فى ذهنه صورة لما ينبغى أن تكون عليه رجولة الطفل ، فحاول ـ لتحقيقها ـ أن ينشىء ابنه نشأة خشنة ، على غرار الطريقة « الاسبرطية » ٠٠ فكان يرسل الطفل الى الفراش دون مانار تدفىء حجرته ، ليقوى بنيته ! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من«الروم»، ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية ! ٠٠ بيد أن الطفل كان هادئا بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات ٠

وكانت أمه تجره خلفها دائما ، وتصنع له من الورق المقوى لعبا ، وتروى له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل ٠ وفى تلك العزلة التى كانت تعيش فيها ، صبت فى مخيلة الطفل كل ماكان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع فى أن ترضى به كبرياءها المحطمة ٠٠ كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتتصوره وقد كبر ، وغدا جميلا ، حاضر البديهة ، متربعا فى احدى مناصب مصلحة الطرق والجسور ، أو فى أحد مراكز القضاء ٠ ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته أغنيتين أو ثلاثا ، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم تملكه ٠

على أن مسيو «بوفارى» ، لم يكن يحفل كثيرا بالثقافة ، فلم ير فى كل هذه الجهود شيئا ذا قيمة ٠٠ كان كل مايعنيه هو التفكير فيما اذا كان سيقدر لهما يوما أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل فى مدارس الحكومة ، او مايمكنهما من أن يبتاعا له مكتبا أو متجرا ٠ وكان ـ فوق ذلك ـ يعتقد ان الانسان يستطيع أن ينجح فى الحياة٠٠ بالصفاقة !٠٠ أما مدام «بوفارى» فكانت تعض شفتيهاحنقا، وهى ترى ابنها يتسكع فى القرية٠٠ اذ كان يحلو للطفل ان يتبع المزارعين فى حرثهم ، وأن يطارد الغربان بالطوب ، وأن يقتطف التوت من فوق الاشجار ،

ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتـولى ، فى أوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ، ويرتع فى الغـابة ، ويلعب «الحجلة» فى فناء الكنيسة فى الايام المطيرة ! ٠٠ وكان يتوسل الى خادم الكنيسة ليتركه يدق الاجراس فى الاعياد الكبيرة ، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم ، وينعم بالاحساس بنفسه محمولا على الهواء والحبل يتأرجح به !

وهكذا نشأ الصبى نشـأةطبيعية ، كشـجرة البلوط ٠٠ فأوتى يدين قويتين ، ولونا بديعا !

واذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، ألحت أمه فى أن يبـدأ دراسته ، فتعهده قس القرية ، غير ان الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير ٠٠ فقد كان القس يلقنه هذه الدروس فى مخزن الكنيسة ، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز !٠٠ وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه ٠٠ بل ان القس كان يرسل فى استدعاء تلميذه ــ فى بعض الايام ــ عقب فراغه من صـلاة الغروب ، اذا لم يكن لديه مايدعوه للخروج ٠٠ فكانا يصعدان الى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحـوم حوله الذباب وفراشات الليـل ٠٠ وكان الجو الحار يغرى الصبى بالنوم ، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه ، فلا يلبث أن ينبعث الغطيط من فمه المفتوح !٠٠ كذلك كان القس أثنـاء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى فى قرية مجاورة يلتقى أحيانا بشارل وهو يتسكع فى الحقول ، فيدعوه اليه ، ويقضى ربع الساعة فى وعظه تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذى كلفه باسـتذكاره ٠٠ وكثيرا ماكان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر ، أو مرور أحد المعـارف ٠ وكان القس ــ بعد ذلك ــ يبدى رضاءه عن الصبى ٠٠ بل انه كان يقول ان له ذاكرة قوية !

ولم يكن لشارل ان يكتفى بهـذا القدر من الدراسـة ، اذ

كانت أمه قوية فى اصرارها على تعليمه .. ولم يشأ الوالد أن يقاوم ، اذ غلبه الحزن ، أو - بالأحرى - التعب . ولكنهما تريثا عاما آخر ، ريثما يتاح للصبى ان يتناول « القربان المقدس » الأول فى حياته . وما أن انقضت ستة أشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائيا ارساله الى مدرسة (روان) ، وصحبه أبوه بنفسه فى أواخر شهر أكتوبر ، ابان موسم « القديس رومان »

★ ★ ★

◆ **يستحيل** على أحد منا ان يتذكر الآن شيئا عن « شارل بوفارى » .. على انه كان عادى المزاج والطباع ، يلعب فى فترات الفراغ ، ويستذكر فى الحجرة المخصصة لذلك ، ويصغى بانتباه فى حجرة الدرس ، ويأكل فى المطعم ، وينام فى « العنبر » .. شأن أى تلميذ آخر !.. وكان ولى أمره فى (روان) تاجرا يبيع الحديد الخردة بالجملة ، فى شارع (جانتيرى) . وقد اعتاد ان يسمح له بالخروج من المدرسة فى يوم واحد من أيام الآحاد فى كل شهر . فكان يفد - بعد ان يغلق متجره - ليصحبه الى النزهة ومشاهدة السفن فى الميناء ، ثم يعود به الى المدرسة فى الساعة السابعة ، قبيل موعد العشاء . وفى مساء كل يوم خميس ، كان الصبى يكتب لأمه خطابا طويلا بالمداد الأحمر ، يغلفه جيدا ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ فى كتاب قديم - عن رحلة «أنا كارسيس» - يعثر به مهملا فى غرفة الدرس . كما كان يحلو له - أثناء « الفسحة » - أن يتحدث الى الخادم الذى كان من أبناء الريف مثله !

واستطاع بفضل اجتهاده ان يحتفظ دائما بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة . بل انه وفق مرة الى الحصول على جائزة فى التاريخ الطبيعى . بيد ان والديه مالبثا ان سحباه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد فى الفرقة الثالثة ، ليحملاه

على دراسة الطب فقط ، اذ كانا يؤمنان بقدرته على ان يستكمل دراسته دون ما معونة !

واختارت له أمه حجرة فى الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة . وبعد ان دبرت أمر اقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل فى منضدة ومقعدين ، كما أحضرت من دارها سريرا قديما من خشب الكريز ، وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين !.. ثم رحلت فى نهاية الاسبوع ، بعد أن أزجت اليه مئات الوصايا بأن يحسن السلوك ، بعد ان غدا طليقا بغير رقيب

على ان « شارل » كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة فى لوحة الاعلان .. كانت هناك دروس فى التشريح ، ودروس فى علم الأمراض (الباثالوجيا) ، ودروس فى علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، ودروس فى الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس فى الكيمياء .. وفى النبات .. وفى التشخيص ، والعلاج .. عدا علم الصحة ، وعلم الطب ... أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعا ، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

ولم يفهم من هذه الدروس شيئا ! .. بل انه لم يستطع ـ رغم اصغائه فى انتباه تام ـ ان يدرك لها مغزى !.. وكانت لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد، ولم يتخلف يوما عن الطواف بأسرة المرضى فى المستشفى .. كما كان يؤدى واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة ، اذ يدور فى مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف عن نوع الحبوب التى يسخر لطحنها شيئا !

وكانت أمه ترسل اليه فى كل اسبوع قطعة من اللحم المشوى ، فكان يتناول منها غداءه ـ اذا ما عاد من المستشفى

ـ وهو جالس ينقر الحائط بحذائه ٠٠ ثم لا يلبث ان يعود الى الدروس فى قاعة الجراحات أو « عنابر » المستشفى ٠ حتى اذا أفل النهار ، عاد الى داره سالكا الطريق الطويل عبر البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل، ثم يصعد الى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفأة ، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة ٠٠

وفى أمسيات الصيف الجميلة ، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة ، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين أمام الدور ، كان « شارل » يفتح نافذته ، ويتكىء بمرفقيه على حافتها ، ليطل على الترعة ، التى تجعل من هذا الحى من أحياء (روان) مايشبه مدينة (بندقية) صغيرة ، متواضعة ٠ وكانت الترعة تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار ، تنعكس على صفحتها الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء ٠٠ وقد جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها ٠٠

وعلى أسطح المنازل المقابلة ، كان يرى ضفائر غزل القطن وقد علقت الى عصى طويلة لتجف ٠٠ وخلف تلك الأسطح ، كانت السماء الصافية تمتد ، والشمس تجرر أذيالها نحو الغروب ٠٠ لكم كان الجو يبدو له جميلا ، والهواء منعشا ، فى ظلال الأشجار ٠٠ فكان يفتح طاقتى أنفه بشدة ، ليجتذب على البعد روائح الريف التى لم تكن تترامى اليه !

وأخذ جسمه ينحف ، وقده يستطيل ٠٠ واكتسى وجهه وجوما ساجيا أضفى عليه شيئا من الجاذبية ! ٠٠ وبدأ حماسه للدرس يفتر ، فكان من الطبيعى ان يتحلل من العهود التى قطعها على نفسه ٠٠ وكان ان تقاعس يوما عن المرور لتفقد المرضى بالمستشفى ٠٠ وفى اليوم التالى تخلف عن احدى المحاضرات ٠٠ وشيئا فشيئا ، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر الى الانقطاع عن الدروس تماما ! ٠٠ وادمن ارتياد المقاهى ، وشغف بلعب « الدومينو » ٠٠ وخيل له ان فى

احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ، فى حانة قذرة ، حيث يقرع رخام المناضد بقطع « الدومينو » المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء ٠٠ خيل اليه ان فى هذا العمل مظهرا للحرية يرفع من تقديره لنفسه ! ٠٠ كان هذا – فى نظره – مقدمة للحياة الدنيا ، وسبيلا الى اللذات المحظورة !٠٠ فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب – بعد عودته الى غرفته فى المساء – بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية !

وتفتحت نفسه عن أشياء كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات التى كان يستقبل بها الزائرات ، وتحمس لبيرانجيه ، مؤلف الاشعار الغنائية ٠٠ وتعلم كيف يمزج أنواع الكحول ٠٠ وأخيرا ، عرف الحب !

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية ، كان رسوبه فى الامتحان شنيعا ، بينما كان والداه يرتقبانه فى دارهمـا ليحتفلا بنجاحه !

* * *

◆ **وعاد** « شارل » سائرا على قدميه ، حتى اذا بلغ مدخل القرية ، توقف وأرسل فى طلب أمه ، وقص عليها ما أصابه. فالتمست له الاعذار ، وعزت رسـوبه الى ظلم الممتحنين ، وأولته بعض التشجيع ، آخذة على عاتقها تدبير الامور ! ٠٠ ولم يعلم مسيو « بوفارى » بالحقيقة الا بعد خمس سنوات ٠٠ وكانت قد فقدت جدتها ، فتقبلها فى تسليم ، وان لم يتصور ان من الممكن أن يكون فى سلالته ابن خائب !

على ان « شارل » تحول الى الجد مرة أخرى ، فأقبل يراجع دروسه بغير توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز فى الامتحان النهائى بدرجة لا بأس بها ٠٠ وما كان أسـعد أمه يوم نجاحه ! ٠٠ فلقد أولمت يومذاك وليمة كبيرة !

والآن ٠٠ ترى أين يباشر مهنته ؟ ٠٠ أفى (توست) ؟ ٠٠ لقد كان هناك طبيب طاعن فى السن تتوقع مدام «بوفارى» موته

منذ أمد طويل ، فلم يتريث « شارل » حتى يودع الشيخ الحياة ، بل استقر فى مواجهته كخليفة له !

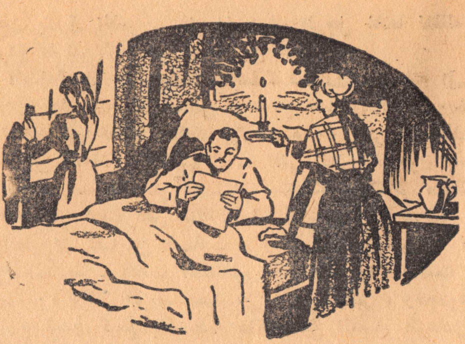
ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب ، واتخاذ (توست) مقرا يزاول فيه مهنته ٠٠ **اذ كان لا بد له من امرأة ! ٠٠ ووجدت له أمه الزوجة المنشودة ٠٠ أرملة احد محضرى (دييب) ٠٠ لها من العمر خمس وأربعون سنة ، ومن الدخل ألف ومئتا فرنك !**

ومع ان مدام « دوبيك » هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد ، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم فى الأشجار فى فصل الربيع ، الا ان فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها ، مما حدا بالأم « بوفارى » الى ان تجاهد كى تتغلب على الساعين للفوز بيدها ! ٠٠ وبالفعل ، استطاعت ان تحبط ألاعيب قصاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان « شارل » يخال ان الزواج سيمكنه من تحسين حاله ، فيغدو أكثر حرية وقدرة على التصرف فى شئونه الشخصية والمالية ٠ بيد ان زوجته لم تلبث ان غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملى عليه ما ينبغى ان يقول أمام الناس وما يجب ان يمتنع عن قوله ! ٠٠ وفرضت عليه ان يصوم أيام الجمعة ، وان يرتدى من الثياب ما تحب هى ٠٠ وان يلح فى مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعابا ! ٠٠ **بل انها كانت تفتح خطاباته ، وتراقب حركاته ، وتسترق السمع خلال ثقوب الباب ، اذا ما حضرت الى العيادة بعض السيدات لاستشارته !**

وفضلا عن هذا ، كانت فى حاجة الى كوب من « الكاكاو » كل صباح ، والى أنواع من الرعاية لا حصر لها ٠٠ وكانت دائمة الشكوى من أعصابها ، وصدرها ، ومفاصلها ! ٠٠ يؤذيها وقع الأقدام ٠٠ وتثقل عليها الوحدة اذا غادرها ٠٠ فاذا سعى أحد الى جوارها ، ظنت انه لم يأت الا ليشهد

احتضارها ! ٠٠ وكانت اذا ما عاد « شارل » فى المساء ، تخرج من تحت أغطية الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبته ٠٠ وما ان يجلس على حافة الفراش ، حتي تنطلق تبث همومها : فهو ينساها ، ويحب غيرها ! ٠٠ ولقد تنبأوا لها بأنها ستشقى !٠٠ ثم تنتهى من فيض الهموم والهواجس الى أن تسأله زجاجة من دواء يقوى صحتها ٠٠ وقدرا أكبر من الحب !!



الفصل الثانى

◆ حوالى الساعة الحادية عشرة من احدى الليالى ، استيقظ « شارل » وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع ، لم يلبث ان وقف أمام باب دارهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثا قصيرا مع رجل كان تحت النافذة .. واذ أنبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب ، وانه يحمل رسالة اليه ، هبطت درجات السلم وهى ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعا ..

وترك الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحما المخدع دون انتظار ، ثم أخرج من قلنسوته الصوفية ذات « الشرابات » الرمادية ، رسالة ملفوفة فى اطواء قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب الى « شارل » الذى اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقرأها ، بينما وقفت « نستازى » ــ الخادم ــ الى جوار السرير تحمل الضوء .. ودفع الحياء زوجة الطبيب الى ان تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها اليهم ..

وتضمن الخطاب ــ الذى كان مغلقا بخاتم صغير من الشمع الأزرق ــ رجاء ضارعا الى السيد « بوفارى » كى يبادر فورا الى مزرعة (برتو) ليجبر ساقا مكسورة .. وكانت المسافة بين (توست) و (برتو) تزيد على ستة فراسخ ، فى طريق زراعى تمر بكل من (لونجفيل) و (سانتا فيكتور) .. وكان الليل حالكا ، والسيدة الزوجة تخشى ان يحل بزوجها أى مكروه . لذلك استقر الرأى على ان يرحل الرسول ، ثم يتبعه « شارل » بعد ثلاث

ساعات - حين يشرق القمر - على ان يوفد الرجل غلاما للقائه فيرشده الى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون فى طريقه من حواجز

وفى نحو الساعة الرابعة صباحا ، بدأ « شارل » رحلته الى (برتو) ، متدثرا بمعطفه • ولم يكن قد تخلص تماما من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله فى خطوات هادئة تؤرجحه •• حتى اذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك - التى كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع - استيقظ من اغفائه منتفضا ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ فى استعراض كافة أنواع الكسور التى عرفها •

وما لبث المطر ان كف عن السقوط ، وأخذ النهار يدنو •• وعلى غصون أشجار التفاح العارية ، وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة •• وكان الريف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادى الشاسع الذى كان يختلط عند الافق بظلمة السماء ••

وكان « شارل » يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس ان يغلبه ، ويستسلم لسنة حالمة يختلط فيها حاضره بذكرياته •• حتى لقد خال لنفسه شخصيتين فى وقت واحد : فهو طالب ، وزوج ، معا •• وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يجوس فى قاعة الجراحات كما كان يفعل أيام الدراسة •• واختلطت فى رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية ، وبحفيف حلقات الستائر وهى تنزلق على قضبان السرير ، وزوجته تغط فى نومها !

واذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيرا يجلس على العشب ، عند حافة حفرة ••

وهتف الغلام اذ رآه : « أأنت الطبيب ؟ »

واذ أجابه « شارل » ، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه ، وانطلق يعدو أمامه ليرشده الى الطريق

وأدرك الطبيب من دليله أثناء سيرهما ، ان ساق مسيو « روو » - الذى كان ولا بد من اثرياء المزارعين - قد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه ، وان زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له الا ابنة تساعده فى شئون المنزل •

وتخللت الطريق آثار عجلات أخذت تزداد عمقا اذ اقتربا من (برتو) • وما لبث الغلام ان اختفى خلال فرجة فى سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة الى الظهور عند نهاية السياج ، فيفتح الباب •• وسار الحصان وحوافره تنزلق على العشب المبتل •• وأحنى « شارل » رأسه ليتجنب الأغصان •• واذ دخل الضيعة ، أخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التى تربطها

الى مأويها ، فأجفل الجواد فى فزع شديد ..

كانت ضيعة بديعة .. ومن خلال الأبواب المفتوحة ، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة فى مذاود جديدة .. بينما تكدست على طول الجدران أكوام السماد التى تتصاعد منها الأبخرة .. وبين الدجاج والديكة الرومية ، بدت خمسة طواويس او ستة تلتقط الحبوب ، وينم مظهرها على انها حقيقة مفخرة حظائر مقاطعة (كو)

اما حظيرة الأغنام فكانت طويلة ، والمخزن عاليا مصقول الجدران .. وتحت المظلة ، كانت ثمة عربتان كبيرتان ، وأربعة محاريث كاملة بأسواطها ، واطواقها ، وسروجها التى اتسخ كساؤها الصوفى الأزرق ، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن .. وكان الفناء يرتفع تدريجا ، وقد تخللته أشجار غرست على أبعاد منتظمة .. ومن ناحية البحيرة ، انبعثت أصوات الأوز

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة فى ثوب من الصوف محلى بثلاثة أفواف (كرانيش) ، فاستقبلت السيد « بوفارى » وقادته الى المطبخ ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلى فوقها طعام الفطور ، فى قدور من جميع الأحجام .. والى أحد جانبى المدفأة ، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج .. وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رصت على طول الجدار أدوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تخالطه طلائع أشعة الشمس التى أخذت تنساب خلال زجاج النوافذ

وما لبث « شارل » ان صعد الى الطابق الأول من الدار ، ليرى المريض ، فالفاه فى فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد القى طاقيته القطنية جانبا ..

كان رجلا بدينا ، قصيرا ، فى الخمسين من عمره ، أبيض البشرة ، أزرق العينين ، أصلع مقدم الرأس ، ويزين اذنيه بقرطين ! .. وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر أخذ يرفعها الى فمه بين الفينة والفينة ، ليشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه .. وبدلا من ان يمضى فى سيل الشتائم التى كان يطلقها بسخاء منذ اثنتى عشرة ساعة ، تحول يئن أنينا خافتا ..

وكان الكسر بسيطا ، لم تصحبه أية مضاعفات .. بل ان « شارل » لم يكن يطمع فى كسر اسهل منه ! .. وتذكر لفوره مسلك أساتذته بجوار أسرة الجرحى ، فاخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة .. وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذى يدهنون به مباضعهم (مشارطهم) !

واخذ اهل المريض يبحثون فى المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات الخشبية ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها الى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها أربطة .. والآنسة « ايما » - ابنة الرجل - تحيك وسادات صغيرة .. وكانت قد أضاعت وقتا طويلا فى البحث عن صندوق أدوات الحياكة ، فلما استحثها والدها لم تجبه ببنت شفة ، وانما اقبلت على الحياكة .. وكانت ، كلما شكت الابرة أصابعها ، ترفع هذه الأصابع الى فمها وتمصها ! .. وأعجب « شارل » ببياض أظافرها اللامعة ، الدقيقة الأطراف .. كانت أكثر نصوعا من عاج (دييب) ، وقد قصت على شكل اللوز ! .. على ان يدها لم تكن - رغم ذلك - جميلة ، ولعل بشرتها كانت أقل صفاء مما ينبغى ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع .. كانت يدا مسرفة فى الطول ، يعوزها شيء من ليونة التثنى ! .. ولكن جمال الفتاة كان يتركز فى عينيها العسليتين اللتين كانت أهدابهما تضفى عليهما صبغة السواد .. واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحى للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

واذ انتهت عملية التجبير ، دعا مسيو « روو » الطبيب الى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط « شارل » الى بهو الطابق الأرضى ، حيث ألفى المائدة معدة لشخصين ، الى جوار سرير كبير ذى غطاء من قماش محلى برسوم تمثل أشخاصا من الأتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن ، وقد بدت بعض الملاءات النظيفة فى صوان من خشب البلوط فى مواجهة النافذة .. وفى الأركان ، رصت جوالات الحنطة التى ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية ..

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا(١) رسم بالقلم الأسود ، وأحيط باطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : « الى ابى العزيز » .. وقد علقت الصورة الى مسمار فى وسط الحائط الذى تساقط طلاؤه الاخضر بفعل الرطوبة .

* * *

◆ وجلست الفتاة الى المائدة مع « شارل » .. وجرى الحديث : عن المريض - أولا - ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التى تعدو خلال الحقول فى الليل . وكانت الآنسة « روو » لا تستطيب الاقامة فى الريف ، لاسيما بعد ان غدت تضطلع وحدها - تقريبا - برعاية شئون المزرعة .. وكانت ترتجف اثناء تناول الطعام ، لفرط رطوبة الصالة ، مما كشف قليلا عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت ان تعضهما فى أويقات الصمت ..

---

(١) كتابى : « منيرفا » كانت الهة الحكمة عند القدماء

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة ، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان - لفرط نعومتهما - قطعة واحدة ، تنشق الى شعبتين - عند منتصف الرأس - بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود الشعبتان الى الالتقاء خلف الرأس فى كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ ، لا تكاد اذنا الفتاة تبينان خلالهما .. وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعرا منسقا بهذا الشكل ! .. أما وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين .. وكانت ثمة عوينة فى اطار من الصدف تتدلى من زرين فى صدارها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد « شارل » ليودع الأب - « روو » - ثم هبط الى البهو ثانية ، فاذا الفتاة واقفة الى النافذة ، وقد اسندت اليها جبهتها ، وأخذت تتأمل الحديقة ، حيث اطاحت الريح بالعصى الخشبية الصغيرة التى كانت تسند شجيرات الفاصوليا ..

وحين شعرت به ، التفتت اليه متسائلة : « أتبحث عن شيء ؟ » .. فأجاب : « سوطى ، من فضلك ! »

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقاعد .. غير ان السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات . وما لبثت « ايما » ان لمحته ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه .. ودفعت الشهامة « شارل » الى ان يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فاذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه .. وبادرت هى الى الاعتدال وقد تضرج وجهها ، ثم التفتت اليه من فوق كتفها وهى تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور ..

وبدلا من ان يعود « شارل » الى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد ، جاء فى اليوم التالى مباشرة ، ثم أخذ يتردد على الضيعة مرتين فى الاسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التى كان يقوم بها من آن الى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

وسارت الامور على مايرام ، وتم شفاء المريض .. وعندما رؤى الأب « روو » - بعد ستة وأربعين يوما - يحاول السير وحده فى بيته العتيق ، اعتبر الناس مسيو « بوفارى » نطاسيا بارعا ، لاسيما حين أخذ الأب « روو » يردد انه ما كان من الممكن ان يحظى بعلاج من أكبر أطباء (ايفتو) - أو (روان) - يفوق العلاج الذى حظى به على يدى مسيو « بوفارى » !

ولم يفكر « شارل » فى ان يسائل نفسه عن سر المتعة التى يستشعرها فى التردد على (برتو) .. ولو انه حاول التساؤل لما كان ثمة شك فى ان يعزو هذا الاسراف الى خطورة حال المريض ، أو الى الكسب الذى كان يرتقبه . ولكن ، أحقا كان هذا هو السبب فى ان زياراته لتلك الضيعة كانت تبدو - خلال شواغل حياته - كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة ؟

* * *

◆ كان فى أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكرا ، ويرحل فى عجلة ، مستحثا دابته ٠٠ حتى اذا ترجل أمام الدار ، مسح نعليه بالحشائش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل ان يلج ٠٠ وكان يحس بالنشوة ، اذا ما بلغ الفناء ، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله !٠٠ وأحب الأب « روو » الذى كان يربت يده ويدعوه بمنقذه ! ٠٠ كما أحب وقع حذاءى « ايما » على أرض المطبخ النظيفة ٠٠ كان كعباها العاليان يضيفان طولا الى طولها ٠٠ وكان النعل الخشبى يرتفع ـ اذا ما سارت أمامه ـ ليصطك بجلد الحذاءين فى صوت مكتوم ٠٠

وكانت الفتاة ترافقه دائما عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجى، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده ٠٠ وكانا يظلان صامتين ـ اذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل ـ والهواء الطلق يهب حولهما فيعبث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفى حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الأعلام ٠٠

وحدث فى احدى المرات ان ذاب الجليد ـ وهى تقف عند مدخل الدار ـ فبلل الماء المنساب جذوع الأشجار ، واخذ يتساقط من أسطح مبانى الضيعة، فتحولت « ايما » الى الداخل وأحضرت مظلتها ففتحتها ٠٠ وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الألوان ، المعروف باسم « رقبة الحمامة » ، فلما نفذت خلاله أشعة الشمس ، عكست على بشرة الفتاة الناصعة أطيافا متأرجحة من الضوء ٠٠ وانبسطت أسارير وجهها وهى تستمرىء الدفء الذى بعثته الشمس فى جسمها ، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود ، محدثة طرقات متتابعة ٠٠

وكانت زوجة « شارل » لا تغفل ـ فى الفترات الاولى لتردده على (برتو) ـ السؤال عن المريض ٠٠ بل انها افردت لمسيو « روو » صفحة بيضاء ، بديعة ، فى مفكرة الحسابات التى كانت تحتفظ بها ٠ بيد انها لم تكد تعرف ان له ابنة حتى أخذت تتحرى ، فعلمت ان الآنسة « ايما » ، التى نشأت فى رعاية راهبات « الأورسلين » ، قد حظيت بما يسمونه « تربية راقية » ، ومن ثم فهى على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على « البيانو » ٠٠ وتلك كانت الطامة !

وأخذت الزوجة تردد لنفسها : « هذا اذن مبعث كل هذا الاشراق الذى يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها ! ٠٠ وهو السبب فى حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفا بتعريضه للمطر الذى قد يتلفه ! ٠٠ آه ٠٠ هذه المرأة ! ٠٠ هذه المرأة ! » ٠٠ وكرهتها بالغريزة !

وقد كانت فى بداية الأمر تسرى عن نفسها بتلميحات لم يفهمها «شارل» ، ثم باشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم ـ أخيرا ـ باستجوابات مباغتة لم يكن يدرى كيف يجيب عليها ٠٠ « لماذا يتردد على (برتو) مادام مسيو « روو » قد شفى ، ومادام القوم لم ينقدوه بعد اتعابا ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ لا بد ان ذلك يرجع الى وجود شخص هناك ٠٠ شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه ٠٠ شخص لبق حاضر البديهة ٠٠ وهذا هو ما يجتذبه ٠٠ انه يتوق الى فتيات المدن ! »

وتمضى فى مساجلتها قائلة : « وهل ابنة الاب « روو » من فتيات المدن ؟ ٠٠ هذا غير معقول ! ٠٠ لقد كان جدهم راعى غنم ٠٠ ولهم ابن عم أوشك ان يقدم الى المحاكمة لاشتراكه فى نزاع مشين ٠٠ ففيم اذن التعالى ، وفيم اذن ارتداء الحرير للذهاب الى الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكأنها كونتة ؟ ٠٠ لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه فى العام الماضى ! »

وسئم « شارل » هذه النغمة البغيضة ، فكف عن التردد على (برتو) ، لاسيما بعد اذ حملته « هلويز » ـ زوجته ـ على ان يقسم بالكتاب المقدس على ان لا يعود الى تلك الزيارات ، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات فى ثورة عاتية من الحب ! ٠٠ بيد ان الرغبـــة القوية لم تلبث ان تمردت على استكانته وخنـوعه ٠٠ وفى نوع من الرياء الساذج ، أخذ يؤول قسمه ٠٠ فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق فى ان يحبها ٠٠ لا سيما وان زوجته عجفاء ، كبيرة الأسنان ، لا تتخلى قط ـ وفى جميع فصول الســنة ـ عن الشال الأسود الصغير ، الذى كانت أطرافه تتدلى بين لوحى كتفيها ٠٠ وكان قدها محشورا دائما فى ثوبها وكأنه مغيب فى غمد ! ٠٠ ثم ان أثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقين معروقتين ، غاب قدماهما فى جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما ٠٠

وكانت أم « شارل » تفد لزيارتهما بين آن وآخر ، ولكنها لم تلبث ان احست ـ بعد زمن ـ ان زوجة ابنها أخذت تستثيرها ضده ، اذ أصبحت المرأتان كسكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما ٠٠ فهو مخطىء اذ يلتهم كل هذا الطعام ! ٠٠ ثم ، لماذا يقدم الشراب لكل وافد ؟ ٠٠ ولماذا يركب راسه ويرفض باصرار ارتداء « الفانلات » ؟!

★ ★ ★

◆ وحدث فى مستهل الربيع، ان هرب أحد وكلاء الأعمال من (انجوفيل) ، حاملا معه كل ما كان مودعا فى مكتبه من أموال ، ومن بينها جل ثروة الارملة « دوبيك » ٠ على ان « هلويز » وان ظلت تمتلك دارها الخاصة فى شـــارع (سان فرانسوا) ، فضلا عن حصة فى احدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك ،

الا ان هذه الثروة المزعومة - التى كان لها دوى عال - لم يبد من آثارها فى بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة ..

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الأعمال .. فاذا بالمنزل قد استغرقه الرهن ، واذا مصير ما كان مودعا لدى وكيل الاعمال قد بات لا يعلمه الا الله وحده ، واذا نصيبها فى السفينة لا يعدو - فى الحقيقة - ألف فرنك ! .. اذن فقد كذبت السيدة الفاضلة ! .. وفى سورة الغضب ، هشم مسيو « بوفارى » الأب مقعدا على البلاط ، واتهم زوجته بأنها كانت السبب فى شقاء ابنهما ، اذ ربطته الى تلك الفرس العجفاء التى لا يفضل سرجها جلدها ! .. وكان الأبوان قد وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع ، فدارت معارك ارتمت « هلويز » خلالها على صدر زوجها وهى منهمرة الدمع ، تناشده ان يحميها من أبويه .. فلما أراد « شارل » ان يدافع عنها ، غضب والداه ورحلا ..

غير ان الصدمة كانت قد أحدثت أثرها .. فبينما كانت « هلويز » تنشر الغسيل فى صحن الدار - بعد ثمانية أيام - أصابتها نوبة جعلتها تبصق دما .. وفيما كان « شارل » منهمكا فى اسدال الستار على النافذة - فى اليوم التالى - وظهره نحوها ، هتفت : « آه يا الهى ! » ، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعى .. وماتت ! .. ويا للعجب !

واذ انتهت كل مراسم الدفن ، عاد « شارل » الى المنزل .. ولم يجد أحدا بالطابق الأرضى ، فصعد الى الطابق الأول ، وولج غرفة النوم ، حيث راى ثوب زوجته الراحلة معلقا بجانب الفراش .. وأسند رأسه الى مكتبه مستغرقا فى حلم حزين حتى المساء .. فلقد كانت تحبه على أية حال !!



الفصل الثالث

◆ **أقبل** الأب « روو» ذات صباح يحمل الى « شارل » أجر علاج ساقه : خمسة وسبعين فرنكا من القطع فئة الأربعين سنتا ، وديكا روميا ! ٠٠ وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه ، قائلا وهو يربت كتفه : « اننى أدرك مدى مصابك ، فقد مرت بى نفس التجربة ٠٠ لقد كنت أنطلق فى الحقول - بعد أن فقدت زوجتى المسكينة - لأخلو الى نفسى ، فأجثو عند ساق احدى الأشجار أبكي وأنادى الله ، وأهرف له بأقوال سخيفة ! ٠٠ وكم وددت لو أننى أصبحت مثل آكل الحشرات المعروف باسم « الخلد » ، الذى أراه على الأغصان والديدان تتلوى فى بطنه ! ٠٠ بل لقد ذهبت الى حد أن تمنيت لو اننى نفقت كالدابة ! ٠٠ **وكنت اذا ما ذكرت أن سواى من الأزواج يضمون بين أذرعهم - فى تلك اللحظة - زوجات لطيفات صالحات ، أدق الارض بعصاى فى عنف ! ٠٠** كنت شبه مجنون ، حتى لقد أمسكت عن الطعام ٠ وكان مجرد التفكير فى الذهاب الى المقهى يثير اشمئزازى ! ٠٠ لعلك لا تصدق ! ٠٠

على أن الأيام تتابعت ، يطرد كل منها الآخـــر فى رفق ٠٠ وأقبل ربيع في أعقاب شتاء ، وخريف في ذيل صيف ٠٠ وما لبث كل شيء أن تسرب رويدا وزايلنى قطرة اثر قطرة ٠٠ أو بالأحرى ، رسب في أعماقى ، اذ لا بد من أن يبقى شيء في أغوار النفس ، أو لا بد ـ كما يقولون ـ من أن يبقى فوق الصدر ثقل جاثم !٠٠ على أننا يجب أن لانسلم أنفسنا لليأس، أو نطلب الموت ، اذا ما مات أحـــد من أحبابنا ، ما دام هذا مصيرنا جميعا ! ٠٠ فانفض الحزن عن نفسك يامسيو «بوفارى» تجده يفارقك ! ٠٠ **وتعال لزيارتنا ! ٠٠ أتعلم أن ابنتى تفكر فيك بين وقت وآخر ، وتتساءل : « أهكذا نسيني ؟ » ٠٠ هاهو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشركك معنا فى اصـطياد الأرانب لتسرى عن نفسك قليلا ! »**

وأخذ « شارل » بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برتو) ، حيث ألفى كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر ٠٠ وكانت أشجار الكمثرى قد أزهرت ، واستطاع الأب « روو » أن يسير على قدميه ، فكان يغدو ويروح باعثا الحياة فى المزرعة ٠٠ ورأى الرجل أن من واجبه أن يبالغ فى اكرام الطبيب الى أقصى حد ، نظرا لنكبته المحزنة ، فطلب اليه أن لا يرفع قبعته ، وأخذ يتكلم اليه بصوت خفيض ـ وكأنه يتحدث الى مريض ـ بل انه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئا أخف من المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة ٠ وأخذ يروى له النوادر ، فاذا بشارل ينسى نفسه ويضحك ٠٠ ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود الى وجومه ٠ وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

وأخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحيـاة بمفرده ٠ بل ان لذة الحرية التى عادت اليه حديثا ، جعلته أكثر احتمالا لحياة الوحدة ٠ فقد أصبح فى وسعه أن يغير مواعيـد طعامه ، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر الى تقديم حساب عن

حركاته ، وأن يمد أطرافه على طول السرير وعرضه اذا ما شعر بالتعب . وهكذا أخذ يعنى بنفسه ويدللها ، ويستمرىء ما كان يوجه اليه من عبارات التعزية !

ولقد عاد عليه موت زوجته ـ فوق كل هذا ـ بنفع فى مهنته ليس بالقليل ، اذ ظل الناس شهرا بعد وفاتها يرددون : « ياللشاب المسكين ! .. ويالنكبته ! » .. وذاع اسمه ، فازداد عملاؤه .. كما أصبح يذهب الى (برتو) كلما شاء .. كان لديه أمل بغير ما هدف واضح .. وفى نفسه سعادة غامضة ! .. وأخذ يلاحظ ، كلما سوى لحيته بالفرجون أمام المرآة ، أن وجهه يزداد سماحة !

★ ★ ★

◆ **وفى** ذات يوم ،وصل الى (برتو) حوالى الساعة الثالثة ، والقوم فى الحقول ، فدلف الى المطبخ .. ولم يفطن فى البداية الى أن « ايما » كانت هناك ، اذ كانت النوافذ مغلقة . ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقى على الأرض خيطا من أشعتها طويلا ، دقيقا ، يتكسر على زوايا قطع الأثاث ، ويتذبذب على السقف .. وكان الذباب يتسلق جدران الأكواب الزجاجية التى كانت موضوعة على المائدة ، ويرسل طنينا وهو يغرق فى بقايا التفاح المتخلفة فيها .. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضفى على بقايا الفحم ـ المتخلفة على قرص المدفأة المعدنى ـ لمعة مخملية ، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء ..

وكانت « ايما » تجلس بين النافذة والمدفأة ، وهى منهمكة فى الحياكة .. ولم تكن ترتدى وشاحها ، فلاحظ « شارل » أن قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين ..

وعرضت عليه ـ كعادة أهل الريف ـ أن تأتيه بشىء من الشراب ، فتمنع .. وألحت ، ثم دعته أخيرا ـ ضاحكة ـ الى أن يتناول معها كأسا من الخمر . وأحضرت من الصوان زجاجة بها

شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت احداهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تسكب فى الأخرى شيئا ٠ وقدمت اليه الأولى ، وبعد أن قرعتها بالثانية ، رفعت هذه الى شفتيها ٠٠

واذ كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت الى أن تطوح رأسها الى الوراء ، لترشف ما بها من قطرات ٠٠ وأخذت تضحك ـ وهى على هذا الوضع ، وشفتاها ممدودتان الى الامام، ورقبتها مشدودة ـ اذ لم تكد تشعر بشىء من الشراب فى فمها ، بينما امتد لسانها من بين أسنانها الدقيقة ليلعق ما فى القاع !

وعادت الى الجلوس ، مستأنفة عملها فى رفو جورب أبيض من القطن ، وقد نكست رأسها ، وكفت عن الكلام ٠ وظل « شارل » صامتا هو الآخر ٠٠ وكان الهواء ينساب من أسفل الباب ، حاملا بعض الغبار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض فى رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة فى مكان ما بأقصى الفناء ٠ وكانت « ايما » ترطب وجنتيها ـ بين آن وآخر ـ بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة ٠٠

وكانت منذ أوائل الموسم تعانى دوارا ، فسألت « شارل » عما اذا كان الاستحمام فى البحر يفيدها ٠٠ ثم تطرقت الى الحديث عن الدير الذى تعلمت فيه ، فتحدث « شارل » بدوره عن مدرسته ، وهكذا اتصل الحديث بينهما ٠ وما لبثا أن صعدا الى غرفتها ، حيث أطلعته على كراساتها الموسيقية ، والكتيبات التى نالتها كجوائز ، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التى كانت تحتفظ بها فى قاع صوان ٠٠ كما حدثته عن أمها ، وعن المقبرة ٠٠ بل لقد أرشدته ـ فى الحديقة ـ الى الحوض الذى كانت تجمع منه الزهور فى يوم الجمعة الأول من كل شهر ، لتضعها على قبر أمها ٠٠ بيد أن البستانى الذى يعنى بالحديقة ،

لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئا .. كذلك كان الخدم جميعا .. أغبياء ، لا تجنى من ورائهم الا المتاعب !

وكانت تتمنى أن تعيش فى المدينة ، ولو خلال الشتاء - على الأقل - وان كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف أكثر مللا فى هذا الفصل منه فى الشتاء .. **وكان صوتها يتغير تبعا لما تقول : فهو تارة صاف ، وأخرى حاد .. وقد يسرى فيه فجأة خمول ينتهى به الى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها .. ثم اذا به بعد لحظة قد انقلب مرحا .. وعيناها ! .. كانتا تحدقان فى براءة ، ثم اذا بهما فى نصف اغماضة ، اذ يشرد فكر صاحبتهما أو تغرق فى السآمة !**

وأخذ « شارل » - أثناء عودته فى المساء - يستعيد عباراتها واحدة اثر واحدة ، يحاول أن يتذكرها ، وأن يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التى كانت تحياها قبل أن يعرفها . غير أنه لم يستطع قط أن يتمثلها فى صورة تغاير تلك التى رآها عليها فى اللقاء الأول .. أو تلك التى تركها عليها فى الوداع القريب .. وساءل نفسه عما قد تصير اليه اذا ما تزوجت .. ثم ، بمن تتزوج ؟ .. وا أسفاه ! .. ان الأب «روو» واسع الثراء . وهى ! .. كم هى جميلة !

وكان وجه « ايما » لا يلبث أن يعود فى اصرار ليستقر أمام عينيه .. وأخذ يتردد فى أذنيه صوت رتيب ، فى طنين مستمر لحوح : « هب أنك تزوجت ! .. نعم ، ماذا لو تزوجت ! »

* * *

◆ **ولم** يجد الى النوم سبيلا فى تلك الليلة .. كان يحس بضيق وظمأ .. وما لبث أن نهض ليشرب من الابريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع الى السماء المليئة بالنجوم .. كان النسيم دافئا .. وتناهى اليه من بعد نباح الكلاب .. ثم أدار رأسه فى اتجاه (برتو) ..

وخطر له أنه لن يخسر شيئا على أية حال ، فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة ٠٠ غير أن تهيبه وحيرته فى اختيار العبارة المناسبة ، كانا يعقدان لسانه كلما واتته الفرصة ٠٠

ولم يكن ليضير الأب « روو » أن يتخلص من ابنته التى لم تكن ذات نفع كبير فى بيته ٠٠ وكان يلتمس لها ــ فى قرارة نفسه ــ العذر ، اذ يدرك أنها أذكى من أن تشتغل بالزراعة ٠٠ تلك الحرفة التى لعنتها السماء ، حتى ان أحـــدا لم يصبح ــ باشتغاله بها ــ من أصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلا من أن يجنى من ورائها ثراء ٠٠ فبالرغم من تفـوقه فى المساومة ، والمامه بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعـة بمعناها الكامل ــ وبما تنطوى عليه من فنون ادارة المزارع ــ أقل ملاءمة له منها لبقية الناس ٠ فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعية واختيارا ٠٠ وكان فى انفاقه بعيدا عن الاقتصاد ، حريصا على الغذاء الطيب ، والمســكن الدافىء ، والفراش الوثير ٠٠ كان يحب نبيذ التفاح ، والافخاذ المحمرة ، والشاى الممزوج بالخمر مزجا جيدا ٠ وكان يتناول وجباته فى المطبخ وحيدا ، أمام المدفأة ، على منضدة صـغيرة تعد مقدما ثم تحمل اليه ، كما يحدث على المسرح !

واذ لاحظ أن وجنتى « شارل » كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع أن يطلب منه يدها يوما ما ، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدما ٠٠ كان يراه وضيعا بعض الشىء ، لا يتمثل فيه الصهر الذى كان يتمناه ٠٠ غير أنه كان يعرف عنه حســن السلوك ، والاقتصاد ٠٠ وكان متعلما ٠٠ ويلوح أنه لن يساوم كثيرا فيما يتعلق بالصداق الذى سيقدمه الأب لابنته ! ٠٠ واذ كان مضطرا الى أن يبيع اثنين وعشرين فدانا من أرضه ، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار ، ولاصلاح دولاب

المعصرة ، فقد أسر لنفسه قائلا : « لسوف أعطيه « ايمــا » اذا طلبها » !

* * *

• **وذهب** « شارل » الى (برتو) ليقضى ثلاثة أيام ، فى عيد القديس ميخائيل ٠ وانقضى اليوم الأخير كسابقيه ، فى تردد وارجاء ٠٠ فلما تأهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة ٠٠ وسلكا طريقا كثير الحفر ، حتى اذا أوشكا على الافتراق ، دار بخلد « شارل » أن الساعة قد حانت ، اذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهى عند السياج الخارجى للضيعة ٠٠ ولم يكد يجاوزه ، حتى تمتم قائلا : « مسيو روو ٠٠ أريد أن أفاتحك فى أمر » ٠٠ ووقف السيد ، ولكن « شارل » أخلد الى الصمت !

وقال الأب ضاحكا فى رفق : « **حدثنى بأمرك ٠٠ أوتظن اننى لم أدرك كل شىء ؟** »

فتمتم « شارل » قائلا : « أيها الأب روو ٠٠ أيهــا الاب روو ! ٠٠ »

وواصل المزارع حديثه قائلا : « **اننى شخصيا لا أتمنى أفضل منك ٠٠ ولكن للبنية رأيها ، ولا بد من ســؤالها ٠٠** فابطىء فى مشيك ريثما أعود الى البيت ٠٠ وليس من الضرورى أن ترجع ـ اذا ما أجابت بالقبول ـ حتى لا يفطن الناس الى شىء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال ٠٠ ولكن ، لا تقس على أعصابك ٠٠ سأدفع مصراعى النافذة الى الجدار ، وأفتحهما على وسعهما ، اشارة بذلك ٠٠ وتستطيع أن تتبين هذه الاشارة من الخلف ، اذا ما انحنيت على السياج »

وابتعد الأب ٠٠

وربط « شارل » جواده الى شجرة ، وهرع الى الطريق الخلفى الضيق ، وأخذ ينتظر ٠٠ وانقضى نصف ساعة ٠٠ وأحصى بعده تسع عشرة دقيقة ٠٠ **وفجأة** ، **سمع صوت ارتطــام**

بالجدار .. فقـــد فتح مصراعا النافذة .. وظلا يهتزان اثر اصطدامهما بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالى ، حتى كان فى المزرعة ! وتضرج وجه « ايما » حين دخل الدار ، وان حاولت أن تضحك قليلا لتبدو متمالكة لنفسها . وقبل « شارل » صهر المستقبل .. ثم أخذوا يتحدثون فى المسائل المالية ، وان كانت أمامهم فسحة من الزمن ، اذ لم يروا أن يتم الزواج قبل أن ينتهى حداد « شارل » ، أى حوالى ربيع العام التالى

★ ★ ★

◆ **وانقضى** الشتاء فى ترقب .. وشغلت الآنسة « روو » بجهازها الذى أرسل فى طلب بعضه من (روان) . وحاكت لنفسها أقمصة وقلنسوات للنوم على نماذج اســـتعارتها ، وكانوا ـ خلال زيارات « شارل » للمزرعة ـ يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التى ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون بأصناف الطعام التى ستقدم ، ويتناقشون فى الصنف الذى ستفتتح به المائدة !

وكانت « ايما » تفضل أن يتم الزفاف فى منتصف الليل ، على ضوء المشاعل . بيد أن الأب « روو » لم يستسغ هـــذه الفكرة ..

وهكذا أقيمت وليمة العرس أخيرا ، فحضرها ثلاثه وأربعون شخصا ، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة فى اليوم التالى ، والأيام التى أعقبته .. الى حد ما !



الفصل الرابع

◆ أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، فى عربات متباينة ، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد ، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة ، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات ، وعربات مقفلة بستائر من الجلد • ومن القرى المجاورة اقبل شبان فى عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم الى حوافها الخارجية كى لا يسقطوا منها وهى تخب بهم مهتزة فى عنف • وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة ، مثل (جودرفيل) و (نورمانفيل) و (دوكانى) •• اذ كان أهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الاسرتين ، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء ، وكتبوا الى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل !

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت الى آخر خلف السياج ، فيفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الاولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطون أذرعهم ، وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين أزياء المدن ، وتحلين بسلاسل تنتهى بساعات ذهبية ، واتشحن بحرامل تتقاطع أطرافها عند الخصور ، او بشيلان صغيرة ملونة تثبت أطرافها الى الظهور بدبابيس • وكان الأطفال فى ثياب شبيهة بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم انهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة •• بل كان الكثيرون منهم يخطرون فى أول زوج من

الأحذية الجلدية حصلوا عليه فى حياتهم ! •• وســـارت الى جوارهم فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لا شك فى انهن اخواتهم أو بنات أعمامهم وأخوالهم ، وقد ارتدين ملابس حفلة « التناول » الأول ، بعد ان أطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنـــة ! •• وكن يسرن صامتات ، متوردات الخـــدود ، مبهورات •• ولاحت شعورهن لزجة لما عـــولجت به من دهان معطر بالورد •• كما بدا عليهن الحـــرص على ان لا يعرضن قفازاتهن للاتساخ ••

ولما لم يكن عدد السياس كافيا ، فقد شمر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفســـهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التى تباينت تبعا لمراكزهم الاجتماعية – بين « ردنجوت » ، وملابس سهرة ، وبزات فاخرة أو عادية •• وكلها من الملابس التى تعنى بها الأسرات فلا تخرجهـــا من الخزانات الا فى المناسبات ! •• وكانت بينها « الردنجوت » ذات الذيول الضافية تداعبهـــا الريح ، أو ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنها الحقائب •• وبينها بزات من الصوف السميك ، يرتدى أصحابها قلنسوات أحيطت حوافهـــا باطارات من نحاس •• ومعاطف قصيرة ثبت فى خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان •• وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار ! •• وكان الرجال الذين سيجلسون فى ذيل المائدة يرتدون «أقمصة المناسبات» ذات الياقة المسدلة على الكتفين ، والثنيات الرفيعة فى الظهر ، وقد شدت تحت الخصر بحزام مثبت فى ثناياها •• كما شدت فوق الصدور – بفعل النشاء والكى – فبدت كأنها دروع !

وظهر واضحا أن الجميع قصوا شعورهم حديثا ، اذ كانت الآذان بارزة على جوانب الرؤوس •• كما كانت الذقون حليقة ناعمة • وكان بعضهم قد اضطر الى أن يبدأ رحلته فى مطلع الفجر ، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم ، مما ترك خدوشا ممتدة تحت الانف ، أو جراحا متسعة بحجم العملة فئـــة الفرنكات الثلاثة ، وقد ألهبها نسيم الصباح البارد أثناء الطريق ، فاذا الوجوه البيضاء المشرقة ، تتناثر فيها بقع وردية !

* * *

◆ وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة ، فذهبوا اليها على الاقدام •• وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تم الاحتفال فى الكنيسة • وكان الموكب متماسكا فى بادىء الأمر ، فبدا كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء •• ثم لم يلبث أن استطال ، وتجزأ الى مجموعات الهاها الحديث عن اللحاق بغيرها ••

اما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التى حليت بالأشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الاهل ، فالاصدقاء ، دون ما ترتيب ٠٠ وفى المؤخرة ، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفطن اليهم أحد ٠

وكان ثوب « ايما » مسرف الطول ، فكان ذيله يتجرر خلفها ، فتقف بين وقت وآخر لترفعه ، ولتنزع عنه ـ بأصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز ـ ما علق به من أعشاب خشنة وأشواك ، بينما يقف « شارل » ساكنا فى انتظارها ! ٠٠ وكان الأب « روو » يرتدى قبعته الحريرية الجديدة ، ومعطفه الأسود الذى بلغ كماه أظافر يديه ، وقد تأبط ذراع السيدة « بوفارى » الأم ٠٠ أما السيد « بوفارى » الأب ـ الذى كان يحتقر فى قرارة نفسه كل هؤلاء الناس ، والذى لم يرتد سوى « ردنجوت » ذات صف واحد من الأزرار ، على نمط الملابس العسكرية ـ فقد أخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تتضرجان لها ، دون أن تدرى بماذا تجيب ! ٠٠ فى حين انصرف بقية الحضور الى الحديث فى شئونهم ، او الى التغامز خفية ـ بعضهم على بعض ـ أو الى استثارة المرح فى أنفسهم تأهبا للحفل المرتقب ٠٠

وكانت أنغام العازف ـ الذى واصل العزف خلال الحقول ـ تعلو اذا ما جنحوا الى الصمت ٠٠ فاذا ما احس بأنه سبق الموكب بمسافة طويلة ، وقف ليسترد أنفاسه ، وليعالج قوس قيثارته بـ « القلفونية » ليشد أوتارها ٠٠ ثم يستأنف سيره رافعا مقبض القيثارة تارة ، وخافضه أخرى ٠٠ والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها ٠٠

ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وعليها اربع قطع من « بيت الكلاوى » ، وستة أطباق من « صلصة » الدجاج ، و « كباب الحلة » المصنوع من لحم العجول ، وثلاث فخذات مشوية ! ٠٠ وتربع فى وسط المائدة خنزير صغير السن ، بديع المنظر ، جيد الشواء ، تحيط به أربعة حبال من « سجق » الخنزير المطبوخ !٠٠ وفى أركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبدا كثيفا حول سداداتها ٠ وأترعت الاقداح مقدما بالنبيذ الى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء تترجرج فى أطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من اسمى العروسين فى زخرفة عربية جميلة ٠

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر الى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثا ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد أحضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الاعجاب من الحاضرين ٠٠ اذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبدا ذا أروقة وأعمدة تحف بها التماثيل ٠٠ وتناثرت فى

الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب ·· وفى الطابق الثانى منها ، صنع الرجل برجا من فطير « سافوا » ، تحيط به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال ·· وفوق سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلا أخضر به صخور غارقة فى بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق ·· وفى الحقل أرجوحة من الشيكولاتة تعلق بها تمثال صغير للحب ، وقد توج عامودا الأرجوحة ببرعمين من الورد الطبيعى !!

وظل القوم يأكلون حتى المساء ·· وكلما أمضهم طول الجلوس ، نهضوا يتمشون فى الافنية ، أو يمارسون بعض الالعاب فى المخزن ·· ثم لا يلبثون أن يعودوا الى المائدة ! ·· وغلب النوم بعضهم قبيل الختام ، فتصاعد غطيطهم ، بيد أن النشاط لم يلبث أن سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الاغانى ، ويتبارون فى ألعاب القوى وحمل الاثقال والحيل التى تعتمد على المهارة اليدوية ·· وتبارى بعضهم فى رفع العربات فوق أكتافهم ·· وفى تبادل النكات ، وتقبيل السيدات !!

وفى المساء ، تأهبوا للرحيل · ولكن شد الخيول الى العربات - بعد أن اتخمت بالشوفان - كان من أصعب العمليات ، اذ راحت تركل ، وتتمرد ، وتكسر الأعنة ، واصحابها يسبون أو يضحكون ·· وكنت ترى طوال الليل - وفى ضوء القمر - عربات انطلقت على طول الطريق ، تعدو خيولها الجامحة ، فتهبط بها فى الحفر حينا ، وتقفز بها فوق أكوام الاحجار حينا آخر ·· ثم اذا بها تتسلق المنحدرات ، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة !

أما من بقى فى (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل يشربون فى المطبخ ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد

★ ★ ★

◆ وكانت العروس قد سألت أباها أن يجنبها المداعبات التى يتعرض لها العرسان فى ليلة الزفاف ·· بيد ان سماكا من أبناء عمومتها راح ينفث الماء من ثقب باب مخدع العروسين ، رغم انه لم يحمل اليهما هدية ما ·· سوى زوج من سمك « موسى » !! ·· على ان الاب « روو » أقبل فى لحظة مناسبة ليصده عن المضى فى نفث الماء ، مبينا له ان دقة الموقف لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة ·· ومع ان ابن العم انصرف عن دعابته ، الا انه لم يقتنع تماما بمنطق الاب « روو » ، واتهمه فى قرارة نفسه بالصلف والكبرياء · وما لبث أن انضم - فى أحد الاركان - الى أربعة أو خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقت اليهم أردأ قطعة من اللحم حملتها المائدة ، فخيل اليهم ان ثمة تعمدا لاساءة اكرامهم ، وراحوا يتهامسون مغتابين مضيفهم ، متمنين له

ـ فى ألفاظ غير صريحة ـ كل شر !

أما السيدة « بوفارى » ـ الأم ـ فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ، اذ لم يحفل أحد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، او اعداد الوليمة . وما لبثت أن اوت الى فراشها فى وقت مبكر .. وبدلا من ان يتبعها زوجها ، ارسل فى طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقى حتى الصباح يدخن ، ويحتسى مزيجا من الخمور ـ « كوكتيل » ـ لم يكن مألوفا لدى أهل الريف ، مما رفع من شأنه فى أعينهم !

وما كان « شارل » يوما حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق فى حفل عرسه ، بل انه كان يرد فى غباء ، على ما وجهه المدعوون اليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات ، منذ جمعتهم الوليمة ..

على انه لاح فى اليوم التالى رجلا آخر ، يناقض ذاك الذى كانه فى الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر !

أما العروس ، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول فى نفسها ، حتى ان أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع أن يتكهن بشيء عن حالتها النفسية ، واكتفوا بأن راحوا يمعنون فى التحديق فى وجهها كلما مرت على مقربة منهم ! .. على ان « شارل » لم يعمد الى شيء من التكلف ، بل أخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها فى غير كلفة ، ويسأل عنها كل انسان ، ويبحث عنها فى كل مكان ـ دون ما حرج ـ كلما افتقدها ! .. وكثيرا ما كان يقتادها الى الافنية ودروب الحديقة .. وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، او وهو يسير الى جوارها ، وقد مال نحوها وراسه يفسد استواء صدارها المكوى !

* * *

◆ ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، اذ لم يكن « شارل » ليملك أن يغيب عن مرضاه أمدا أطول مما غاب ..

وصحبهما الاب « روو » فى عربة حتى (فاسونفيل) ، حيث قبل ابنته مودعا ، ثم عاد أدراجه .. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريبا حتى توقف ، ثم التفت الى العربة ، فلما رآها تبتعد وقد أخذت عجلاتها تثير الغبار ، أرسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والايام الخوالى .. وارتدت الى ذهنه ذكرى أول حمل لزوجته .. وتصور ما كان عليه من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل أبيها الى منزله ، اذ أردفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد .. فقد تم عقد القران فى رأس السنة ، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع .. وكانت تتشبث به باحدى ذراعيها ، بينما أمسكت باليد الاخرى سلتها .. والريح تداعب أشرطة شعرها ـ المنسق على طريقة أهل (كو) ـ فتدفع أطرافها لتلمس

فمه ·· ومن آن لآخر ، كان يلتفت اليها ، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردى الصغير ، الذى أشرق بابتسامة صامتة ، تحت قرص ذهبى ازدانت به قبعتها ·· وكانت تدس أصابعها فى صدره بين الفينة والفينة ، التماسا للدفء !

آه ! ·· لقد تلاشى كل ذلك فى أدراج الزمان ! ·· لو ان طفلهما الاول عاش ، لكان اليوم فى الثلاثين من عمره !

والتفت خلفه فلم ير شيئا فى الطريق ·· وغشيته كآبة موحشة ، وقد خيل اليه ان نفسه غدت كالبيت الخاوى المهجور ! ·· وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الاليمة ، فى راسه الذى أثقله الشراب ·· وأحس برغبة فى أن يعرج على الكنيسة ، بيد انه خشى أن تزداد شجونه ، فيمم صوب داره رأسا ··

ووصل السيد « شارل » وزوجته الى (توست) فى نحو الساعة السادسة ، فاذا الجيران فى النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم ··

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما ، واعتذرت لان العشاء لم يعد بعد ، ثم سألت السيدة أن تتفقد منزلها ، ريثما تعد المائدة ·



الفصل الخامس

• كان المنزل مشيدا من الطوب ، وواجهته نحو الطريق ·· وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقا مع عنان جواد ، وقلنسوة من الجلد الأسود ·· وعلى الأرض ، قبع في أحد الاركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف ·· والى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التى كانوا يأكلون فيها ويجلسون ·· وقد علقت الى أحد الجدران الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفى طرفها الاعلى باقة من الزهر الباهت اللون · وكانت الستائر القطنية البيضاء ـ المحلاة بشرائط حمراء ـ تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلمع على حافة المدفأة الضيقة ، بندول ساعة يعلوه رأس «ابقراط»(١) ، وقد قام الى جانبه شمعدانان من الفضة ، تحت مظلتين بيضاويتى الشكل ··

وفى الناحية الاخرى من المدخل ، كان مكتب «شارل» ·· حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريبا، تضم منضدة وثلاثة مقاعد ، فضلا عن مقعد خاص للمكتب ·· واحتل الأرفف

(١) كتابي : ابقراط هو أبو الطب عند الاغريق

الستة فى مكتبة من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التى لم تفض صفحاتها بعد ، رغم ما لحق بغلافاتهامن تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !

وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسربا خلال جدران غرفة المكتب اثناء فحص المرضى ٠٠ كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع فى المطبخ،فضلا عنقصصهم بحذافيرها !

وكانت تلى غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل على الفناء الذى يضم الحظيرة ٠٠ وكانت تحوى فرنا ، غير انها كانت تستخدم كمخزن للحطب ، والاغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهملة ، وأكداس من أشياء أخرى مغبرة ، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه ٠

أما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جداران من الطين ـ حفت بهما أشجار المشمش ـ وتنتهى بسياج من الاشواك يفصل بينها وبين الحقول ٠ وكانت تتوسطها «مزولة» ـ ساعة شمسية ـ من الاردواز ، اقيمت على قاعدة حجرية ٠٠ وأربعة أحواض من نبات « النسرين » تحيط ـ فى انتظام ـ بحوض خامس زرعت فيه نباتات اكثر نفعا٠٠وتحت شجيرات السرو، فى الطرف الاقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قسا يقرأ فى كتاب الصلوات !

وصعدت « ايما » الى الطابق العلوى ، فاذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الاثاث تقريبا !٠٠ أما الحجرة الثانية ـ وهى مخدع العروسين ـ فكانت تضم سريرا من خشب «الاكاجو» داخل فجوة فى الجدار أحاطت بها ستائر حمراء!٠٠ وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف ٠٠ والى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة

ضمتها أشرطة من « الستان » الابيض ٠٠ وكانت باقة عروس ٠٠ العروس الاولى !!

ولاحظ «شارل» اتجاه نظرات «ايما» الى الزهور ، فتناولها وذهب بها الى المخزن ٠٠ وجلست « ايما » فى مقعد مريح أثناء ترتيب حاجياتها ، وقد سرح خاطرها الى باقة عرسها التى وضعت فى صندوق من الورق المقوى ٠٠ وساءلت نفسها ــ وهى مسترسلة مع أحلامها ــ عما يمكن ان يحل بتلك الباقة ٠٠ لو انها ماتت بدورها !

★ ★ ★

◆ **انفقت** « ايما » الايام الاولى فى تدبير التعديلات التى شاءت ان تجريها فى البيت ، فنزعت المظلات ــ «الاباجورات» ــ عن المشاعل وألصقت بها كساء جديدا من الورق ، وأعادت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة ــ فى الحديقة ــ بعض المقاعد ٠٠ بل انها راحت تفكر فى الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك !

واذ كان زوجها يعلم انها تحب النزهة فى العربات ، فقد وفق الى عربة مستعملة ، زودها بمصابيح جديدة ، و«رفارف» من الجلد ٠٠

وأصبح « شارل » هانىء البال ، لا يحمل هما ٠٠ حياته وجبات يتناولها مع « ايما » ٠٠ ونزهات مسائية برفقتها فى الطريق العام ٠ وكان يستشعر متعة فى العبث بضفائرها ، وفى رؤية قبعتها الخوصية معلقة الى مزلاج النافذة ٠٠ وفى كثير من الامور الشبيهة ، التى لم يخطر له يوما ببال انها يمكن أن تكون مبعث سرور !

وكان ، اذا ما استيقظ فى الصباح وظل مستلقيا الى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان الى منتصفيهما ٠٠ وكان اذا حدق فى عينيها عن قرب ، خالهما

اكثر اتساعا ٠٠ لا سيما وهى تفتح جفنيها وتطبقهما مرات متتابعة ، ريثما تألفان الضوء عند اليقظة !٠٠ وكانتا تبدوان سوداوين فى الظلال ، وزرقاوين قاتمتين فى ضوء النهار ٠٠ بل لقد كان يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في أغوار الحدقة ، ثم تشف شيئا فشيئا كلما اقتربت من السطح !

وكانت نظراته تضل فى أعماق هاتين العينين ٠٠ عينيها !٠٠ وكان يرى صورته ـ حتى الكتفين ـ تنعكس مصغرة على حدقتيهما ، وقد لف منديلا حريريا حول رأسه ، وترك صدر قميصه مفتوحا ٠٠

* * *

◆ **فاذا** ما نهض وتهيأ للخروج ، وقفت « ايما » عند النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة الى حافتها بين آنيتين من زهور « الجيرانيوم » ، وهى فى ثوب فضفاض٠٠ وبينماينهمك « شارل » ـ وهو فى الفناء ـ فى تثبيت مهمازيه ، رافعا قدميه تباعا الى حافة السور ، كانت تأخذ فى الحديث اليه من أعلى ، وهى تلتقط بفمها نتفا من الزهر أو من العشب الاخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتتطاير فى الهواء مرفرفة فى حركة نصف دائرية كالعصفور ، حتى تعلق بالشعر الاشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التى تقف لدى الباب بلا حراك٠٠ وما ان يعتلى « شارل » صهوة الجواد ، حتى يرسل اليها قبلة فى الهواء ، فترد بايماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو فى رحلته ، فينطلق فى محاذاة الجسر الذى ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له ، ويمضى فى دروب بين الاشجار الوارفة ، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها الى الركبة ٠٠والشمس تستلقى على منكبيه ، وهواء الصباح يملأ خياشيمه ٠٠ وقد أفعم فؤاده بما ناله فى ليله من لذات ٠٠ وسرت الطمأنينة الى نفسه ، والراحة الى جسده !

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ

بعد الغداء بما خلفه « عش الغراب » فى فمه من طعم !٠٠ متى كانت الحياة رفيقة به كما هى الآن ؟٠٠ افى أيام الدراسة ، حين كان محبوسا بين جدران المدرسة ، وحيدا وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعابا للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه ، ويعيرونه بأن أحدا لا يزوره كما كانت أمهاتهم يفدن لرؤيتهم - فى حجرة الاستقبال بالمدرسة - وقد حملن لهم الفطائر ؟!٠٠ أم فى فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التى كان من الممكن أن تغدو عشيقته ؟!٠٠ أم فى الشهور الاربعة عشر التى عاشها زوجا لتلك الارملة التى كانت قدماها تستحيلان - فى السرير - الى قطعتين من الثلج ؟!

ما أبعد كل هذا عن حاضره،وقد أصبح يمتلك - ما عاش - هذه المرأة الجميلة التى يعبدها ! ٠٠ لقد أصبح العالم فى نظره لا يتجاوز محيط « جونلتها » الحريرية !

وكان يلوم نفسه اذ يخيل اليه أنه لا يحبها كما يجب ! ٠٠ وما كان ليطيق عنها بعدا ، فيتعجل العودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل الى حجرتها فى هدوء ليفاجئها وهى تتزين ، فيطبع على ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده٠٠ فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن أن تتحسسا دوما مشطها وخواتمها وشالها ٠٠ وكان يطبع على وجنتيها احيانا قبلات كبيرة ، بملء فمه ، أو يغطى ذراعيها العاريتين بقبلات خفيفة من أطراف أصابعها حتى كتفيها ، وهى تدفعه فى مزيج من الضيق والابتسام ، كما نفعل بالطفل اذ يتشبث بنا !

والواقع أن « ايما » كانت تعتقد قبل الزواج انها قد وقعت فى الحب ٠ فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مترتبا على هذا الحب من سعادة ، توهمت انها كانت على خطأ، وأخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التى كانت تقرأها فى الكتب فتبهرها !



الفصل السادس

كانت قد قرأت قصة « بول وفرجيني » ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على أعواد الغاب ، وبالعبد « دومينجو » والكلب « امين » .. كما احست - بوجه خاص - بتلك الصداقة الرقيقة التى نلمسها فى اخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها ابراج الكنائس .. أو يعدو على الرمال حافيا وقد حمل الينا عش عصفور !

ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، اصطحبها أبوها الى المدينة ليلحقها بالدير ، فنزلا فى فندق بحى (سان جرفيه) ، حيث قدم لهما العشاء فى صحاف موشاة برسوم تمثل حياة « مدموازيل دى لافالير » .. وكانت التفصيلات الخرافية - التى تناهت الى أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة - تنطوى على تمجيد البلاط الملكى ، واظهاره فى اطار من التدين ، ورقة المشاعر ، وأبهة المنظر !

ولم تستشعر سأما من حياتها بالدير - فى الايام الاولى - بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللاتى كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها الى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام بأروقة طويلة .. ولم تكن تلعب فى أوقات الفراغ الا نادرا ، اذ كانت تحرص على استذكار أصول الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائما بالاجابة على الاسئلة الصعبة الدقيقة التى كان القس يوجهها الى الفتيات !

وهكذا عاشت فى جو حجرات الدراسة الدافىء لا تجاوزه ، وبين اولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التى تتدلى منها الصلبان النحاسية

.. وفى رفق ولين ، اخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفى الذى ينبعث من عطور المذبح ، وأحواض مياه التبرك ، وأضواء الشموع ! .. وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة باطار سماوى اللون ، فى كتاب الدين .. فأحبت (الحمل المريض) ، و (القلب المقدس) الذى تخترقه السهام ، والمسيح المسكين الذى يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوما بأكمله لتروض روحها .. وتجهد رأسها فى ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب الى « كرسى الاعتراف » تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكى تطيل من فترة ركوعها فى الظلال ، فتصغى الى همس القس ، ويداها مضمومتان، ووجهها أمام السياج المحيط بالكرسى !! وكانت الاوصاف المجازية التى تتناول « الخطيب » ، و « الزوج » ، و « العاشق الالهى » ، و « الزواج الابدى » ، والتى كانت تتردد فى المواعظ ، تثير فى أعماقها نشوة غريبة !

وفى المساء ، كانت الفتيات يقرأن فى قاعة الاستذكار - قبل الصلاة - نصوصا دينية ، كن يخترنها فى أيام الاسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس ، أو من محاضرات الراعى « فرايا سينوس » .. أما فى أيام الآحاد ، فكن يقرأن فقرات من « عبقرية المسيحية » على سبيل الترويح .. وكم كانت تنصت فى البداية للمراثى الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفى ، والتى كانت أصداؤها تتردد بين الارض والابدية !!

ولو انها عاشت طفولتها فى جوف حانوت بحى تجارى ، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة ، التى لا تسرى الينا عادة الا اذا ترجمها لنا الكتاب .. ولكنها عاشت تلك الطفولة فى الريف ، فعرفت ثغاء القطعان ، والالبان ، والمحاريث ! .. ولما كانت قد ألفت المناظر الهادئة ، فقد أخذت تتجه الى نقيضها .. الى المناظر المثيرة ! .. ومن ثم لم تعد تحب فى البحر الا انواءه ، ولا تعجب بالخضرة الا منتثرة وسط الخرائب .. كان لابد لها من الحصول على منفعة شخصية من الاشياء ، فلم تكن ترى نفعا لما لا تجد فيه غذاء مباشرا لقلبها ، اذ كان مزاجها حسيا عاطفيا ، أكثر منه فنيا .. وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة اكثر مما تبحث عن المنظر !!

* * *

◆ وكانت تفد على الدير عانس تقضى اسبوعا من كل شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والاغطية . ولما كان المطران يرعاها لانتمائها الى اسرة عريقة من أسرات النبلاء التى حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعام فى القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات .. ثم تجاذبهن الحديث قبل أن تصعد الى عملها . وكثيرا ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار الى حيث تعمل ،

اذ كانت تردد فى همس - وهى تحرك ابرتها فى القماش - بعض اغنيات غرامية من القرن الماضى ، تحفظها عن ظهر قلب ! .. وكانت تقص النوادر ، وتروى الانباء ، وتقضى الحاجات من المدينة ، وتعير التلميذات الكبيرات - سرا - روايات كانت تحتفظ بها دائما فى جيب مرولتها .. ولا تكف عن « التهام » فصول طويلة منها ، بين فترات عملها ! .. وما كان أمثال هذه الروايات ليدور الا عن الحب والمحبين ، ونساء معذبات يغمى عليهن فى خلوات منعزلة ، وسياس يقتلون فى كل رحلة ، وخيل تنفق فى كل صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود ، وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق فى ضوء القمر ، وبلابل فى الخمائل ، وسادة فى شجاعة الاسود ووداعة الحملان ، اوتوا من الشهامة قدرا لا مثيل له .. محتفظين بأناقتهم دائما .. ويبكون ، فتسيل دموعهم كالسيل الهتون !

وهكذا ظلت « ايما » خلال أشهر ستة من عامها السادس عشر ، تنفض بأصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة . ثم أرشدها « والتر سكوت » - بعد ذلك - الى التاريخ ، فراحت تحلم بالاثاث والرياش ، وقاعات الحرس ، والشعراء الذين يغنون أشعارهم على القيثارة . وكانت تتمنى لو انها عاشت فى أحد تلك القصور القديمة التى كانت تقرأ عنها ، كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل ، اللاتى كن يقضين أيامهن تحت الاقواس ذات الطراز القوطى ، وقد اعتمدن بمرافقهن على الاحجار ، وأسندن ذقونهن الى راحات أيديهن ، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذى ريشة بيضاء يركض بين الحقول على صهوة جواد أسود ! .. وأنزلت « ايما » الملكة الانجليزية « مارى ستيوارت » من نفسها منزلة القداسة ، وأكبرت - فى حماس - النساء الشهيرات ، المنكوبات : فكانت « جان دارك » ، و « هلويز » ، و « آنييس سوريل » ، و « فيرونير » الفاتنة ، و « كليمانس هيزور » .. كل اولئك كن - فى نظرها - كواكب فى ظلمات التاريخ اللانهائية ! .. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل « سان لويس » وبلوطته التى كان يجلس تحتها ، واحتضار « بايار » ، وفظائع لويس الحادى عشر ، ولمحات من « سان بارتلمى » ، وغطرسة « كونت بيارين » .. ثم - ودائما - ذكرى الصحاف التى نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !

ولم يكن فى الاغنيات - التى كانت تغنيها أثناء دروس الموسيقى - سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى مقدسات ، وقنوات يسبح فيها الجندول .. أغان ساذجة كانت تلمح - خلال أسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة - صورا متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض الزميلات يحملن الى الدير ما يهدى اليهن فى عيد رأس السنة من كتب أنيقة ، كان اخفاؤها مشكلة عويصة !

وكن يقرانها فى « عنبر » النوم ، فكانت « ايما » تقلب بين يديها ـ فى رفق ـ تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق توقيعاتهم ـ فى نهايات القصص ـ لقب « كونت » أو « فيكونت » .. وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ فى رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور ، فلا يلبث أن يتثنى ثم ينزلق مستويا على الصفحات !

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب فى معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة فى ثوب أبيض ، ثبتت الى حزامها كيس الصدقات .. كما كانت هناك صور بعض الانجليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتى يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية .. وقد اضطجع بعضهن فى عربات تنساب وسط الحدائق ، يقود خيولها سياس فى سراويل بيضاء ، وتجرى أمامها كلاب الصيد الرشيقة .. بينما استلقت أخريات على الارائك مستغرقات فى الاحلام ، والى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذى يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء ! .. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان أقفاص من الطراز القوطى ، وقد سال الدمع على وجناتهن .. وأخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على أكتافهن ، وأخذن ينثرن أوراق زهر المرجريت بأصابعهن المدببة التى تشبه مناقير الصقور !!

هذا ، فضلا عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة ، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين أحضان الراقصات .. ثم السيوف والرماح التركية ، والقلنسوات اليونانية .. وأخيرا تلك المناظر الباهتة التى تمثل بلادا يسودها جو شاعرى .. فتريك فى وقت واحد النخيل وأشجار الصنوبر ، ونمرا الى اليمين ، وأسدا الى اليسار ، ومآذن التتر عند حافة الافق ، وخرائب الرومان فى المقدمة ، و ابل « انيخت » بين هذه وتلك ، وقد أحاطت بالجميع غابة عذراء ، أجهد الرسام نفسه فى ابدائها نظيفة ! .. وقد سقط شعاع عمودى من الشمس ، وأخذ يترجرج على صفحة الماء التى صبغت بلون رمادى كلون الفولاذ ، وقد غشيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة ، تمثل البجع العائم !

وكان المصباح المعلق الى الحائط فوق رأس « ايما » يضىء كل هذه اللوحات التى تمثل مناظر الدنيا ، فتتتابع أمام بصرها ، و « عنبر » النوم غارق فى صمت ، يعكره فى بعض الاحيان ضجيج يتناهى من بعيد ، منبعثا من عربة تذرع الطريق ، بعد أن تقدم الليل !

وقد بكت « ايما » كثيرا فى الايام الاولى لوفاة أمها ، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة»٠وأرسلت خطابا الى (برتو) مليئا بأفكار قاتمة عن الحياة ، طلبت فيه أن تدفن ـ اذا ما حان أجلها ـ فى المقبرة التى ضمت أمها ٠ وجزع أبوها اذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها .. وأحست « ايما »

فى أعماقها بالرضى ، اذ رأت نفسها تقفز فجاة الى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التى لا تتطلع اليها النفوس التافهة !

وهكذا ، ألفت نفسها تنزلق الى ألوان الخيـال « اللامارتينية » - أى التى كانت تسود مؤلفات «لامارتين» - فتنصت الى القيثارات على البحيرات ، وأناشيد البجع المحتضر ، والى صوت سقوط الاوراق الذابلة ، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات الى السماء ، والى صوت الله يتردد فى الوديان !!

وما لبثت أن ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ فى البداية أن تعترف بالملل ، بل استمرت فى هذه الخيالات - بحكم العادة ، فى أول الامر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! - ولكنها وجدت السكينة تغمرها فى النهاية ، فلا حزن فى الفؤاد ، ولا تجاعيد فى الجبين !

وكانت دهشـة الراهبات - اللائى أحسن الظن باستعدادها - بالغة ، اذ لاحظن ان الآنسة « روو » قد أخذت تفلت من رعايتهن .. والواقع انهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمـواعظ ، وأسرفن فى تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفى ازجاء النصائح التى تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح ، حتى أصبحت الفتاة كالفرس التى تسحب بالعنان .. ثم قدر لها أن تقف وأن يخرج العنان من بين أسنانها !

.. ذلك لأن تلك الروح الايجابية التى نمت فى جوانحها وسط هذا النشاط الدينى .. تلك الروح التى أحبت الكنيسة من أجل زهورها ، والأغانى بسبب كلماتها العاطفية ، والادب من أجل مثيراته الحسية .. هذه الروح لم تلبث أن تمردت على أسرار الايمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذى كان يتعارض مع مزاجها .. حتى ان أحدا لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من الدير .. بل ان الرئيسة شكت من انها غدت فى الايام الاخـيرة قليلة الاحترام لراهبـات الدير !

ووجدت « ايما » - فى الفترة الاولى التى تلت عودتهـا الى البيت - لذة فى أن تصدر الاوامر الى الخدم . بيد انها لم تلبث ان أبغضت الريف ، وحنت الى الدير مرة أخرى !

وعندما وفد « شارل » الى (برتو) لاول مرة ، أحست بخيبة أمل ، اذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه أو تحس به ! .. بيد ان شوقها الملهوف الى شىء جديد ، والقلق الذى ساورها لتغير ظروفها - أو لعله الاضطراب الذى بعثـه ظهور هذا الرجل - كانا كافيين لكى يحملاها على أن توقن بأنها قد أصابت أخيرا تلك العاطفة الخارقة ، التى كانت تتراءى لها - حتى ذاك الحين - كعصفور كبير ذى ريش وردى ، يحلق ببهاء فى سـماوات الشعر .. عاطفة الحب ! .. وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التى كانت تعيش فيها ، هى .. السعادة التى كانت تحلم بها !



الفصل السابع

• **على** أنها كانت تخال أحيانا ، أن الأيام المقبلة هى أجمل أيام حياتها ٠٠ أيام شهر العسل ، كما يسمونه ! ٠٠ بيد أنها كانت ترى لزاما – لكى تتذوق حلاوة ذلك «العسل» كاملة – أن ترحل الى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التى تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء ٠٠ والتى يصعد المرء فيها – على مهل – طرقا وعرة ، فى عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت الى انشودة السائس ترددها قمم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط ٠٠ ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء – عند حواف الخلجان – عبير أشجار الليمون ، حتى اذا أرخى الليل سدوله ، خلا العروسان الى نفسيهما فى الشرفة يحدقان فى النجوم وقد اشتبكت أصابعهما ، وأخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل اليها أن فى الدنيا بقاعا تنبت السعادة ، كما

لو كانت السعادة شجرة لا تنبت الا فى تربة معينة لا نمو لها فى غيرها !

ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها أن تتكىء على حافة شرفة منزل خشبى على جبال سويسرا ، أو أن تحبس شجونها فى كوخ باسكتلندا ، مع زوج يرتدى حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ ، وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، وأكماما منشاة ؟! ٠٠ لكم تمنت لو تفضى لأحد بهذه الخواطر جميعا ٠٠ ولكن ، كيف السبيل الى الافصاح عن ذلك الضيق الذى يتعذر التعبير عنه ، والذى تتبدل صوره كالسحاب ، ويعصف بنفسها كالرياح ؟ ٠٠ وهكذا ، كانت تعوزها الالفاظ ، كما أعوزتها الفرصة والجرأة !

ومع ذلك ٠٠ آه ، لو أراد « شارل » ٠٠ لو خطر بباله ٠٠ لو التقت نظراته مرة بخواطرها ٠٠ اذن ، لتفتح قلبها ـ فيما تحسب ـ عن فيض مفاجىء ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدى ! ٠٠ بيد أن الأمر كان يجرى على النقيض من ذلك ٠٠ فكلما ازدادت الألفة بينهما ، ازداد شعورها بانطواء روحى ، واتسعت الهوة التى تفصلها عنه!

كان حديث « شارل » سطحيا ٠٠ كسطح افريز الطريق ، تمر عليه آراء الناس فى لباسها العادى ، فلا تثير فيه انفعالا ، أو ضحكا ، أو خيالا ! ٠٠ فهو لم يحس بحب الاستطلاع ـ كما كان يقول ـ يدفعه لأن يذهب الى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، أيام كان يقيم فى (روان) ٠٠ ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا اطلاق الرصاص ٠٠ وعجز مرة عن أن يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية ، صادفتها فى احدى الروايات !

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر على العكس من ذلك ، فيعرف الرجل كل شىء ٠٠ أن يكون مبرزا فى كثير من نواحى النشاط ليدرب زوجته عليها ٠٠ أن يبصر المرأة بخبايا العواطف

ومتع الحياة ٠٠ وبكل الأسرار ؟! ٠٠ لقد كان « شارل » على العكس من هذا كله ، فلا هو بصرها بشيء ، ولا كان يعرف شيئا ٠٠ بل انه لم يكن يطمح الى شيء !!

كان يظنها سعيدة ، وهى فى الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن ٠٠ بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التى أتاحتها له !

وكان يحلو لها أحيانا أن ترسم ، فكان « شارل » يجد تسلية ممتعة فى أن يقف جامدا يتأملها وهى عاكفة على لوحتها ، أو وهى تنعم النظر الى الرسم وقد ضاقت حدقتاها امعانا فى الدقة ، أو وهى تعبث بقطعة من لباب الخبز تكورها بين أصابعها ٠٠ أما اذا عزفت على « البيانو » ، فكان اعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة ! ٠٠ كانت توقع النغمات فى ثقة ، وتجرى أصابعها على المفاتيح من أعلى الى أسفل دون توقف ، فتهز أوتار الآلة القديمة ، حتى ليصل صوتها الى أقصى القرية اذا كانت النافذة مفتوحة ٠٠ وكثيرا ما يحدث أن يكون محضر القرية مارا فى الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ فى الاصغاء وهو عارى الرأس ، وأوراقه فى يده !

* * *

◆ **وكانت** « ايما » ـ من ناحية أخرى ـ تحسن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأتعاب الاستشارات الطبية ، دون أن يشتموا منها رائحة المطالبة ! ٠٠ وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء ـ فى أيام الآحاد ـ كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة فى تقديم أصناف الطعام ٠٠ كأن ترص اهرامات من البرقوق على ورق العنب ، أو تصوغ الحلوى فى قوالب تصبها على الأطباق ٠٠ بل انها أخذت تعرب عن رغبتها فى شراء « سلاطين » تملأ بالماء ، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى ! ٠٠ وكان كل

هذا مدعاة الى رفع شأن أسرة « بوفارى » فى أنظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل الى أن ازداد تقديره لنفسه اذ وفق الى مثل هذه الزوجة ! ٠٠ وكان يطلع زائريه مزهوا على لوحتين صغيرتين رسمتهما « ايما » بالفحم ، وصنع هو لهما اطارين عريضين ، وعلقهما الى الحائط بشريطين أخضرين ٠٠ وكثيرا ما أصبح يرى واقفا أمام باب منزله ــ بعد مبارحة الكنيسة ــ وفى قدميه خفان بديعا التطريز يختال بهما فخورا !

وكان فى بعض الأحيان يعود الى المنزل متأخرا ــ فى الساعة العاشرة ، وربما فى منتصف الليل ــ فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت الى فراشها ، وعند ذاك كانت « ايما » تتولى اعداد المائدة له ، فيخلع سترته لكى يتناول عشاءه فى ارتياح ، وينطلق فى سرد أسماء جميع من قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من أدوية ٠٠ ثم يأتى ــ وهو راض عن نفسه ــ على ما تبقى أمامه من « يخنى » ، ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ فى قضم تفاحة ، وفى افراغ ابريق النبيذ فى جوفه ٠٠ ولا يلبث أن يذهب الى السرير فينطرح عليه ، ويمضى فى الغطيط !

وكان قد عدل عن « الطاقية » القطنية التى اعتاد لبسها فى السرير ، وألف أن يلف حول رأسه وشاحا لا يكاد يستقر على أذنيه ، فيصحو فى الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على وجهه ، وقد علق به بعض حشو الوسادة التى تكون أشرطتها قد انحلت أثناء الليل ٠٠

كذلك كان يرتدى فى النهار حذاءين كبيرين ، لكل منهما رقبة عالية ، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم ٠٠ أما وجه الحذاء فكان دائما مستويا فى خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب ٠ وكان يردد دائما : « هذا هو النوع المناسب للريف » !

وكانت أمه تؤيده فى هذا الاقتصاد ، اذا ما جاءت لزيارته ـ كلما اشتبكت فى خلاف مع زوجها ـ كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى ! ٠٠ وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضا ، اذ كانت ترى أساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم ٠٠ فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك فى البيوت الكبيرة ٠٠ وكمية الجمر التى كانت تحرق فى المطبخ تكفى لطهو عشرين صنفا من الطعام ! ٠٠ وكانت تعمد الى ترتيب « بياضات » زوجة ابنها فى الصوان ، وتعلمها كيف تحاسب الجزار اذا ما أحضر اللحم ، فكانت « ايما » تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس ! ٠٠ **وكانت كلمتا «ابنتى» و «أمى» تتبادلان طوال النهار ، مصحوبتين برعشة فى الشفاه ، اذ كانت السيدتان تلفظان أعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!**

كانت الأم العجوز تشعر فى عهد مدام « دوبيك » بأنها ما زالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها ٠٠ أما الآن ، فقد بدا لها حب « شارل » لايما بمثابة فرار من حنانها ، أو عدوان على ما كان لها ٠٠ فأخذت ترقب سعادة ابنها فى صمت كئيب ، كانسان أفلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ الى أغراب احتلوا داره القديمة ٠٠ وكانت تروى له مشقاتها وتضحياتها ـ على سبيل الذكرى ـ وتقارنها باهمال « ايما » ، عسى أن يستنتج أن ليس من الحكمة أن « يعبد » السيدة الشابة ، على هذا النحو الذى يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن « شارل » يدرى كيف يتصرف ٠٠ فهو يحترم أمه ، كما يحب زوجته حبا لا حد له ٠٠ وكان يعتبر أمه معصومة من الخطأ ، ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يكن يرى فى مسلك زوجته مدعاة للوم !٠٠ وكان يستجمع جرأته ـ بعد أن ترحل مدام بوفارى ـ فيردد فى استحياء ـ وبنفس ألفاظ أمه ـ بعضا من أهون المآخذ التى يكون قد سمعها منها ٠٠ ولكن «ايما» كانت ـ بكلمة واحدة ـ تقنعه بأنه على خطأ ، وترسله الى مرضاه ! ٠٠ **ومع ذلك فقد**

ظلت تحاول ان تقنع نفسها بأنها تحبه وفقا للنظريات التى كانت تؤمن بها ! ٠٠ كانت تردد على مسمعه ـ فى الحديقة ، وفي ضوء القمر ـ ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغنى له ـ وهي تتنهد ـ بعض الألحان المشجية ٠٠ بيد أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما أن « شارل » لم يكن يبدو أكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء !

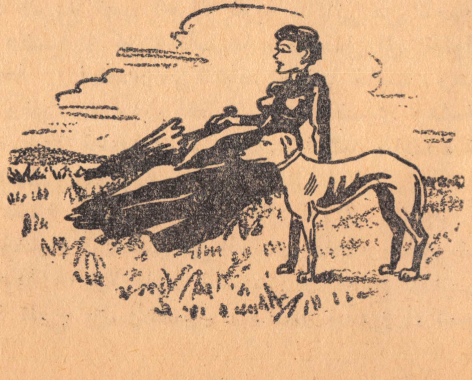
وهكذا لم تلبث ـ بعد أن قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة ـ أن انساقت الى اقناع نفسها بأن حب « شارل » خال من الحرارة ! ٠٠ فقد أصبحت أوقات انطلاقه وتحلله منتظمة ٠٠ وهو يقبلها فى «مواعيد» معينة ، وكأنه يمارس «عادة» من العادات! ٠٠ أو كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء ممل !!

* * *

◆ **وحدث** أن عالج الطبيب أحد الحراس من التهاب رئوى ، فأهدى الحارس زوجته كلبة ايطالية صغيرة أخذت تصحبها فى نزهاتها ، اذ كانت تخرج أحيانا كى تخلو الى نفسها ، وحتى تريح بصرها بعض الشىء من النظر الى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة ! ٠٠ كانت تمضى حتى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة من البناء المهجور الذى تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية الى الحقول ٠٠ وهناك ، وسط الأعشاب النامية فى الخندق ، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة ، كانت تتأمل ما حولها لتتبين ما اذا كان قد ألم بالمكان أى تغير عما كان عليه فى آخر مرة جاءته ٠٠ فكانت ترى زهور « الريجتيالا » والقرنفل فى نفس منابتها ، والنباتات الشوكية تحيط بالاحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافذ الثلاث ـ فى المبنى المهجور ـ التى كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التى علاها الصدأ ٠

وكانت أفكارها لا تلبث أن تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التى كانت تجرى فى حلقات خلال الحقول ، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء ، وتطارد الجرذان أو تعضعض الخشخاش النامى على حافة حقل القمح · ثم تأخـــذ أفكارها فى التركز شيئا فشيئا ، فتردد لنفسها وهى تفترش الحشائش التى كانت تعبث بها بطرف مظلتها : « يا الهى ! ·· لماذا تزوجت ؟! »

وكانت تسائل نفسها : « أولم تجد المصادفات طريقا آخر تدفعها خلاله لتلتقى برجل آخر ؟ » ·· ثم تمضى فى تخيل الأحداث التى كانت تترتب على ذلك ·· الأحداث التى لم تقع ، والحياة التى تغاير حياتها الحالية ، والزوج الذى لم تعرفه ·· فلا مراء فى أن الأزواج ليسوا جميعا مثل زوجها !·· كان من الممكن أن يكون زوجها جميلا ، مرحا ، أنيقا ، جذابا ، مثل أولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها فى الدير ! ·· ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن فى المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، وأضواء المسارح ، وصخب المراقص ؟ ·· انهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب ، وتنتعش الحواس ·· أما هى ، فان حياتها باردة كالمخـــزن الذى أوتى نافذة شمالية !



والملل ؟! ٠٠ ذلك العنكبوت الصامت الذى كان يغـــزل نسيجه فى الظلال ، فى كل ركن من أركان قلبها !

وتذكرت أيام توزيع الجوائز ـ أثناء الدراسة ـ حين كانت تصعد الى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ، وقد بدت بديعة بشعرها المجدول ، وثوبها الأسود ، وحـذاءيها الصوفيين الخفيفين ٠٠ وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة ، اذا ما عادت الى مكانها ٠٠ ويطلون من نوافذ العربات التى تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها ! ٠٠ كما كان مدرس الموسيقى يحييها اذ يمر بها حاملا قيثارته ٠٠ **أواه ! ٠٠ لكم أصبح كل هذا بعيدا ٠٠ آه ، شد ما بعد !**

* * *

• **وكانت** تنادى كلبتها « جالى » فتضعها على ركبتيها ، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : « هيا ٠٠ قبلى سيدتك ! ٠٠ قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها ! »

وتأخذ فى تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق ، الواجم ، الذى يتثاءب فى بطء ، فيلين قلبها ، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان ، وتحدثه بصوت مسموع ، وكأنها تعزى شـــخصا منكودا !

وكانت الريح تهب أحيانا قوية ، تأتى من ناحية البحـــر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها ، وتحمل الى الحقول المترامية رطوبة ملحة ٠٠ فيصدر من البوص صفير خافت ، وهو يميل على سطح الأرض ٠٠ وبين أغصان الزان تسرى رعشة سريعة ، بينما ينبعث على قممها همس عميق ، فتشد « ايما » شالها حول كتفيها وتنهض منصرفة ٠٠

وكان ضوء النهار ينبعث خلال أوراق الشجر ، مستعيرا لونها الأخضر ، فينعكس على العشب القصير الذى يئن فى رفق تحت قدميها ٠٠ ولا تلبث الشمس أن تجنح للمغيب ، فتحمر السماء اذ تلوح بين الغصون ، وتبدو جذوع الأشجار النامية

بانتظام فى خط مستقيم ، كأنها أعمدة قائمة على صفحة من الذهب ٠٠ وتسرى الرهبة الى نفس « ايما » فتنادى كلبتها « جالى » ، وتسرع الى (توست) ٠٠ ثم تستلقى على مقعد مريح ، وتظل صامتة بقية الليل !

* * *

◆ **واعترض** حياتها – فى أواخر سبتمبر – حادث غير عادى . فقد دعيت الى (فوبيسار) لزيارة مركيز « اندرفيليه »! ٠٠ ولما كان المركيز قد تولى الوزارة من قبل – عند عودة الملكية – فانه أخذ يتطلع للعودة الى الحياة السياسية ، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب ٠٠ فكان فى الشتاء يوزع الحطب ، وكان فى مجلس المقاطعة يطالب متحمسا باصلاح الطرق فى دائرته ٠٠ فلما جاء الصيف بحره اللافح ، أصيب بدمل فى فمه ، استطاع « شارل » أن يريحه منه – بما يشبه المعجزة – بحركة من مبضعه على وجهه فى الوقت المناسب !

وعندما عاد المندوب الذى أرسله المركيز الى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكر لسيده أن فى حديقة الطبيب نوعا ممتازا من « الكريز » الذى كان نمو بذوره متعذرا فى حدائق (فوبيسار) ٠٠ فطلب المركيز بعض « العقل » ٠٠ وعنى بأن يذهب بنفسه الى الطبيب ليشكره ٠٠ **وهناك وقع بصره على « ايما » ، فلاحظ قوامها الأهيف ، واسترعى انتباهه أنها لا تنحنى بالتحية كالفلاحات ٠٠ ولم ير أى مغالاة فى التواضع أو ثمة خرق للتقاليد ، فى دعوة الزوجين الشابين الى قصره !**

وفى الساعة الثالثة من أحد أيام الأربعاء ، رحل السيد والسيدة «بوفارى» الى (فوبيسار) فى عربة شدت الى سطحها حقيبة كبيرة ٠٠ ووضع أمام مقعدها صندوق للقبعات ، فضلا عن أن « شارل » حمل على فخذيه صندوقا من الورق المقوى

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء ، لتنير الطريق للعربات .



الفصل الثامن

◆ كان القصر مبنيا على الطـراز الايطالى الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضى الى شرفات ذات درجات ٠٠ وكان يقوم فى نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الابقار ، بين مجموعات متباعدة من الاشجار الضـخمة ، التى بسطت أوراقها المتفاوتة الخضرة على أحواض الورد ، وأحـواض الزهر المسمى بكرات الجليد ، والتى انتثرت على طول الطريق الرملى المتعرج ٠٠ وكان هناك جدول يجرى تحت قنطرة ٠٠ ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان معروشـة بالقش ، تنتثر فى المروج التى حفت بها هضبتان تنحدران انحـدارا هينا ، وتكسوهما الغابات ٠٠ وعلى البعد ، بدا وسط الاحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر ، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم ٠٠

ووقفت عربة « شارل » أمام السلم الاوسط ، فظهر الخدم ٠٠ وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها الى البهو ، الذى رصفت أرضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه الى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الاقـدام والاصوات فيه صـدى كالذى يتردد فى الـكنائس ٠ وفى أقصى البهـو كان يوجـد سلم مستقيم ٠٠ والى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة ، وتؤدى الى قاعة « البلياردو » التى كانت أصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها

وبينما كانت « ايما » فى طريقها الى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة ، وقد استقرت ذقونهم فـوق أربطة رقابهم العالية ٠٠ وكانوا جميعا يحملون الاوسمة ، ويبتسمون فى صمت وهم مكبون

على مائدة « البلياردو » .. وفوق الخشب الداكن الذى يكسو الجدران ، كانت ثمة اطارات مذهبة ، نقشت على حوافها السفلى أسماء بحروف سوداء ، قرأت « ايما » منها : « جان انتوان دواند فيلييه دى ايفربونفيل ، كونت دى فوبيسار ، وبارون دى فريناى ، الذى قتل فى موقعة (كوترا) فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٥٨٧ » .. وقرأت تحت اطار آخر : « جان انتوان هنرى‌جى دى اندفيلييه دى فوبيسار ، اميرال فرنسا ، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل ، الذى جرح فى موقعة (هوج سان فاست) فى ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومات فى (فو بيسار) فى ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣ » .. أما بقية الاسماء ، فلم يسهل على « ايما » تبينها ، اذ كانت أضواء المصابيح المنعكسة من مائدة « البلياردو » الخضراء تلقى ظلالا قاتمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الافقية ، فتظهر التشققات التى كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة .. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة باطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك أجزاء أكثر وضوحا فى اللوحة : جبهة شاحبة ، أو عينان حادتان ، أو شعر مستعار يتهدل على الاكتاف فوق ملابس حمراء ، أو عقدة ربطة الساق فوق الربلة (بطن الساق) ..

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت احدى السيدات ـ وهى المركيزة نفسها ـ واستقبلت « ايما » وأجلستها فى مقعد الى جوارها ، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودى ، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد !.. كانت سيدة فى نحو الاربعين ، اوتيت كتفين بديعتين ، وأنفا حادا ، وصوتا لينا .. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائى ـ فى ذلك المساء ـ شالا من « الدانتيلا » ، ينسدل على ظهرها فى شكل مثلث .. والى جوارها ، كانت تجلس شابة ، فى مقعد عالى الظهر ، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة ، وقد اشتبكوا فى الحديث مع السيدات حول المدفاة

* * *

◆ واعد الطعام فى الساعة السابعة ، فجلس الرجال ـ وكانوا أكثر عددا من السيدات ـ حول المائدة الاولى فى قاعة الطعام ، بينما جلست السيدات حول المائدة الثانية التى كان يرأسها المركيز والمركيزة

واحست «ايما» عند دخولها القاعة بجو دافىء : مزيج من أريج الزهور ، والملابس الجميلة ، وابخرة اللحم ، ورائحة « عش الغراب » ، وشموع المشاعل التى انعكست السنة لهيبها الطويلة على الأوانى الفضية والاكواب البلورية المضلعة التى أحاطتها الابخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت . وتناثرت الزهور على طول المائدة ، واستقرت المناشف ـ التى طويت على شكل قلنسوات رجال الدين ـ على الأطباق ذات الحواف العريضة ، وبرزت خلال ثناياها أرغفة بيضاوية صغيرة .. ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات ،

على فراش من العشب الاخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب ٠٠ والابخرة تتصاعد، ورئيس خدم المائدة (السفرجية) ـ فى جوربيه الحريريين ، وسرواله القصير ، ورباط رقبته الأبيض ، وقميصه الذى وشى صدره بالدانتيلا ـ يمر بالطبق بين أكتاف المدعوين فى وقار القضاة ، وبغمزة واحدة من ملعقة بين أجزاء الصنف الذى يحمله ـ وقد قسمت من قبل ـ تقفز اليك القطعة التى تختارها !٠٠ وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية ، كان ثمة تمثـــال لامرأة مدثرة حتى الذقن ، تنظر فى صمت الى القاعة التى حفلت بالناس !

٠٠ولاحظت «ايما» ان كثيرا من السيدات لم يضعن قفازاتهن فى أكوابهن! (١)

★ ★ ★

◆ وجلس فى أقصى المائدة ـ وحيدا بين السيدات ـ شيخ انحنى على طبقه الملىء ، وقد ربط منشفته الى صـــدره كالطفل ، واخذت قطرات « الصلصة » تتساقط من فمه وهو يأكل ٠٠ وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم ٠٠ ذلك كان والد زوجة المركيز : « دوق فرديير » المسن ، الذى كان ذا حظوة لدى « كونت دارتوا » فيما مضى ، أيام نزهات الصيد فى (فودرى) عند المركيز «دى كونفيان» ٠٠ والذى قيل انه كان عشيقا للملكة « مارى انتوانيت » ، الى جانب عشيقيها الآخرين « دى كوينى » و « دى لوزون » !

وكان الدوق قد عاش حياة عربيدة صاخبة ، حفلت بالمبارزات والمراهنات ، وبالنساء اللواتى كان يغويهن ٠٠ وقد بدد ثروته ، وازعج أسرته كلها !

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف فى اذنه باسماء الأطباق التى يشير اليها بأصبعه مغمغما فى « تهتهة » ٠٠ واخذت عينا « ايمـــا » ترتدان باستمرار ـ وبحركة تلقائية ـ الى هذا الشيخ ذى الشفة المتدلية ، لتحدقا فيه ، وكأنه شخص فذ جليل !٠٠ كيف لا وقد عاش فى البـــلاط الملكى ، ونام فى فراش الملكات !!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة ، التى كانت ترسل فى جســـد « ايما » كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رأت الرمان فى حياتهـــا من قبل ، ولا أكلت الأناناس !٠٠ بل ان مسحوق السكر الناعم بدا لها أنصع بياضا واكثر نعومة منه فى أى مكان آخر !

وما لبثت السيدات ان صعدن الى حجراتهن ليتخذن اهبتهن للحفلة الراقصة ٠٠ فعنيت « ايما » بزينتها فى دقة الممثلة التى تستعد لليلة ظهورها الأول ٠٠ ونسقت شعرها وفقا لنصائح الحلاق ، وأخذت ترتدى ثوبها الصوفى الخفيف الذى كان مبسوطا على السرير ، بينما كان « شارل » يشد بنطلونه الى وسطه ٠٠

---

(١) كانت هذه هى عادة سيدات المجتمع فى فرنسا فى القرن الماضى ٠

وقطع « شارل » الصمت قائلا : « لسوف يضايقنى السير الجلدى - الذى يشد الحذاءين الى البنطلون - أثناء الرقص »

فهتفت فى استنكار : « الرقص ؟! »

واذ أجاب : « نعم » ، قالت : « هل طاش عقلك ؟ .. لسوف يسخرون منك ! .. الزم مقعدك ! » .. ثم أردفت : « ان هذا أليق بمكانتك كطبيب » !!

ولزم « شارل » الصمت ، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ « ايما » من ارتداء ثيابها .. كان يراها من الخلف - على صفحة المرآة - بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها أشد سوادا مما عهدهما .. وخصلات شعرها المنسدلة فى تموج على أذنيها تلمع ببريق أزرق ، وقد ثبتت فى لفافة شعرها المكور فى مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، وقد تناثرت على أوراقها قطرات من الماء !.. أما ثوبها ، فكان ذا لون أصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعى أحيط بالخضرة ..

وتقدم « شارل » فطبع على كتفها قبلة . واذ ذاك هتفت : « ابتعد عنى لئلا تتلف اتساق ملابسى ! »

* * *

◆ وسمعت « ايما » أنغاما من قيثارة ، ودوى بوق ، فهبطت السلم وهى تمسك نفسها بعناء عن الجرى .. وكانت حلقات الرقص الرباعى قد بدأت ، وأخذ المدعوون يتدافعون ، فجلست فى مقعد مستطيل الى جوار الباب .. حتى اذا انتهت الرقصة ،خلت الحلبة الا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون فى زيهم الرسمى وقد حملوا الصحاف الكبيرة .. وعلى طول الصف الذى ضم النساء ، كانت المراوح تهتز ، وباقات الورد تحجب جانبا من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الاغطية الذهبية تدار فى الايدى التى شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها ، وضغطت على معاصمها .. وكان وشى « الدانتيلا » والمشابك الماسية ، والاساور ذات الزوائد المدلاة ، يتأرجح فوق الاثواب ، ويلمع فوق الصدور وحول الاذرع العارية ! .. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه ، والمعقود فى مؤخرات الرؤوس ، يحمل زهور الفل أو الياسمين أو الرمان أو البازلاء ، أو السنابل التى عقدت على شكل تيجان أو عناقيد أو أغصان .. وكانت الامهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة ، تتوج رؤوسهن عمائم حمراء !

وخفق قلب « ايما » قليلا عندما تقدمت تتخير لنفسها مكانا فى الصف ، انتظارا لحركة قوس عازف القيثار ، ايذانا ببدء الرقص ، وقد أمسك زميلها بأطراف أناملها .. وما أن انسابت الانغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت الى الامام على ايقاع الموسيقى وهى تهز رقبتها هزا خفيفا .. وأخذت ترتسم على

شفتيها ابتسامة ، تزداد اتساعا كلما أبدع عازف القيثار ، حين ينفرد بالعزف أحيانا وتكف الآلات الاخرى عن مشاركته ! ٠٠ كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الاخضر ، فوق موائد الميسر فى الغرفة المجاورة ٠٠ ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود الى العزف المشترك فجأة ، ويرسل البوق أنغامه الرنانة ، فتدق الاقدام فى ايقاع ، وترفرف أطراف « الجونلات » وتتلامس ، بينما تتشابك الايدى ثم تفترق ٠٠ والعيون التى تغض عنك لا تلبث أن تعود الى التحديق فى عينيك !

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلا ، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والاربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، أو يتبادلون الاحاديث عند الابواب ، وقد امتازوا عن الباقين – على تباين أعمارهم وزيناتهم وأشكال وجوههم – بسيماء عراقة الأصل !٠٠ وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجا من سواها ، وشعورهم تنسدل على الأصداغ فى تموجات ، وهى تلمع بأطيب الدهون ! ٠٠ وكانت لهم بشرة المترفين ٠٠ بشرة بيضاء ، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خزف شاحب ، وحرير يتموج ، وأثاث جميل لامع !٠٠ بشرة يضفى عليها رونق الصحة نظام دقيق فى التغذية ! ٠٠ وكانت رقابهم تتحرك فى يسر فوق أربطة منخفضة ٠ وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف أسمائهم ، وتتضوع بشذى مختلف العطور ! ٠٠ وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج ٠٠ أما نظراتهم غير المكترثة ، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التى تجد كل يوم ريا واشباعا ! ٠٠ ومن خلال حركاتهم الرشيقة ، كان ينبثق ذلك الاعتداد الذى يولده اعتياد السيطرة على ما فى اليد من أشياء ، كما هو الحال فى رياضة الخيل الأصيلة ٠٠ ومصاحبة الغوانى !

وعلى بعد ثلاث خطوات من « ايما » ، أخذ أحد فرسان حلبة الرقص – وكان فى ثياب زرقاء – يتحدث عن ايطاليا ، الى شابة شاحبة اللون تتحلى باللآلىء ٠٠ وراحا يعبران عن اعجابهما بضخامة أعمدة كنيسة القديس بطرس ، والتريفولى ، وبركان فيزوف ، والكاستلامارى ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم فى ضوء القمر !

وبالاذن الثانية ، أخذت « ايما » تنصت الى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها ٠٠ اذ أحاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز فى سباق الاسبوع الماضى ، وكسب ألفى جنيه فى مباراة للقفز فوق حفرة فى انجلترا ! ٠٠ وكان بعض أفراد الشلة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم ، بينما كان فريق آخر يشكو من اخطاء مطبعية حرفت أسماء جيادهم فى الصحف !

★ ★ ★

◆ وثقل جو المرقص ، وأخذت أضواء المصابيح تخفت ، والجمع ينصرف الى قاعة « البليياردو » ٠٠ وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج ٠٠ واذ أدارت مدام « بوفارى » رأسها على الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين فى الحديقة تتطلع الى ما يجرى بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت الى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة ، وأبيها تحت أشجار التفاح مرتديا قميصه ! ٠٠ بل انها رأت نفسها - كما كانت فى الماضى - تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن ! ٠٠ غير ان حياتها الماضية - التى كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة - سرعان ما تلاشت عن آخرها فى بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب فى انها عاشتها يوما ! ٠٠ ولم تعد تعيش الا فى حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها ٠٠ وأخذت تتناول المثلجات فى كأس مطعمة بالذهب أمسكتها بيسراها ، وراحت تسبل جفنيها وهى ترفع الملعقة الى فمها !

وكانت الى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : « هل لك يا سيدى ان تتفضل بالتقاط مروحتى التى سقطت وراء هذه الأريكة » ٠٠ وانحنى السيد ٠٠ وفيما كان يلتقط المروحة ، لمحت « ايما » السيدة تلقى فى قبعته بشىء أبيض مطوى على شكل مثلث ٠ وما لبث السيد ان قدم المروحة باحترام الى السيدة ، فشكرته بهزة من رأسها ، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء - التى حوت الكثير من نبيذ اسبانيا ، ونبيذ الراين ، وحساء السمك ، وحساء اللوز ، وعصيدة جبل طارق ، وشتى أنواع اللحم البارد المحوط بالجيلاتين - أخذت العربات ترحل تباعا ، وأضواء مصابيحها تبدو - من خلف الستائر الحريرية - مترنحة فى جوف الظلام ٠ وبدأت المقاعد تخلو ٠٠ غير ان بعض المقامرين تخلفوا ٠٠ وراح الموسيقيون يلعقون أطراف أصابعهم ليرطبوها ٠٠ واستسلم « شارل » الى شبه اغفاءة وقد أسند ظهره الى أحد الأبواب ٠٠

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدأ رقص « الكوتيون » ٠ ولم تكن « ايما » على دراية برقصة « الفالس » ، بينما راحت بقية الحاضرات - حتى مدموازيل دى اندفيلييه والمركيزة نفسها - يرقصنها ٠٠ ولم يكن قد بقى غير اثنى عشر شخصا تقريبا هم نزلاء القصر ٠ على ان احد راقصى « الفالس » - وكان شابا يرتدى صدارا واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب ، ويدعوه القوم بلقب « الفيكونت » - تقدم من مدام « بوفارى » يدعوها لمراقصته ، مؤكدا لها انه سيرشدها فلا تلبث ان تتقن الرقصة !

* * *

• وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة • وأخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح ، وأثاث ، وجدران ، وأرض ! •• وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت أرجلهما •• وخفض بصره نحوها •• ورفعت هى بصرها نحوه •• وعلى الفور ، أحست بدبيب مخدر يسرى فى أعصابها ! •• وتوقفا عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه •• واذا « الفيكونت » يقود « ايما » بحركة رشيقة الى نهاية البهو ، حيث اختفى معها • وكانت قد أوشكت ان تسقط لاهثة الأنفاس ، فأسندت رأسها هنيهة الى صدره •• ثم عاودا الدوران فى حركة أهدأ من ذى قبل ، حتى عاد



« الفيكونت » بها الى مكانهما الأول ، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط ، وغطت عينيها براحيتها !

وعندما فتحت عينيها من جديد ، رأت سيدة تجلس على مقعد فى منتصف الصالون ، وقد انحنى أمامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة فى الرقص • ولم تلبث السيدة ان اختارت « الفيكونت » • وعادت القيثارة الى العزف •• واتجهت الأنظار الى الراقصين اللذين أخذا يروحان ويجيئان ، وجسم السيدة ثابت فى استقامته ، وذقنها منكسة الى اسفل • كذلك كان الفيكونت مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد رفع رأسه •• ولم يكن ثمة شك فى ان السيدة تجيد « الفالس » •• وقد استمرا فى الرقص وقتا طويلا ، حتى أنهكا بقية الراقصين !

★ ★ ★

◆ وانتهى الرقص ٠٠ ودار الحديث لبضع دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات الوداع ، أو - بالأحرى - تحيات الصباح ، ثم انصرف نزلاء القصر الى مخادعهم ٠٠

وصعد « شارل » السلم وهو يجر نفسه جرا ، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله ، بعد ان ظل واقفا خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون ان يفقه منه شيئا ! ٠٠ وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيهما !

أما « ايما » ، فقد لفت كتفيها بالشال، وفتحت النافذة واتكأت على حافتها ٠٠

كان الليل دامسا ، والمطر يتساقط رذاذا ٠٠ وأخذت « ايما » تستنشق - في نهم - الهواء الرطب الذي أرسل في كيانها انتعاشا ٠٠ وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن في أذنيها ٠٠ وجهدت لتظل ساهرة ، كي تمكن خيالها من ان ينعم ، أطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من تركها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ، محاولة ان تتصور ما كان يجري في مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة السالفة ، وكأنها تود لو عرفت حياتهم ، وتسللت اليها ، وامتزجت بها ! ٠٠ ثم فطنت الى انها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابها ، واندست تحت الأغطية الى جوار « شارل » ٠٠ الذي كان قد استغرق في النوم !

وفي اليوم التالي ، حضر الغداء عدد كبير ، ولكن جلوسهم الى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق ٠٠ وأدهش الطبيب ان لم تقدم خلال الوجبة أية خمور ٠٠ ومالبثت مدموازيل « دي اندفيلييه » ان جمعت قطعا من الخبز في سلة لتحملها الى البجع في بركة الماء ٠٠ بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي أعدت لانماء نباتات المناطق الحارة ! ٠٠ وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب ، صفت على شكل اهرامات ، تحت اصص معلقة تشبه أوكار الأفاعي ، تدلت من حوافها أشرطة طويلة من الورق الأخضر المتشابك ٠٠ وكان بستان البرتقال القائم في طرف الحظائر يمتد في طريق مسقوف حتى مرافق القصر ٠٠

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة الى حظائر الخيل ، على سبيل التسلية وقتل الوقت ٠٠ وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المذاود الشبيهة بالسلال ، تحمل أسماء الخيول بحروف سوداء ٠٠ وكانت كل دابة تتحرك في مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر أحد على مقربة منها ٠٠ وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنها أرضية صالون ٠٠ وكانت أطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عامودين ملتفين ، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط ٠٠

وفي تلك الأثناء ، ذهب « شارل » يرجو خادما ان يعد عربته التي كانت

قد اقتيدت الى المدخل ٠٠ حتى اذا حملت اليها الحقـــائب ، قدم الزوجان « بوفارى » تحياتهما الى المركيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين الى (توست)

★ ★ ★

◆ راحت « ايما » ترقب فى صمت العجـــلات وهى تدور ، بينما كان « شارل » يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين ، والجـواد الصغير يخب بين ذراعى العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخى يضرب عجـز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذى ربط خلف العربة يرتطم بجدارها فى ضربات منتظمة ٠٠

وعندما وصلا الى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر أمامهما فجأة عدد من الفرسان يتضاحكون ولفافات السيجار فى أفواههم ٠٠ وخيل لايما انها تعرفت بينهم على « الفيكونت » فالتفتت ، غير انها لم تر فى الافق سوى رؤوس تتحرك فى ارتفاع وانخفاض ، مع حركات الخيل فى عدوها وخببها ٠٠

وما ان قطعا نصف الفرسخ حتى اضطرا الى الوقوف ، كى يصلا بالحبـال ما انقطع من « السير » الذى يربط الجواد الى العربة ٠٠ وفيما كان « شارل » يلقى نظرة أخيرة على الطاقم بعد أن أصلحه ، لمح بين أقدام الجـــواد ـ على الأرض ـ حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن انها لشخص من ذوى الألقاب ٠٠ فقال : « ان بها سيجارين ، سأدخنهما بعد العشاء الليلة »

فتساءلت « ايما » : « اذن فأنت تدخن ؟ »

قال : « أحيانا ٠٠ عندما تسنح فرصة لذلك »

ووضع « غنيمته » فى جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذى اندفع بالعربة ٠٠

ولم يجدا العشاء معدا حين بلغا دارهما ، فاحتدت « ايما » ٠ ولما اجابتهـــا الخادم « نستازى » فى قحة ٠٠ صاحت بها :

ـ اخرجى من هنا ! ٠٠ هذه وقاحة مشينة ! ٠٠ أنت مطرودة من هنا !

وتحولت تعد العشاء بنفسها ٠٠ وكان يتكون من حساء بالبصل ، وقطعة من لحم العجـــول ٠٠ وجلس شارل أمام « ايما » يفرك يديه ويقول فى غبطة : « ما أمتع ان يعود المرء الى داره ! »

وتناهى اليهما صوت « نستازى » وهى تبكى ٠٠ وكان « شارل » ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، اذ شاطرته الأمسيات الطويلة التى مرت به أيام حزنه ، كما كانت أول من عرفه من أهل المنطقة ، حين بدأ يمارس مهنته فيها ٠٠ فلم يلبث ان سأل زوجته : « أحقا طردتها ؟ »

وردت « ايما » ، فى حنق : « أجل ٠٠ من يمنعنى من ذلك ؟! »

وبعد العشاء ، التمسا الدفء فى المطبخ ، حيث أخذ شارل يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق فى كل لحظة ، ويضطجع فى استمراء عند كل نفثة دخان ! ‥ فما لبثت « ايما » ان قالت له فى استهجان : « لسوف تؤذى نفسك » ! ‥ ومن ثم وضع السيجار جانبا ، ثم جرى الى المضخة ـ « الطلمبة » ـ ينشد كوبا من الماء البارد ‥ واذ ذاك تناولت « ايما » حافظة السيجار فقذفت بها فى قاع الصوان ‥

★ ★ ★

◆ ولاح لها اليوم التالى طويلا ، فأخذت تتمشى فى حديقتها الصغيرة جيئة وذهابا ، متوقفة من آن الى آخر امام الأحواض او عرائش الكروم او تمثال القس المصنوع من الجص ، تتأمل فى دهشة هذه الأشياء القديمة التى ألفتها وعرفتها من قبل ‥ لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة ! ‥ ترى منذا الذى اقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها ؟! ‥ لقد تركت رحلتها الى (فوبيسار) ثغرة فى حياتها كتلك الثغرات الواسعة التى تخلفها العاصفة فى الجبال أحيانا ، فى ليلة واحدة !

على انها تقبلت الواقع فى استسلام ، وطوت فى وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان ، وبينها حذاءاها الحريريان ، وقد اصفر نعلاهما من أثر الشمع الذى كانت تنزلق عليه فوق أرض حلبة الرقص ! ‥ تماما كما انطبع فى قلبها ـ بعد احتكاكه بالثراء ـ أثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت ـ حين تستيقظ فى صباح الأربعاء من كل أسبوع ـ تهمس لنفسها : « آه ! ‥ لقد انقضى عليها أسبوع ‥ مضى أسبوعان ‥ مرت ثلاثة أسابيع ‥ مذ كنت هناك ! » ‥ وشيئا فشيئا ، أخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل فى ذاكرتها ، فنسيت ألحان الرقص ، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات فى وضوح ‥ فقد ذهبت بعض التفصيلات ‥ وبقيت لها الحسرة !



الفصل التاسع

• **كثيرا** ما كانت « ايما » تسعى الى الصوان ـ اذا ما غادر « شارل » المنزل ـ فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التى دستها بينها ، وتروح تتأملها ، وتفتحها .. بل انها كانت تتنسم رائحة بطانتها التى جمعت بين العطر والتبغ ! .. ترى لمن كانت تلك الحافظة ؟ .. أتراها كانت للفيكونت ؟! .. لعلها اذن هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على اطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيدا عن أعين الفضوليين جميعا !.. ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالا ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج .. **ولا بد ان نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من ابرتها أملا أو ذكرى !.. كأن الخيوط الحريرية فى امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان فى فؤادها من هيام صامت ! .. حتى اذا فرغت منها فى النهاية ، حملها « الفيكونت » معه !** .. ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الاطار العريض ، بين أصص الزهور وساعات « بمبادور » البندولية !

وكانت « ايما » ترتد من هذا الحلم الى التفكير فى نفسها .. هاهى ذى فى (توست) و « الفيكونت » فى باريس .. بعيدا .. ترى كيف تكون باريس ؟.. يا للاسم الضخم !.. وراحت تردده لنفسها هامسة ، وهى تستشعر متعة فى تكراره ! .. كان يرن فى اذنيها رنين ناقوس الكنيسة .. بل بدا كما لو كان يبعث شعاعا يترامى حتى يصل الى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون فى الليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون أناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصغى الى قرقعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها فى النهاية، بعد ان تبارح العربات البلدة .. وعندئذ تحدث نفسها قائلة : « لسوف يصلون اليها غدا ! » .. وكانت تتابعهم بخيالها ، وهم يصعدون الربى ، ويهبطون الوهاد ، ويجتازون القرى ، وينسابون فى الطريق العريض الممتد تحت أضواء النجوم .. ولا تلبث ، بعد مسافة لا تدرى مداها ، ان تجد نفسها فى مكان غامض ينتهى عنده حلمها !

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع معالمها بأصبعها وتقوم بجولات وهمية في أحيائها : تسير فى الشوارع الكبيرة ، وتقف عند الأماكن التى تتقاطع عندها خطوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التى تمثل المنازل .. حتى اذا كلت عيناها ، أطبقت جفنيها .. واذ ذاك ، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها ، وأبواب العربات اذ تفتح فى صخب أمام أبهاء المسارح !

واشتركت فى صحيفة « لاكوربى » ـ النسوية ـ ومجلة « سيلف » (أى « حوريات الصالونات ») ـ الاجتماعية ـ وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما ، دون ان تغفل كلمة من أنباء حفلات العرض الأول للمسرحيات ، وحفلات السباق والسهرات .. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، أو بافتتاح

متجر !٠٠ وأخذت تتعرف على الأزياء الحديثة ، وتحفظ عناوين أمهر الحائكين والحائكات ، والأيام التى اعتاد المجتمع الباريسى ان يخرج فيها للنزهة فى الغابة ، أو للسهر فى الاوبرا ٠٠ وراحت تدرس فى « اوجين سويه » أوصاف الأثاث ٠٠ **وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهى تنشد اشباعا وهميا لمطامعها الشخصية ! ٠٠ وبلغ من شغفها هذا ، ان كانت تحمل كتابها معها الى المائدة وتقلب صفحاته ، بينما يكون « شارل » منهمكا فى الأكل والحديث ٠٠ وكانت ذكرى « الفيكونت » لا تفتأ تعاودها أثناء قراءاتها ، فتقارن بينها وبين الشخصيات التى تصادفها فى الروايات ٠ على ان الدائرة التى كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئا فشيئا ٠٠ وأخذت هالة الرواء ، التى أحاطته بها ، تفارقه رويدا لتمتد الى مسافات أبعد ، حيث تضىء أحلاما أخرى !**

وهكذا باتت « ايما » ترى باريس أكثر اتساعا من المحيط ، وقد راحت تتألق أمام عينيها فى جو قرمزى !

* * *

◆ على ان ألوان الحياة المصطخبة فى هذا الخضم ، كانت ــ عند « ايما » ــ مقسمة الى أجزاء ، ومرتبة فى لوحات متباينة ٠٠٠ ولم تكن « ايما » تتبين من العوالم التى تضمها باريس سوى اثنين أو ثلاثة تطغى على ما عداها ، كما لو كانت الانسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ، يخطرون فيها فوق أرض لامعة ، فى صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب ! ٠٠ وفى هذا العالم أثواب ذات ذيول جرارة ، وأسرار خطيرة ، ومآس تختفى وراء الابتسامات !٠٠ ويلى ذلك ، عالم الدوقات ٠٠ حيث تكتسى الوجوه شحوبا ، ويستيقظ الرجال فى الساعة الرابعة ! ٠٠ وترتدى النساء ــ

أولئك الملائكة المساكين ـ « جونلات » وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة .. بينما يمتطى الرجال ـ أولئك الذين اوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة ـ جيادهم ، ويندفعون بها ، حتى الموت ، فى سبيل التسلية ، ويذهبون الى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف .. ثم يتزوجون فى النهاية ـ اذا ما بلغوا الأربعين ـ من النساء الوارثات !

.. وفى قاعات المطاعم التى تقدم العشـــاء بعد منتصف الليل ، يضحك ـ فى ضوء الشموع ـ جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات .. قوم مسرفون كالملوك ، تمتلىء نفوسهم بأنواع الطموح المثالى ، والهذيان الخارق ! .. وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين ، فهى معلقة بين الأرض والسماء ، فى غمرة العواصف .. حياة فيها شىء من السمو !

اما ما عدا هذه من عوالم ، فقـــد كان فى نظر « ايما » مضيعا ، تائها ، لا مكان له ولا وجود !

وكانت « ايما » من أولئك اللاتى يزهدن فى أقرب الأشياء اليهن .. فكلما قربت الأشياء منها ، ازدادت نفسها عنهـا ازورارا .. فكل ما يحيط بهـــا مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية ... كل هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة ، ومصادفات خاصة « تورطت » فيها .. بينما كان يمتد خلفها جميعا ـ والى ما لا نهاية ـ عالم اللذات والانفعالات !

واختلطت فى أحاسيسها لذات البـذخ المادية بمسرات القلب ، ورقى العادات برقة المشاعر .. أفلا يحتاج الحب ـ كما تحتاج نباتات الهند ـ الى تربة معينة ودرجة حـــرارة خاصة ؟ .. فالزفرات فى ضوء القمر ، والعناق الطويل ، والدموع التى تنهمر على الأيدى المستسلمة ، وحمى الجسد ، ورقة الحنان ... كل هذه أمور لا انفصـــال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات

الستائر الحريرية ، والطنافس السميكة ، وأحواض الزهور ، والاسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض ، وبريق الأحجار الكريمة ، وأشرطة أزياء الخدم !!

* * *

• **وكان** السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس ، فيعبر المدخل فى حذاءيه الخشبيين الكبيرين – اللذين يضمان قدميه العاريتين – وسترته التى تتخللها الثقوب ، وسرواله القصير الذى لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء به ! .. فاذا انتهى من عمله ، انصرف الى حيث لا رجعة له بقية النهار ، اذ ان «شارل» كان يتولى بنفسه – عند عودته – ايواء الفرس في الحظيرة ، ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل اليها الخادم حزمة من القش ترميها فى المذود كيفما اتفق !

وكانت « نستازى » قد غادرت (توست) أخيرا ، وهى تذرف الدمع مدرارا ، فاستعاضت « ايما » عنها بفتاة فى الرابعة عشرة ، يتيمة ، مليحة القسمات . وحظرت عليها لبس « الطاقية » القطنية ، وعلمتها كيف تخاطبها فى احترام ، ودربتها على ان تحمل كوب الماء فى طبق ، وان تطرق الباب قبل الدخول ، وان تكوى الثياب وتكسبها بالنشاء استواء ، وان تساعدها على ارتداء ثيابها .. كل ذلك لانها أرادت ان تجعل منها وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجديدة ان تطيع فى غير تذمر حتى لا تطرد ! .. واذ كانت السيدة قد ألفت ان تترك المفتاح فى « البوفيه » ، فان « فيليسيتيه » – الخادم – كانت فى كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها ، حين تخلو الى نفسها فى فراشها ، بعد ان تؤدى الصلاة ! .. أما فى الفترات التى كانت السيدة تلزم فيها مخدعها فى الطابق العلوى – بعد ظهر كل يوم – فكانت الفتاة تسعي أحيانا الى السياس

الموجودين فى المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث !

وكانت « ايما » فى تلك الفترات ترتدى « روب دى شامبر » مفتوحا ، تكشف قلابات صدره العريضة عن صدار ذى ثنيات وثلاثة أزرار ذهبية ، يضم أطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول ، ينتهى بكرات كبيرة ذات « شرابات » ٠٠ أما قدماها، فكانت تغيبهما فى خفين ـ « بانتوفلى » ـ فى لون الرمان ، تنتشر على سطحيهما أشرطة عريضة ٠٠

وابتاعت أوراقا للكتابة ، وأوراق نشاف ، وريشة ، ومظاريف وورقا للرسائل ، وان لم يكن ثمة من تكتب اليه !٠٠ وكانت تنفض الغبار عن الرف ، وتتطلع فى المرآة ، ثم تتناول كتابا فلا تلبث ان تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها ! ٠٠ وأخذت تتوق الى القيام برحلات ، أو الى العودة للدير كى تعيش فيه ! ٠٠ كانت تتمنى المتناقضات فى آن واحد ٠٠ ان تموت ٠٠ وان تعيش فى باريس !!

اما « شارل » ، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية ـ المفضية الى المزارع والقرى ـ تحت المطر والجليد ، يأكل « العجة » على موائد الريف ، ويدس يديه فى الاسرة الرطبة التى يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافىء المنبثق من الفصاد ، ويسمع الحشرجات ، ويفحص البطون ، ويرفع الثياب القذرة عن أجساد المعلولين ! ٠٠ **لكنه كان يجد فى كل مساء نارا مستعرة ، ومائدة معدة ، وأثاثا مريحا ، وزوجة فى أبدع زينة ، تتضوع بأريج عطر كان يحار فى التكهن بمكانه : أهو قميصها ، أم بشرتها ؟!**

وكانت تفتنه بمبتكراتها ، التى كانت تتمثل حينا فى مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حينا آخر فى ثنية تغير موضعها فى ثوبها ، أو فى اسم مبتكر للون بسيط من الطعام أخفقت الخادم فى صنعه ،

فلا يصد اخفاقها « شارل » عن التهام الصنف حتى يأتى عليه !

ورأت « ايما » فى (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلى الزائفة ، فابتاعت حليا زائفة ! ٠٠ ورأت ان تزين رف مدفأتها بآنيتى زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث ان ضمت اليهما صندوقا من العاج لأدوات الحياكة ، و « كستبانا » من العقيق ! ٠٠ **وكان « شارل » كلما ازداد عجزا عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة ، ازداد انصياعا لسحرها ، اذ كانت تضفى على حواسه لذة ، وعلى داره رواء ٠٠ وكأنها غبار ذهبى ينتثر على طول طريق حياته الضيق !**

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقا ، وشهرته مستقرة منيعة !٠٠ كان الريفيون يحبونه لانه لم يكن متغطرسا ، بل كان يداعب أطفالهم ! ٠٠ ولم يكن يغشى الحانات ٠٠ وكان فى خلقه ـ فوق ذلك ـ ما يوحى بالثقة والطمأنينة ٠٠ وقد نجح ـ بوجه خاص ـ فى علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية !٠٠ والواقع ان « شارل » كان يخشى دائما أن يقتل مرضاه ، ولذلك لم يكن يوصى لهم الا بالأدوية المهدئة للألم !!٠٠ وكان يوصى ـ بين آن وآخر ـ بشراب مقيىء ، وبحمام القدم ، وباستخدام العلق (الدود) الذى يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف فى فصدهم بالعلق فى سخاء ، وكأنهم جياد ! ٠٠ أما فى اقتلاع الأضراس ، فقد كانت له قبضة حديدية !

* * *

◆ **وحتى** يظل على دراية بما يستحدث فى الطب ، اشترك فى مجلة « الخلية الطبية » بعد ان تسلم اعلانا عنها ٠ وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب العشاء ، ولكن دفء الغرفة ، والاسترخاء الذى يدب فى الجسم أثناء عملية الهضم ، كانا لا يلبثان ان يسلماه الى النوم بعد خمس دقائق ٠٠ فيظل

مسترخيا ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل ـ كالعرف ـ حتى أسفل المصباح ، و « ايما » ترقبه ، ثم تهز كتفيها !٠٠ **لماذا لم تحظ بزوج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون فى النهاية ـ اذا ما بلغوا الستين ، سن « الروماتيزم » ـ وساما على شكل الصليب ، فوق بزاتهم السوداء ؟ ٠٠ لكم كانت تشتهى ان يغدو اسم « بوفارى » ذائعا ، وان تراه معروضا عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه فرنسا بأسرها !**

بيد ان « شارل » لم يكن يعرف الطموح أبدا !

ولقد حدث أن أهانه يوما طبيب من (ايف تو) ـ اجتمع معه للتشاور ـ أمام فراش مريض ، وعلى مسمع من أقاربه المحيطين بهما ، فلما روى الحادث لايما فى المساء ، ثارت فى حنق على ذلك الزميل الى درجة جعلت « شارل » يتأثر بالفعل ، ويقبلها فى جبينها وهو دامع العينين ٠٠ ولكنها كانت تغلى لفرط احساسها بالخزى لما ناله ، حتى لقد ودت لو تضربه !٠٠ ولكنها لم تملك الا أن تسير الى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها ٠٠ وأخذت تعض شفتها وتردد فى صوت خفيض : « **يا له من رجل مسكين ! ٠٠ يا له من رجل مسكين !** »

والواقع ان ثورتها كانت ضد زوجها بالذات ٠٠ فلقد أخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن ٠٠ كان يلهو ـ عند تناول الحلوى ـ بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة ٠٠ وكان بعد الاكل يلعق أسنانه بلسانه ٠٠ كما كان يرشف الحساء بصوت منكر ٠٠ ولما كانت البدانة قد أصابته ، فان وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينيه الصغيرتين الى أعلى نحو الصدغين !

وكانت « ايما » تسوى له أطراف صداره الحمراء فى بعض الاحيان ، وتصلح من وضع رباط عنقه ، أو تطوح جانبا



بقفازين قذرين يهم باستعمالهما ٠٠ والواقع انها لم تكن تفعل ذلك من أجله ـ كما كان يخال ـ وانما كانت تفعله من أجل نفسها ، وبدافع من اثرتها وتوتر أعصابها ! ٠٠ وكانت تحدثه أحيانا عن شيء مما تقرأ ، كفقرة من رواية أو مشهد من مسرحية جديدة أو حادث من أنباء الطبقة الراقية المنشورة في الصحف ٠٠ فقد كانت ترى انه ـ على أية حال ـ انسان ، له أذن تسمع باستمرار ٠٠ وله استعداد للموافقة دائما على ما يسمع ! ٠٠ بل انها كانت تبوح بأسرارها لكلبها ٠٠ ولحطب المدفأة ، وبندول الساعة !!

وكانت في هذه الاثناء كلها لا تنى تنتظر في أعماق نفسها حدثا ما ! ٠٠ كانت ، كالملاح المكروب ، تسرح بصرها القانط في وحشة حياتها ، بحثا عن شراع أبيض في ضباب الأفق البعيد ! ٠٠ وما كانت تدرى كنه ذلك الحدث ، ولا أي ريح ستسوقه اليها ، ولا الى أي شاطيء سيدفعها ٠٠ وهل هو زورق ، أو سفينة ذات ثلاثة طوابق ٠٠ وهل يكون مفعما بالأسى ، أو طافحا بالهناءة ! ٠٠ ولكنها كانت اذا استيقظت في

كل صباح تمنت لو يواتيها فى يومها .. كانت تنصت لكل صوت ، وتقفز ناهضة تستجليه ، ثم تشعر بصدمة لأن شيئا لم يحدث ! .. فاذا جنحت شمس اليوم للمغيب ، اشتد بها الأسى ، وراحت تتمنى لو تعجل الغد وأقبل !

ووفد الربيع مرة أخرى، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التى تهب حين تزهر أشجار الكمثرى .. حتى اذا بدأ شهر يوليو ، أخذت تعد الاسابيع على أصابعها فى ارتقاب شهر اكتوبر ، راجية أن يقيم « المركيز دى اندفيلييه » حفلا راقصا آخر فى (فوبيسار) ! .. بيد ان شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات أو زيارات !

* * *

♦ وأحست مرة أخرى ـ بعد انقضاء المرارة التى خلفتها خيبة الرجاء ـ بفراغ فى فؤادها .. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرتيبة ، التى لا تتغير ، ولا تأتى بجديد !.. لقد كان يصادف حياة سواها ـ مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة ـ حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف .. ولقد تؤدى مغامرة واحدة ـ أحيانا ـ الى سلسلة لا تنتهى من الأحداث التى تغير اطار الحياة..أما هى ، فلم يكن يصادفها شىء .. كما لو كانت تلك هى ارادة الله ! .. كان المستقبل يمتد أمامها كسرداب مظلم ينتهى بباب محكم الاغلاق !

وأهملت الموسيقى .. فلماذا تعزف ، ومنذا الذى يسمعها ؟! .. لم يكن ثمة ما يدعو الى بذل الجهد فى المران ، ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهى تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح « البيانو » العاجية فى حفل عام ، وقد ارتدت ثوبا من المخمل قصير الكمين !.. كذلك أبقت لوحات الرسم وقطع التطريز فى الصوان .. اذ ما جدواها ؟ .. وأى

نفع منها ؟ ٠٠ أما الحياكة ، فقد أصبحت تثير أعصابها ! ٠٠ حتى القراءة ، انصرفت عنها قائلة لنفسها : « لقد قرأت كل شيء ! »

وأخذت تضع الملاقط فى النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر ٠٠ وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جوفاء ! ٠٠ ولشد ما كان يجتاحها الأسى اذا ما دق الناقوس لصلاة المساء فى يوم الأحد ! ٠٠ كانت تصغى بذهن شارد الى دقات الجرس المشروخ وهى تتتابع ٠٠ بينما يخطر على سطح المبنى القائم فى مواجهتها قط أحنى ظهره لأشعة الشمس الشاحبة ٠٠ والريح تثير غيوما فوق الطريق الرئيسية ٠٠ وقد ينبعث من بعد نباح أحد الكلاب والناقوس مسترسل فى دقاته المملة ، يرسلها فى ايقاع رتيب ، فلا تلبث أن تتلاشى فوق الحقول ٠٠

ثم يخرج الناس من الكنيسة : النساء فى أحذية لامعة ، والرجال فى أقمصة جديدة ، يتقدمهم الاطفال يقفزون ورؤوسهم عارية ٠٠ ويأوى الجميع الى منازلهم فيما عدا خمسة رجال أو ستة ، كانوا دائما يظلون ـ حتى يهبط الليل ـ أمام الحانة يمارسون لعبة الفلين !

★ ★ ★

◆ ثم أقبل الشتاء قارسا ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ فى كل صباح، فيبدو ـ اذ يخترقه الضوء ـ كالزجاج « المصنفر » ٠٠ وفى ذلك الجو المتجهم ، كان لابد من اضاءة المصابيح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر ٠٠

وكانت « ايما » تهبط الى الحديقة فى الايام الرائقة ، فاذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشيا من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة الى أخرى ٠٠ ولم تكن شقشقة العصافير تتردد ، بل كان كل شيء يبدو مخلدا الى النوم ، والعرائش مكسوة بالقش ، والكروم تمتد ـ كثعبان كبير مريض ـ تحت أقبية الجدران ، حيث يرى الانسان ـ اذا ما اقترب ـ الخنافس وهى تزحف !٠٠ والى جوار السياج من ناحية غابة الصنوبر كان تمثال القس ذى القلنسوة ماضيا فى قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قرحا بيضاء !

ولا تلبث « ايما » أن تصعد الى مخدعها فتغلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث فى نفسها مللا تخاله ثقلا فادحا يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم ، لولا أن يمنعها الحياء !

وفى ساعة معينة من كل يوم ، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله .. ويمر حارس الحقول حاملا سيفه فوق قميصه .. وكانت خيل البريد تعبر الشارع - فى الصباح والمساء - ثلاثة ، ثلاثة ، تسعى الى البركة لترتوى .. ومن وقت الى آخر ، يصلصل جرس باب احدى الحانات .. فاذا هبت الريح ، انبعث صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبى حانوت الحلاق ، الذى كانت كل زينته تتمثل فى صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة ، وتمثال نصفى من الشمع لامرأة ذات شعر أصفر زاه . وكان صاحب هذا الحانوت يندب - هو الآخر - موهبته التى تعطلت ، ومستقبله الذى ضاع .. ويحلم بحانوت فى بلد كبير مثل (روان) ، يقوم الى جوار المسرح ، مطلا على الميناء ! .. وكان يقضى نهاره يتمشى جيئة وذهابا بين دار البلدية والكنيسة ، يرتقب العملاء فى اكتئاب .. فكلما أطلت مدام « بوفارى » ألفته فى سيره هذا كديدبان فى نوبته ، وقد ارتدى سترة العمل التى لا يغيرها ، وقلنسوة يونانية !

وكان يبرز - فى أويقات العصر أحيانا - رأس رجل وراء زجاج البهو .. رأس لفحته الشمس ويزينه شاربان أسودان ، وقد أخذت أساريره تنفرج فى تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن أسنان بيضاء .. ثم تبدأ رقصة - على نغمات « الفالس » المنبعثة من أرغن يديره الرجل - فى صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الأصبع ! .. راقصون بينهم نساء بعمائم وردية ، ورجال من أبناء « التيرول » فى معاطفهم التقليدية ، وقردة فى ملابس سوداء ، ورجال فى سراويل قصيرة .. يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد ، وتنعكس حركاتهم مرارا فى مرايا التصق بعضها الى بعض بشريط من ورق مذهب . وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره يمنة ويسرة ، ثم يتطلع الى النوافذ .. وكان يرفع آلته - من وقت الى آخر - بركبته ، بعد أن تعيى كتفه حمالتها الغليظة ، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بنى اللون على أحجار الطريق .. والموسيقى الحزينة المتباطئة - تارة - والمرحة السريعة - تارة أخرى - تنبعث من صندوقه خلال ستارة من «التافتاه» وردية اللون ، علقت بمشجب نحاسى ذى زخرف عربى .. وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، أو فى الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها فى السهرات ، وتحت الثريات المتلألئة .. فكانت بمثابة أصداء تصل الى « ايما » من المجتمعات الراقية التى تهفو اليها ! .. وفى مخيلتها ، كانت

تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهى ! ٠٠ وكان تفكيرها يقفز مع النغمات - كالراقص فوق بساط من زهور - متنقلا من حلم الى حلم ٠٠ ومن شجن الى شجن !

وكان الرجل - بعد أن يتلقى فى قلنسوته ما يجود به أهل الشارع من صدقات - يطرح فوق الارغن غطاء قديما من الصوف الازرق ، ثم يحمله على ظهره وينصرف فى خطى ثقيلة ٠٠ و « ايما » ترقبه وهو يبتعد !

وكان جلدها يغدو أقرب ما يكون الى النفاد والانهيار فى أوقات الوجبات ، فى تلك القاعة الصغيرة بالطابق الارضى ، حيث الموقد الذى لا ينفك عن ارسال الدخان ، والباب الذى يبعث صريرا ، والجدران المنداة ، والارضية الرطبة ٠٠ كان يخيل لها اذ ذاك أن مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها !٠٠ ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الاعياء والضيق ! ٠٠ ولما كان « شارل » بطيئا فى الأكل ، فقد كانت تنفق الوقت فى قرض بندقة ، أو تعتمد بمرفقيها على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفرش !

وأصبحت تهمل كل شىء فى دارها ٠٠ فلما أقبلت مدام « بوفارى » الأم الى (توست) لتقضى بضعة أيام أثناء الصوم ، راعها هذا التغير ٠ فان « ايما » ، التى كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ، حريصة على أناقتها ، أصبحت تمكث أياما بطولها دون أن ترتدى ملابس زينتها ، وهى تروح وتغدو فى جوربين رماديين من القطن ٠٠ كما أصبحت تقتصر على استخدام الشموع فى اضاءة البيت ، مرددة ان لابد من الاقتصاد لأنهم ليسوا من أهل الثراء ! ٠٠ وكانت تضيف الى هذا انها سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضى ، وان (توست) تروق لها ٠٠ وأمثال هذه العبارات الجديدة التى كانت تغلق فم حماتها عن اللوم !

على ان « ايما » أضحت - الى جانب ذلك - تبدى عدم استعداد لتقبل ارشادات حماتها ! ٠٠ وقد حدث مرة ان بدا لمدام « بوفارى » الأم أن تشير الى ان من واجب المخدومين أن يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين ، فاجابتها « ايما » بنظرة تتقد غضبا ، وابتسامة تفيض برودا ، مما حدا بالسيدة الى أن تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !

وأصبحت « ايما » حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الاطوار ٠٠ فهى تطلب ألوانا معينة من الطعام ثم لا تقربها ٠٠ وقد تصر يوما على أن لا تتناول سوى اللبن الصافى ، ثم تقبل فى اليوم التالى على شرب عشرات من أقداح الشاى !٠٠ وكانت تقرر أحيانا عدم الخروج ، فتضيق أنفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدى ثوبا خفيفا !٠٠ وكانت تعنف مع الخادم ، ثم لا تلبث ان تسترضيها بالهدايا ، أو ترسلها للنزهة لدى

الجيران !٠٠ كذلك كانت أحيانا تقذف للفقراء بجميع ما فى كيسها من نقود فضية ، رغم انها لم تكن يوما رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين !

★ ★ ★

◆ وحوالى نهاية شهر فبراير ، حمل الأب « روو » ـ بنفسه ـ الى صهره ديكا زوميا بديعا ، رمزا لذكرى شفائه ، وأقام فى (توست) ثلاثة أيام ٠ واذ كان « شارل » فى تلك الاثناء مشغولا بمرضاه ، فقد بات على « ايما » وحدها عبء مصاحبته ، فأمضها منه انه كان يدخن فى الغرفة ، ويبصق فى المدفأة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والابقار والدجاج والمجلس البلدى ٠٠ حتى لقد عجبت من نفسها اذ أحست بشعور من الارتياح يداخلها حين اغلقت الباب خلفه عقب رحيله !٠٠ والواقع انها لم تعد تتحرج من ان تبدى احتقارها لشىء أو ازدراءها لأحد ٠٠ وكانت تصدر عنها أحيانا آراء غريبة ، فتنتقد ما يرضاه الناس ، وتحبذ أمورا لا تستقيم مع الاخلاق ، الامر الذى كان يترك زوجها مذهولا !

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : أيلازمها هذا البؤس أبد السنين ؟!٠٠ او ليس هناك من مخرج ؟!٠٠ انها لا تقل عن اولئك اللائى يعشن فى سعادة ٠٠ بل لقد رأت فى (فوبيسار) دوقات اسوأ منها قواما ، واقل رقة وتهذيبا !٠٠ وأخذت تسخط على ظلم الاقدار ٠٠ وتسند رأسها الى الجدران لتبكى !٠٠ كانت تحسد اولئك الذين يحظون بحياة صاخبة ، ويقضون الليالى فى حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التى يثير سماعها فى نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها الى الشحوب ، واضطربت دقات قلبها ، فأعطاها « شارل » دواء يهدىء أعصابها ، ووصف لها حمامات الكافور ٠٠ ولكن محاولاته لم تزدها الاهياجا !٠٠ وكانت فى بعض الأيام تثرثر فى فيض محموم ، ثم لا يلبث ان يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجىء ، لا تنطق خلاله بلفظ ، ولا تأتى بحركة ٠٠ ولم يكن ينعشها اذ ذاك سوى زجاجة من ماء « الكولونيا » تسكبها على ذراعيها !

واذ أخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع ، فقد حدس « شارل » ان مرضها ناشىء عن سبب محلى ، ورسخ فى نفسه هذا الرأى ، حتى انه أخذ يفكر جديا فى ان يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه ٠٠

ثم عمدت الى شرب الخل لتزداد نحافة ، فأصيبت بسعال بسيط جاف ، وفقدت شهيتها الى الطعام تماما !٠٠ وكان يعز على « شارل » ان يرحل عن (توست) بعد أن أقام بها أربع سنوات توطد خلالها مركزه ٠٠ ولكنه مع

ذلك لم يلبث ان خضع لأحكام الضرورة ، عندما صحبها الى استاذه القديم فى (روان) ، فتبين - بعد أن فحصها - انها تعـــانى من مرض عصبى ، لا بد لعلاجه من أن تبدل الجو الذى تعيش فيه !

وأخذ « شارل » يتحرى هنا وهناك ، حتى علم أن فى مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (ايونفيل - الدير) غادرها طبيبها - وكان من البولنديين اللاجئين - منذ أسبوع ، فكتب الى صيدلى القرية يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التى تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب ، وعن الدخل الذى كان يصيبه سلفه فى العام ٠٠ الخ ٠ ووجد فى الرد - حين جاءه - ما أرضاه ، فقـرر أن ينتقل الى تلك القرية فى الربيع التالى ، اذا ظلت صحة « ايما » دون ما تحسن !

وفيما كانت « ايما » تستعد للسفر ، أصيب احد أصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها ، وهى ترتب أحد الادراج ذات يوم ٠ كانت براعم البرتقال - فى الباقة - قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، واخذت الاشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل ٠٠ ولم تحجم « ايما » عن القاء الباقة فى نار المدفاة ، فاذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف ٠٠ ومالبثت النيران أنالتهمتها، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الاسلاك ، وانصهرت الاشرطة المعدنية ، وتيبست اوراق الزهر الصناعى ٠٠ ثم أخـذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الاسود ٠٠ وما لبثت ان تطايرت خلال المدفأة !

وعندما غادر الزوجان (توست) فى شهر مارس ، كانت مدام «بوفارى»حاملا!!



الفصل الأول

• **أخذت** قرية (ايونفيل ـ الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين ، لم يتبق منه حتى الاطلال ٠٠ وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان) ، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه) ، عند نهـــاية واد يرويه نهر (الريبول) ٠٠ وهو فرع صغير يصب فى نهر (الانديل) بعد أن يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه ٠ وبه بعض السمك من نوع « البلطى » يصيده الغلمان بالشص فى أيام الآحاد ٠٠

فاذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسيير) ، مضى فى طريق مستوية حتى يصل الى أعلى هضبة (لو) ، حيث يشرف على الوادى ٠٠ ويشق هـذا الوادى نهر يشطره الى قسمين مختلفى المعالم ٠٠ فالشطر الممتد على الضفة اليسرى

كله مراع ، فى حين ان الشطر المترامى على الضفة اليمنى كله حقول ·· وتمتد المراعى تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل فى أقصاها بمراعى مقاطعة (بريد) ، بينما يصعد السهل فى رفق من الناحية الشرقية ، ثم يأخذ فى الاتساع ·· وتمتد على مرامى البصر حقول القمح الشقراء ، والماء يجرى فى خط أبيض يفصل بين المروج من ناحيــــة ، والأرض المزروعة من ناحية أخرى ·· وكأن المنظر ـ فى مجموعه ـ عباءة كبيرة بسطت أمامك ياقتها التى صنعت من مخمل أخضر حف بشريط من فضة

وعند نهاية الأفق ، تبدو للرائى أشجار البلوط فى غابة (ارجى) ، ومرتفعات هضبة (سان جان) ، تتخللها ـ فى خطوط تمتد من أعلى الى أسفل ـ مسارب طويلة حمــــراء غير متساوية من آثار المطر ·· أما اللون الأحمر الذى يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادى ، فناشىء عن توفر مادة الحديد ، التى تفيض بها العيون العديدة المتناثرة فى المنطقة المحيطة ··

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورماندیا) و (بیکاردیا) و (لیل دی فرانس) ·· مقاطعة تضم سكانا من عناصر شتى، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة ، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص ! ·· وهناك أيضا تصنع أردأ أنواع الجبن الذى يصنع فى مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها ·· فضلا عن ان الزراعة فى هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة ، لأنها تحتاج الى كثير من الأسمدة لتخصب تلك التربة الهشة المليئـــة بالرمل والحصى ··

ولم يكن فى هذه المنطقة ـ حتى ســـنة ١٨٣٥ ـ طريق ممهد يفضى الى (ايونفيل) · بيد ان طريقا ريفيا فرعيا انشىء فى ذلك العام ، فوصل بين طريقى (أبفيل) و (أميان) ،

وأصبحت تجرى عليه أحيانا عربات النقل الذاهبة من (روان) الى (الفلاندر) ..

* * *

◆ على ان (ايونفيل ـ الدير) ظلت على حالها ، بالرغم من الاصلاحات الجديدة . **فبدلا من ان ينشط أهلها لتحسين الزراعة بها ، ظلوا متشبثين بالمراعي على انخفاض دخلها وقيمتها . وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل ، وتتبع في اتساعها مجرى النهر ، حتى ان الرائى يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقر يقيل على حافة الماء !**

وفى نهاية جسر مقام على النهر ـ فى أسفل الهضبة ـ يمتد طريق تحف بجانبيه أشجار الحور الصغيرة ، يفضى بك مباشرة الى طليعة منازل القرية .. وهى بيوت تحيط بها أسوار ، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الأشجار المتشابكة التى تستند اليها سلالم متنقلة ، أو تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمناجل ..

وكانت الاسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها ، اذ كانت تكاد تخفى ثلث النوافذ المنخفضة ، التى كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه فى عقدة كقاع الزجاجة .. وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتى تمتد بين زواياها المتقابلة أعمدة خشبية سوداء ، كنت ترى أحيانا شجرة من شجرات الكمثرى الهزيلة .. وعند الباب الخارجى لكل دار ، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذى يتسلل الى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع فى نبيذ التفاح ! .. وكلما تقدمت فى السير نحو القرية ، صغرت أفنية الدور ، وتقاربت المبانى

واختفت الحواجز بينها .. وقد ترى هنا حزمة من نبات « السرخس » تهتز فى نهاية عصا مكنسة تحت احدى النوافذ .. وهناك حانوت بيطار ، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة .. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد أمامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال « كيوبيد » واحدى أصابعه على شفتيه .. والى جانبى قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس .. وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن ان هذا بيت موثق العقود .. أجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، يحتضنها سياج فى ارتفاع صدر الانسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى أصبحت الأحجار القديمة فى مستوى الأرض ، تؤلف فيما بينها رصيفا طويلا ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه الى مربعات .. وكان مبنى الكنيسة قد جدد فى عهد شارل العاشر ، فأخذ سقفها الخشبى يبلى عند قمته .. وفى المكان المخصص للأرغن ـ فوق الباب ـ أقيمت شرفة للرجال ، تؤدى اليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الأقدام فى نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذى ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط فى انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التى زينت ـ هنا وهناك ـ بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة « مقعد السيد فلان » . وعلى مسافة قليلة ، يضيق دهليز الكنيسة ، ثم يقوم كرسى الاعتراف الى أحد الجانبين ، والى الجانب الآخر تمثال للعذراء فى ثوب من الحرير ، وعلى رأسها نقاب من التل مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر كما لو كانت وثنا من أوثان جزر «سندويتش» !! .. وأخيرا ، تطل على المذبح المرتفع صورة « الاسرة المقدسة

ـ مهداة من وزير الداخلية » ، بين أربعة شمعدانات • أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت بلا طلاء !

★ ★ ★

◆ **وكانت** السوق ـ أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عامودا تقريبا ـ تشغل حوالى نصف الميدان العام فى « ايونفيل » •• اما دار البلدية ـ التى شيدت وفقا لرسم أعده مهندس من باريس ـ فكانت تشبه معبدا اغريقيا ، وترسم مع حانوت الصيدلى شكل زاوية • وكانت فى الطابق الأرضى ثلاثة أعمدة يونانية •• وفى الطابق الأول بهو نصف دائرى تعلوه قبة يشغلها تمثال «ديك الغال» ، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور ، بينما أمسك بقدمه الاخرى ميزان العدالة !

على ان أكثر ما كان يسترعي الانتباه ، هو صيدلية السيد « هوميه » التي تقع فى مواجهة فندق « الأسد الذهبى » •• لا سيما فى المســاء حين يضاء المصباح فيرسل أشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء ، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضــوء الملون •• وخلال هذا الضــوء كان طيف الصيدلى وهو متكىء الى مكتبه يبدو كما لو كان غارقا فى أضواء الصواريخ ! •• وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت بخط اليد أو بالحروف الكبيرة أو بحروف الطباعة : « مياه فيشى، وسلتزر ، وباريج •• ومنقيات الدم •• وعقار راسبيل •• والمزيج العربى •• و « باستيليا » دارسيه •• وبلسم رينيو •• وأربطة •• وكمادات •• وشيكولاته » •• الخ • وفى مؤخرة الحانوت ، وخلف النضد الذى حمل الميزان الكبير كانت كلمة « المعمل » تبدو على باب زجاجى تكرر على وسطه اسم « هوميه » بحروف ذهبية ، فوق رقعة سوداء !

ولم يكن ثمة ما يشاهد فى « ايونفيل » عدا ذلك ، فان الشارع الأوحد ـ الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف

النارى والذى تقوم الحوانيت على جانبيه ـ كان لا يلبث ان ينتهى عند منعطف الطريق الزراعى ٠٠ فاذا خلفه المرء وانحرف الى اليمين في محاذاة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل الى المقابر ٠٠ وكان القوم ، عندما تفشت « الكوليرا » ، قد هدموا جانبا من جدارها ، وضموا اليها بضعة أفدنة لتوسيعها ، بيد ان القطعة الجديدة بقيت شبه خالية ، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل ٠ وقد استغل الحارس ـ الذى كان فى الوقت ذاته شماسا ، مما مكنه من مضاعفة الافادة من موتى الابروشية ـ بقاء هـذه الارض على حالها ، فراح يستنبت البطاطس فيها ٠ بيد ان حقله الصغير أخذ يضيق سنة بعد أخرى ، الى ان تفشى الوباء ، فلم يعد يدرى : أيبتهج لكثرة المرضى ، أم يحزن لامتداد المقابر ؟! ٠٠ ولقدقال له القس يوما : «انك تعيش على الموتى يا لستيبودوا » ، فحملته هذه الملاحظة الكئيبة على التفكير ، وصدته زمنا عن حقله ٠٠ ولكنه ما زال حتى اليوم ـ (أى حتى كتابة هذه القصة) ـ يواصل زراعة بطاطسه ، بل ويزعم فى صفاقة انها تنمو من تلقاء ذاتها !

ولم يتغير شيء فى « ايونفيل » منذ الأحداث التى سنرويها ٠٠ فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصفيح ، يدور فوق برج الكنيسة ٠٠ وما زالت ترفرف على متجر الاقمشة رايتان من البفتة ٠٠ والأجنة التى يحتفظ بها الكيميائى محنطة كحزم الصوفان الأبيض آخذة فى التحلل يوما بعد يوم فى كحولها المعكر !٠٠ وما زال تمثال الاسد الذهبى الحائل اللون يجثم على الباب الأمامى للفندق ، يطالع المارة بلبده الشبيه بفروة الكلب !

* * *

وفى المساء الذى كان مقدرا ان يصل فيه « بوفارى »

وزوجتـــه الى « ايونفيل » ، كانت الارملة « لوفرانســـوا » ـ صاحبة الفندق ـ كثيرة المشاغل الى حد ان العرق أخـذ ينضح منها فى قطرات كبيرة وهى تروح وتغدو بآنيـة المطبخ ! .. كان اليوم التالى هو يوم السوق ، ولا بد من ان تقطع اللحم مقدما ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة . كما كان عليها ـ فوق ذلك ـ ان تجهز للنزلاء غداءهم ،وان تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء .. وكانت تتردد فى قاعة « البلياردو » ضحكات صاخبة ، وفى غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون فى طلب الخمر ! .. وكانت النار تتأجج فى خشب الموقد ، والآنية النحاسية تئز فوقها بعد ان بدأت محتوياتها فى الغليان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهـتزاز اللوحة التى كانت « السـبانخ » تقطع فوقها .. ومن فناء المبنى كانت تنبعث صـيحات الدجاج الذى كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه !

ووقف بجوار المدفأة ـ يدفىء ظهره ـ رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدرى ، وقد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات « شرابات » ذهبية .. **ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم الا الرضى عن نفسه ، وقد بدا انه يطمئن الى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه .. كان ذلك الرجل هو : الصيدلى !**

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفندق : « ارتميز .. شقى بعض الخشب ، واملأى الدوارق ، واحضرى بعض الخمر ، وأيقظى حواسك .. آه ، لشد ما أنا حائرة فى اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسـيو هوميه ! .. يا للسماء الرحيمة ! .. هاهم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم فى غرفة « البلياردو » بعد ان تركوا عربتهم أمام الباب ! .. ان « العصفورة » ـ (اسم عربة) ـ قد تصطدم

بها اذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها الى الحظيرة •• تصور يا مسيو هوميه انهم لعبوا نحو خمسة عشر دورا منذ الصباح، وشربوا ثمانى قنينات من نبيذ التفاح ! •• انهم يوشكون ان يمزقوا كساء منضدة البلياردو » !

وأخذت تتأملهم عن كثب ، بينما أجاب السيد هوميه : « لن يكون الضرر كبيرا ، فانك مسوقة حتما الى شراء غيرها » !

فهتفت الارملة مأخوذة : « منضدة أخرى للبلياردو ؟ »

ـ اجل ، اذ ان هذه أوشكت ان تتداعى يا مدام «لوفرانسوا» •• اننى اكرر ما قلت من قبل ، فانك تؤذين نفسك ابلغ ايذاء ! •• ثم ان اللاعبين يطلبون الآن جيوبا ضيقة وعصيا ثقيلة للبلياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسى الآن •• لقد تغير كل شيء ! يجب ان يجارى المرء الزمن ! •• الا انظرى الى تلييه ! »

واحمر وجه صاحبة النزل استياء ، بينما استطرد الصيدلى : « لك ان تقولى فيه ما شئت ، ولكن « بلياردة » خير من « بلياردك » ، ولو ان أحدا فكر فى ان ينظم مباراة من أجل اغاثة بولندا ، أو ضحايا الفيضان فى ليون ! •• »

فقطعت عليه صاحبة النزل حديثه قائلة ، وهى تهز كتفيها السمينتين : « ان الصعاليك امثاله لا يزعجوننى •• على رسلك يا مسيو هوميه ! •• لسوف يفد الناس على فندق « الأسد الذهبى » طالما ظل على قيد الوجود •• ليس لدينا ما يدعو الى القلق ، فى حين انك لن تلبث ان ترى فندق « المقهى الفرنسى » يوما مغلقا ، وقد سمرت أبوابه » ! •• واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : « أغير « بلياردى » ! •• المائدة التى اعتمد عليها فى طى الغسيل ، والتى هيأت فوقها فراشا لستة نزلاء فى موسم الصيد ! •• ولكن ذلك المتسكع « هيفير » لم يصل بعد •• »

ـ أوترجئين تقديم العشاء لنزلائك حتى وصوله ؟

ـ وهل أملك هذا ؟ •• ماذا يفعل السيد بينيه ؟ •• ما ان تشرع الساعة فى اعلان السادسة حتى تراه مقبلا ، فليس له مثيل تحت الشمس فى دقة المواعيد ! •• ولا بد من ان يكون مقعده معدا فى قاعة الجلوس الصغيرة ، فانه يؤثر الموت على ان يتناول العشاء فى أى مكان آخر •• وهو حريص على الدقة ، شديدالعناية باختيار شرابه ! فهو ليس مثل كالسيد ليون الذى يفد أحيانا فى السابعة ، بل وفى السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم اليه من طعام •• ما أظرفه ! •• انه ما تلفظ مطلقا بكلمة نابية ! »

ـ لا أشك فى انك تدركين ان ثمة فارقا شاسعا بين الرجل المثقف وبين جندى متقاعد أصبح يعمل محصلا !

★ ★ ★

• **ودقت** الساعة مؤذنة بالسادسة ، فدخل « بينيه » •• كان يرتدى « ردنجوت » أزرق يستوى على جسده الناحل فى استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت الى رأسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثرا عليه ! •• وكان يرتدى كذلك صدارا أسود وياقة من الفرو وسروالا رماديا •• ثم حذاءين بالغى النظافة ، يتنقل بهما طوال العام ، وقد برز فى جانبيهما نتوءان يشيان بموقعى اصبعى قدميه الكبيرتين ! •• ولم تكن ثمة شعرة واحدة فى سوالفه تشذ عن النظام ! •• وقـــد كانت هذه السوالف تستطيل الى فكيه على نمط العشب الذى يحيط بالحديقة ، محتضنة وجهه الجامد الطويل ، ذى العينين الصغيرتين والأنف المعقوف •• وكان بارعا فى جميع الألعاب ، ماهرا فى الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها فى غيرة الفنان وأنانية

الثرى ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

ويمم شطر قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن ٠٠ كان لا بد من اخراج الطحانين الثلاثة منها أولا ! ٠٠ وظل بينيه صامتا فى مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذى استغرقه اعداد المائدة ، حتى اذا تم ذلك ، أغلق الباب وخلع قلنسوته جريا على عادته !

وما ان خلا الصيدلى الى صاحبة النزل ثانيـــة ، حتى بادر قائلا : « ما كان القاء التحية لينقص شيئا من لسانه ! »

فأجابته : « انه لا يتكلم قط أكثر مما تدعو اليه الضرورة ٠ لقد كان لدينا فى الاسبوع الماضى نزيلان من تجار الأقمشة ٠٠ وكانا مرحين ، ظلا يرويان لنا فى المساء من الفكاهات ما جعلنى أبكى من كثرة الضحك ٠٠ بينما كان هو قابعا كالسمكة ، فلم ينبس قط ببنت شفة » !

قال الصيدلى : « أجل ٠٠ لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شىء مما يكون رجل المجتمع »

فقالت محتجة : « ومع ذلك ، فانهم يقولون ان له أصدقاء ومجالس » !

ـ مجالس ! ٠٠ مجالس ! ٠٠ من المحتمل ان تكون على شاكلته !

وما لبث ان استطرد قائلا : « اننى ادرك ان التاجر ذا الصلات الواسعه ، والقنصل ، والطبيب ، والصيدلى ، يجدون من أعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم ، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الاطوار ، أو جافا ٠٠ ان التاريخ حافل بقصص هؤلاء ٠ ولكن المهم ان عذرهم فى هذا راجع الى ان لديهم ما يشغل تفكيرهم ٠٠ فأنا مثـلا كثيرا ما أبحث عن قلمى على المـكتب لأدون تذكرة ، فلا ألبث ان أتبين فى النهاية اننى وضعته خلف أذنى ! ٠٠ »

وفى تلك اللحظة ، سارت مدام « لوفرانسوا » الى الباب

لترى اذا كانت العربة المرتقبة ـ « العصفورة » ـ مقبلة ٠٠ ولكنها أجفلت اذ ولج المطبخ فجأة رجل فى ثياب سوداء ٠٠ وكان فى وسع المرء ان يتبين على ضوء آخر فلول الغسق ، ان له وجها متوردا ، وجسما رياضيا ٠٠

وسألته ربة النزل وهى تتناول من فوق المدفأة أحد الشمعدانات النحاسية التى كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : « أية خدمة أملك ان اؤديها لك يا سيدى القس ٠٠ هل لك فى تناول شراب ما ؟ ٠٠ جرعة من نبيذ « كاسى » الأسود ؟ ٠٠ أو زجاجة من النبيذ الأحمر ؟! »

وهز رجل الدين رأسه فى أدب بالغ ، وقال انه جاء من اجل مظلته التى نسيها منذ أيام فى دير « ايرنمو » ٠ وبعد ان سأل مدام « لوفرانسوا » ان تعمل على ارسالها اليه فى دار « الخورى » فى المساء ، انصرف الى الكنيسة التى كان ناقوسها يدق مؤذنا بصلاة المساء ٠٠

وما ان اطمأن الصيدلى الى انه لم يعد يسمع وقع قدمى القس فى الميدان ، حتى ابدى رأيه فى مسلكه فوصفه بأنه ناب ! ٠٠ فقد بدا رفضه ـ فى رأى الصيدلى ـ أبغض ألوان الرياء ، **اذ ان كل القساوسة يحتسون الخمر فى الخفاء ، ويحاولون ان يستعيدوا الأيام التى كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها !**

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة : « انه رغم قولك يستطيع ان يطوى أربعة من أمثالك على ركبته ! ٠٠ لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف فى العام الماضى ، فبلغ من قوته انه كان يحمل ستا من الحزم فى آن واحد » ! ٠٠

فهتف الصيدلى : « **مرحى ! ٠٠ ارسلوا بناتكم اذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف ! ٠٠ لو اننى كنت فى مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة فى كل شهر ٠٠ أجل**

يا مدام لوفرانسوا ٠٠ فى كل شهر ٠٠ وقصدا جيدا ، فى سبيل مصلحة البوليس والأخلاق » !!

ـ كف عن هذا يا مسيو هوميه ، فأنت كافر ، لا دين لك !

فأجاب الصيدلى : « بل لى دين ٠٠ دينى الخاص ٠٠ وان لدى من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعا ، رغم نفاقهم ودجلهم ٠٠ **اننى على العكس أعبد الله ٠٠ أؤمن بالكائن الأعلى ٠٠ أؤمن بوجود خالق ، كيفما يكن كنهه ٠٠ ومهما يكن هذا الخالق الذى أوجدنا هنا لنؤدى واجباتنا كمواطنين وأرباب اسرات ٠٠ ولــكنى في غير حاجة لأن أذهب الى الكنيسة لأقبل أطباقا فضـــية ، ولأسمن من مالى رجالا لا يصلحون لشىء ولا نفع منهم ، ويحظون بمعيشة أنعم مما نحظى ! ٠٠ ان المرء ليستطيع ان يهتدى الى الله فى غابة ، أو فى حقل ، أو حتى بمجرد تأمل قبة الاثير ، كما كان القدماء يفعلون ! ٠٠ ان الهى هو اله ســقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه ! ٠٠ اننى من أنصار الايمان الذى دعا اليــه « قس سافوا » (١) ٠٠ ومن المؤمنين بمبادىء ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة ! ٠٠ ولا أستطيع ان اعبد الها مزعوما ، يسير فى حديقته وعصاه فى يده ، ويودع أصدقاءه أجواف الحيتان ، ويموت صارخا ، ثم يبعث بعد ثلاثة أيام ! ٠٠ هذه جميعا ـ فى حد ذاتها ـ سخافات ، تناقض تماما كل قوانين الطبيعة ٠٠ وفى هذا ما يوضح لنا ـ ضمنا ـ كيف ان القسس ظلوا دائما متشبثين بجهل صلد لا يلين ، يحاولون ان يدفنــوا البشر معهم فى جوفه » !!**

وأمسك عن الكلام ، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل

---

(١) يشير الى فصل فى كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وفيه يقود القس تلميذه اليافع الى أعلى جبال « سفوا » ليحدثه عن الله والايمان ، فى غمرة من جلال الطبيعة

جمهورا يحيط به ٠٠ فقد ظن الصيدلى فى انفعاله انه فى قاعة المجلس البلدى ! ٠٠ على ان ربة النزل لم تكن تنصت اليه ، بل أصاخت بسمعها تحاول ان تستبين صوتا انبعث عن بعد ، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض ٠٠ وما لبثت « العصفورة » ان وقفت أمام الباب أخيرا !

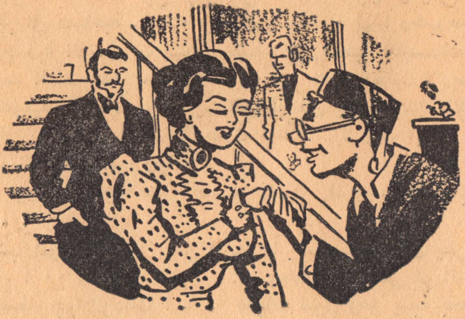
* * *

◆ **كانت** « العصفورة » تتكون من صندوق أصفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما الى مستوى سقفه ، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق ، ويلطخان أكتافهم بالقاذورات ! ٠٠ وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز فى اطاراته اذا ما اغلقت أبوابها ٠٠ فضلا عن انها كانت ملطخة - هنا وهناك - ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع أمطار العواصف ان تزيلها تماما ٠٠ وكان يجرها ثلاثة جياد ، ربط أولها أمام زميليه ٠٠ وعند انحدارها من المرتفعات ، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجا شديدا !

وأقبل على الميدان عدد من أهالى « ايونفيل » ، أخذوا يتكلمون معا فى آن واحد : يتساءلون عن الأخبار ، ويستفسرون عن سلال الهدايا ٠ ولم يكن « هيفير » - السائق - يدرى أيهم يجيب أولا ، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان) ، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الاحذية ، والحديد للبيطار ، وبرميل « الرنجة » لمخدومته - ربة النزل - والقبعات من صانعها ، والشعور المستعارة من الحلاق ٠٠ وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد ، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الاسوار صائحا بملء فيه ، والخيل ماضية !

وكان تأخره فى العودة راجعا الى حادث بسيط ، فقد

هربت كلبة مدام « بوفارى » فى الحقول ، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها .. بل ان « هيفير » رجع مسافة نصف الفرسخ أملا فى العثور عليها ، متوهما فى كل لحظة انه قد لمحها !.. وبكت « ايما » ، وسخطت ، واتهمت « شارل » بأنه كان السبب . وقد حاول السيد « ليريه » - تاجر الاقمشة الذى كان يرافقهما فى العربة - أن يواسيها ، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم « اهتدت » الى أصحابها بعد سنوات طويلة! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد الى باريس من القسطنطينية !.. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلا فى خط مستقيم ، وعبر أربعة أنهار سباحة !.. وتمادى فذكر لها ان اباه كان يملك كلبا فقده اثنى عشر عاما ، ثم فوجىء به يقفز على ظهره ذات مساء ، وهو فى طريقه لتناول العشاء فى المدينة !!



الفصل الثانى

◆ كانت « ايما » اول من هبط من العربة ، وتبعتها « فيليسيتيه » ، فالسيد « ليريه » ، فمرضعة .. واضطروا الى أن يوقظوا « شارل » الذى كان قد استسلم فى ركنه لنوم عميق ، مذ أرخى الليل سدوله !

وقدم « هوميه » نفسه ، مزجيا احتراماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معربا عن شدة اغتباطه اذ اتيح له ان يؤدى لهما بعض الخدمات .. واضاف فى لهجة الصديق انه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما ، اذ ان زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دلفت مدام « بوفارى » الى المطبخ ، اقتربت من الموقد ، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيهـــا ، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الأسودين نحو اللهب ، فوق « الفخـذة » التى كانت تئز ، فاذا اللهب يضىء كل كيانها ، ويتغلغل نوره فى نسيج ثوبها ، ومسام جلدها البض الاملس ، بل وفى جفون عينيها اللتين أخـذت تغمضهما من وقت لآخر ! .. ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجا دافئا هب عليها .. وكان ثمة شاب أشقر يرقبها فى صمت من الجانب الآخر للمدفأة ..

كان السيد « ليون ديبوى » ـ الشاب الاشقر ـ ثانى النـزلاء الدائمين فى « الأسد الذهبى » ، وقد اعتاد ان يؤخر تناول عشائه فى كل مساء على أمل ان ينزل بالفندق مسافر يستطيع ان يجاذبه الحديث ، اذ اشتد به الســـأم فى «ايونفيل» حيث كان يعمل كاتبا لدى الأستاذ «جويومان» موثق العقود .. غير

انه لم يكن يملك ـ اذا ما فرغ مبكرا من عمله ـ سوى ان يعود الى الفندق ، ومن ثم يضطر الى مصاحبة « بينيه » طوال العشاء . لهذا رحب مغتبطا فى تلك الليلة باقتراح ربة الفندق ان يتناول عشاءه فى صحبة القادمين فى القاعة الكبرى ، حيث افتنت مدام « لوفرانسوا » فى اعداد المائدة لأربعة أشخاص !

وأبدى « هوميه » رجاءه فى أن يسمحوا له بان يظل مرتديا طاقيته الاغريقية خشية « الانفلونزا » ، ثم التفت الى جارته قائلا : « لا ريب فى أن السيدة متعبة فان « عصفورتنا » ترج المرء رجا »

وأجابت « ايما » : « هذا حق ، بيد ان السفر يلذ لى ، فأنا أحب التنقل من مكان لآخر » !

وتنهد كاتب الموثق قائلا : « من أبشع ما يسقم النفس ان يظل المرء مرتبطا بمكان واحد » ! .. فسأله « شارل » : « وماذا كنت تفعل لو انك كنت مثلى مضطرا الى امتطاء جوادك دائما ؟ » .. فأجاب ليون وهو يتجه بحديثه الى مدام « بوفارى » : « ولكننى لا أرى شيئا امتع من هذا ، لو كان فى امكان المرء .. »

وهنا قال الصيدلى : « على ان ممارسة الطب ليست بالغة المشقة فى هذا الجزء من العالم ، اذ ان طرقنا تسمح باستخدام العربات .. ولما كان المزارعون فى حالة من اليسر ، فانهم يدفعون بسخاء عادة !.. ومن الناحية الطبية لدينا ـ فضلا عن الحالات العادية كالتهاب الاعصاب والنزلات الشعبية والامراض الناشئة عن الصفراء ... الخ ـ بعض الحميات المتقطعة التى تظهر من وقت الى آخر فى موسم الحصاد . وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة أحوال خاصة تستدعى الانتباه اللهم الا كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة ، وهى كثرة مرجعها بلا شك الى سوء الحالة الصحية فى منازل الفلاحين .. آه ، لسوف تضطر يا سيد « بوفارى » الى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التى ستصطدم بها مجهوداتك العلمية فى كل يوم .. فهم ما زالوا يلجأون الى الرقى والتمائم ، والى القس ، بدلا من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا الى الطبيب أو الصيدلى !.. على أن الطقس ليس رديئا عندنا فى الحق ، حتى انك لتجد فى المقاطعة أفرادا فى الحلقة التاسعة من أعمارهم ! .. وقد خرجت من ملاحظاتى بأن درجة الحرارة تهبط فى الشتاء الى الرابعة المئوية . أما فى موسم الحر فترتفع الى خمس وعشرين او ثلاثين درجة مئوية على الاكثر .. أى ما لا يتجاوز أربعا وعشرين درجة بميزان « ريومير » ، أو ـ بعبارة أخرى ـ ٥٤ درجة بميزان « فهرنهيت » الانجليزى ! .. والواقع اننا فى مأمن من رياح الشمال ـ من ناحية ـ بفضل غابة (ارجى) ، ومن الرياح الغربية ـ من الناحية الاخرى ـ بفضل هضبة (سان جان) .. وفضلا عن هذا ، هناك الحرارة الناشئة من أبخرة الماء المتصاعدة من النهر ، ومن الماشية

الكثيرة التى تنطلق فى المراعى وترسل - كمـــا تعلم - الكثير من النوشادر - (الأمونيا) - او بالاحرى النيتروجين والهيدروجين والاوكسيجين ٠٠ لا ، بل النيتروجين والهيـــدروجين فقط ، ومن ثم تمتص رطوبة الارض ، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معا ، وتوحدها فى حزمة - اذا صح هذا القول - ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة فى الفضاء اذا ما وجدت ، فلا تلبث بمضى الزمن ان تولد ابخرة عفنة ، كما يحدث فى البلاد الحارة ! ٠٠ هذه الحرارة المتولدة كمـا ذكرت تجد تلطيفا تاما من حيث تنبعث ، او بالاحرى من حيث ينبغى ان تنبعث - فى أى مكان من الناحية الجنوبية - بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التى تصل الينا باردة - بعد ان ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) - وكأنها نسمات من روسيا ! »

وفى ذلك الوقت كانت « ايما » تواصل حديثها مع الشاب قائلة : « ٠٠ على انك ولا بد تجد مجالا للنزهة ٠٠ فى البقاع المجاورة على الاقل »

وأجاب الشاب : « انها جد قليلة ٠٠ فهناك مكان يسمونه (لاباتير) - أى المرعى - على قمة التل عند حافة الغابة ٠٠ واليه أسعى أحيانا ، فى أيام الآحاد ، فأمكث فى صحبة كتاب حتى أشهد مغيب الشمس »

قالت معقبة : « ما أحسب أن هناك ما هو أبدع من غروب الشمس ، وخاصة عند شاطىء البحر »

فهتف مسيو ليون : « آه ٠٠ اننى أعبد البحر ! »

- ثم ، ألا ترى ان الذهن يكون أكثر تحررا فى الفضاء الذى لا حد له ، والذى يسمو تأمله بالنفس ، ويوحى بأفكار عن اللانهاية ٠٠ والخيال المثالى ؟

- كذلك حال المناظر الجبلية ٠٠ فان لى ابن عم سافر الى سويسرا فى العام الماضى ، وحين عاد قال لى ان المرء لا يستطيع أن يتصور ما فى البحيرات من شاعرية ، ومافى مساقط المياه من سحر ، وما للأنهار من أثر هائل فى النفس ٠٠ فالمرء يرى هناك أشجار الصنوبر التى لا يتصور العقل حجمها ، عبر الممرات التى حفرتها السيول ٠٠ والأكواخ معلقة على حواف الوهاد ٠٠ وتحت قدمى المرء بألف قدم ، تبدو - اذا ما انقشعت السحب - وديان فسيحة ٠٠ مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر ، وتبعث الشوق فى النفس الى العبادة والتأملات السامية ٠٠ ومن ثم لم أعد أعجب من ذلك الموسيقى المبرز الذى اعتاد أن يوقظ الهامه بأن يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر !

فسألته : « وهل تعزف شيئا من الموسيقى ؟ »

- لا ، ولكنى جد مشغوف بها ٠٠

وقطع « هوميه » الحديث اذ قال وهو ينحنى على طبقه : « آه ! ٠٠ لا تلقى اليه سمعا يا مدام « بوفارى » ٠٠ هذا مجرد تواضع ٠٠ كيف ياعزيزى وقد

كنت منذ ايام تغنى « الملاك الحارس » فى ابداع يملك الحواس ؟٠٠ لقد سمعتك من المعمل ، فاذا بك تؤديها كما لو كنت مغنيا محترفا ! »

وبالفعل كان ليـون يسكن حجرة صغيرة فى الطابق الثـانى من منزل الصيدلى تطل على الميدان ٠٠ وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذى كان قد تحول الى الطبيب واخذ يحصى له اهم سكان « ايونفيل » ، واحدا واحدا ، ويروى له تفصيلات ، ونوادر ٠٠ فمثلا لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان « آل توفاش » يظهرون فى أفخم مظهر !

وعادت « ايما » تقول : « واى موسيقى تؤثر ؟ »

ـ آه ، الموسيقى الألمانية ٠٠ تلك التى تسلمك الى الأحلام !!

ـ وهل ذهبت الى الاوبرا ؟

ـ لم أذهب بعد ، ولكنى سأفعل فى العام التالى ، حين اسـافر الى باريس لأتم دراسة القانون ٠٠٠

وقطع الصيدلى الحديث مرة اخرى قائلا : « انكما ستجدان ـ بفضل فرار ذلك المسكين « يانودا » وبفضل حماقاته ـ ان بوسعكما ، كما تشرفت بشرح الأمر للسيد زوجك ، ان تستمتعا ببيت من افضـــل بيوت « ايونفيل » ٠٠ وأبدع ميزاته بالنسبة لطبيب هى ان له بابا يفضى الى الحارة ، يستطيع المرء ان يلج وان يخرج عن طريقه دون ان يراه أحد ٠ كمــا انه مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية : من حجرة للغسيل ، ومطبخ ألحقت به غرفة للتحضير ، وقاعة للجلوس ، وبستان للفواكه ٠٠ الخ ، فلقد كان صاحبه فتى مسرفا ، لايقيم وزنا للمال ، وقد أقام فى نهاية الحديقة ، بجوار المــاء ، خميلة ليحتسى فيها « البيرة » فى ليالى الصيف ٠٠ واذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين ، ففى وسعها ٠٠ »

واذ ذاك قال « شارل » : « ان زوجتى لا تحفل بهذه الأعمال ٠٠ ومع انه اشير عليها بالرياضة والحركة ، الا انها تؤثر ان تقضى الوقت فى غرفتها تقرأ » !

فقال « ليون » : « انها مثلى ٠٠ فاى شىء أجمل فى الواقع من ان يقضى المرء المساء مع كتاب الى جوار المدفأة ، والريح تلفح زجاج النافذة ، والمصباح يشتعل ؟ »

قالت « ايما » وهى تحدق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين : « أليس كذلك ؟ »

ومضى يقول : « ان المرء لا يفكر فى شىء اذ ذاك ٠٠ والساعات تمر متلاحقة ونحن نتنقل ـ دون ان نتحرك من مكاننا ـ بين بلدان نخـال اننا نراها ٠٠ وأفكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، ولتوضح لك معالم المغامرات ٠٠ انها تندمج فى الشخصيات حتى لتخال ان قلبك هو الذى ينبض تحت ثيابها ! »

قالت : « هذا حق ! ٠٠ هذا حق ! »

واستأنف « ليون » الحديث قائلا : « أو لم يحدث لك قط ان عثرت فى كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك ٠٠ او على صورة معتمة تعود اليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن أدق أحاسيسك ؟ » ٠٠ فاجابت : « لقد شعرت بهذا فعلا »

قال : « هذا هو السر فى اننى أحب الشعراء ، فانى أجد الشعر أكثر رقة من النثر ٠٠ انه يشجى المرء بسهولة حتى يبكيه ! »

قالت « ايما » : « على ان الشعر لا يلبث مع طول الوقت ان يثير السأم ٠٠ اننى الآن اهيم - على العكس - بالقصص التى تبهر الأنفاس ، وتثير الخوف ٠٠ وأكره الأبطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى فى الطبيعة » !!

قال الكاتب : « الواقع اننى أرى ان هذه الكتب - التى لا تمس القلب - تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن ٠ ما أعذب ان ينتقل المرء بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصور للسعادة ٠ اننى - اذ أقيم هنا بمنأى عن الدنيا - أجد فى هذا ملهاتى الوحيدة ٠٠ بيد ان (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل » !

فردت « ايما » قائلة : « انها ولا بد مثل (توست) ، ومن ثم اشتركت فى مكتبة تعير الكتب »

وسمع الصيدلى كلماتها الاخيرة فقال : « هل للسيدة ان تشرفنى بالافادة من مكتبتى الخاصة ٠٠ ان لدى - تحت تصرفها - مكتبة تضم خيرة المؤلفين ، مثل : فولتير ، وروسو ، ودوليل ، وولتر سكوت ، وصحيفة « صدى الأدب » ٠٠٠ الخ ٠ كما اننى أتلقى صحفا كثيرة ، بينها « منار روان » اليومية ، اذ اننى مراسلها فى مناطق بوشى ، وفورج ، ونيوشاتل ، وايونفيل وما حولها »

★ ★ ★

◆ وانقضت عليهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة ، اذ كانت الخادم « ارتميز » تحضر طبقا بعد آخر فى بطء ، وهى تجر خفيها فى كسل فوق البلاط ، وقد غفلت عن كل شىء ، وأخذت فى كل مرة تنسى اغلاق باب حجرة البلياردو ، فيرتطم بالجدار ٠٠

وكان « ليون » قد وضع قدمه على أحد قضبان مقعد مدام « بوفارى » - أثناء الحديث - دون ان يشعر ! ٠٠ وكانت « ايما » تلف حول عنقها وشاحا حريريا أزرق صغيرا ، يشد ياقة « مكشكشة » مجعدة من « الباتيستة » ٠ وكان الجزء الأسفل من وجهها يغوص برفق فى ذلك الوشاح أو يرتفع عنه ،

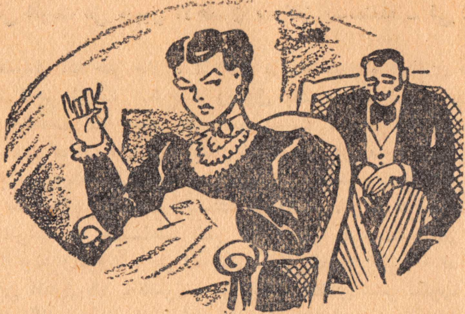
تبعا لحركات رأسها ! .. وبينما كان « شارل » والصيدلى يثرثران ، اندمج الشابان - اللذان تجاور مقعداهما - فى أحد تلك الأحاديث المبهمة التى تقودك العبارات خلالها دائما الى مركز ثابت تلتقى عنده الميول والمشاعر .. فتحدثا عن مسارح باريس ، وعناوين القصص ، وأنواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذى لم يكونا يعرفانه ، و (توست) التى كانت « ايما » تقيم فيها ، و (ايونفيل) حيث كانا اذ ذاك .. وتناقشا حتى نهاية العشاء فى كل موضوع خطر لهما !

وبعد ان قدمت القهوة ، ذهبت « فيليسيتيه » لتعد المخدع فى المنزل الجديد. وما لبث الضيوف ان نهضوا بعد قليل ، فاذا مدام « لوفرانسوا » قد اغفت على مقربة من النار المحتضرة ، بينما كان السائس فى انتظار السيد «بوفارى» وزوجته ، وهو يحمل مصباحا ليرشدهما الى منزلهما ، وقد علقت بشعره بعض أعواد القش وأخذ يعرج بقدمه اليسرى ! .. وشرعوا فى الانصراف عندما حمل بيده الأخرى مظلة القس .

كانت البلدة قد نامت ، وأعمدة السوق تلقى ظلالا كبيرة على الأرض الرمادية ، كما كانت تبدو فى ليالى الصيف .. واذ كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة ، فان القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم انفضوا ..

وما ان ولجت « ايما » الردهة حتى أحست برطوبة الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش .. وكانت الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير .. وفى المخدع - بالطابق الأول - كان ثمة ضوء يميل الى البياض ، ينفذ خلال النوافذ التى لم تحجبها ستائر .. ولاحت لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى فى أحضان الضباب الذى انتشر فى ضوء القمر على طول مجرى النهر .. وفى وسط الحجرة ، تناثرت فى غير نظام أدراج الدواليب ، والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصى من المعدن المطلى .. وعلى المقاعد كانت ثمة حشايا ، وعلى الارض أوان وأوعية .. فقد ترك الرجلان اللذان حملا الأثاث كل شىء فى غير ترتيب ..

تلك كانت المرة الرابعة التى تنام « ايما » فيها فى مكان لم تألفه .. كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدير ، والثانية يوم انتقلت الى (توست) ، والثالثة فى (فوبيسار) .. وهاهى ذى الرابعة ! .. وكانت كل مرة بداية لمرحلة جديدة .. ولم تكن تعتقد ان الأمور تجرى على وتيرة واحدة فى كل مكان .. واذ كان الشطر الذى عاشته من حياتها سيئا ، فقد وقر فى نفسها ان الشطر الباقى سيفضله !



الفصل الثالث

◆ عندما استيقظت « ايما » فى اليوم التالى ، لمحت كاتب الموثق يسير فى الميدان .. وكانت فى ثوب المنزل (الروب دى شامبر) . ورفع الشاب رأسه اليها محييا ، فردت بايماءة سريعة ، واغلقت النافذة ! .. وقضى « ليون » نهاره كله فى ارتقاب الساعة السادسة .. ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد « بينيه » يجلس الى المائدة !

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة فى نظره ، اذ لم يقدر له قبل ذلك أبدا ان يقضى ساعتين متتاليتين فى الحديث مع « سيدة » ، فكيف اذن وسعه ان يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الأمور التى لم يكن – من قبل – يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذى كان فى العادة خجولا ، يلتزم ذلك التحفظ الذى يجمع بين الحياء والتكتم فى آن واحد !؟ لقد كان أهل « ايونفيل » يعتبرونه « حسن التربية » ، اذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصابا بالهوس السياسى ، وهذه خلة هامة بالنسبة لأى شاب ! .. فضلا عن انه كان موهوبا ، يرسم بالألوان المائية ، وعلى الملم بمبادىء الموسيقى ، ويستطيب الحديث فى الأدب بعد العشاء ، اذا لم يلعب الورق . وكان السيد « هوميه » يحترمه لثقافته ، ومدام « هوميه » تحبه لطيبته ، اذ كثيرا ما كان يصحب أبناءهما الى الحديقة ! .. وكانوا أطفالا ملطخين دائما بالقذارة ، مدللين الى درجة أفسدتهم كثيرا ، ميالين للكسل والتراخى مثل امهم ! .. وكان يعنى بهم – الى جانب الخادم – « جوستان » الشاب ، مساعد الصيدلى ، الذى كان من أبناء عمومة مسيو « هوميه »

فآواه هذا فى البيت على سبيل الاحسان ، وكان يستغله - فى الوقت ذاته - كخادم !

وأثبت الصيدلى انه خير جار ، اذ كان يرشد مدام « بوفارى » الى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ، ثم يستوثق من ان القنينات وضعت كما ينبغى فى قبو البيت ! ٠٠ كما كان يرشدها الى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد ، ويتفق مع « ليستيبودوا » الذى كان - الى جانب مهامه الكنسية والجنازية - يتعهد حدائق الدور الكبرى فى (ايونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة أو بالعام ، وفقا لرغبة العميل !

ولم تكن الرغبة فى مساعدة الغير هى الحافز الوحيد الذى دفع الصيدلى الى كل هذا التودد والمروءة ، بل انه كان يخفى قصدا آخر ٠٠ اذ كان قد خرق المادة الاولى من قانون ١٩ « فنتوز » من العام الحادى عشر للثورة - وهى المادة التى تحظر على كل من لا يحمل شهادة ان يزاول مهنة الطب - حتى انه استدعى الى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين ، فمثل أمام وكيل النيابة فى مكتبه الخاص ٠٠ وقد استقبله النائب بوشاحه واقفا ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنسوته ٠٠ وكان ذلك فى الصباح ، قبل ان تفتح المحكمة أبوابها ٠٠ وكان يسمع وقع أحذية الشرطة الثقيلة فى الردهة ، وصوتا ينبعث عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق ٠٠ وأحس الصيدلى بطنين فى أذنيه كذاك الذى يسبق نزلة الشلل ٠٠ ورأى بعين الخيال أعماق الزنزانات ، واسرته فى دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها ٠٠ حتى لقد اضطر الى ان يلجأ الى مقهى تناول فيه كأسا من «الروم» الممزوج بماء « سلزر » ليتمالك جأشه !

بيد ان ذكرى هذا الانذار ما لبثت ان أخذت فى الاضمحلال ، وعاد الى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها فى الغرفة الخلفية بالصيدلية ٠ غير ان العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه يغارون منه ، فكان لا بد له من ان يحسب حسابا لكل شىء ، ومن ثم رأى ان السيد «بوفارى» سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات ، وسيحمله الاعتراف بالجميل على ان يمسك لسانه اذا ما لمح شيئا ! ٠٠ ومن ثم اعتاد ان يحمل اليه الصحيفة فى كل صباح ، وان يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضى فترة فى الحديث مع الطبيب !

وكان « شارل » مكتئبا لأن العملاء لم يقبلوا عليه ٠٠ وكان يجلس ساعات طويلة دون ان ينبس ببنت شفة ، أو يلجأ الى مكتبه لينام ، أو يتأمل زوجته وهى مستغرقة فى الحياكة ٠ ثم أخذ يعمل فى البيت كالأجير ليتلهى عن أفكاره ٠٠ بل انه حاول ان يطلى جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون ٠٠ بيد ان الشئون المالية كانت تشغل باله ، فقد انفق الكثير فى الاصلاحات

التى ادخلها على داره فى (توست) ، وفى توفير أدوات الزينة لزوجته ، وفى نقل الأثاث ، حتى ان البائنة - التى نالها عند زواجه - تسربت كلها خلال عامين ، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار .. وكم من أشياء تلفت أو ضاعت أثناء نقلها من (توست) الى (ايونفيل) .. ناهيك بتمثال القس الذى هوى من العربة اثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكا مبوا) الى ألف قطعة !

* * *

◆ ثم اقبلت مهمة سارة تشغله عن أفكاره .. تلك هى : حمل زوجته ! .. وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حدبا عليها .. فهذه رابطة أخرى - من لحم - تعزز صلتهما وتوجد فيهما احساسا مستمرا بالرباط المشترك . وكان اذا رآها عن بعد تمشى متثاقلة ، وقوامها يلتف فى طراوة فوق ردفيها ، بعد ان تحرر من الحزام الذى كان يشده، أطال النظر اليها.. فاذا جلسا متقابلين، راح يتأملها فى تمعن وهى تتململ متقلبة بين الاوضاع فى مقعدها ، فتفيض به السعادة ، وينهض فيقبلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديها بالأم الصغيرة ، ويسعى لحملها على الرقص ، ويروى لها - بين الضحك والبكاء - كافة النكات اللطيفة التى تتبادر الى ذهنه ! .. كانت تطربه فكرة انجاب طفل .. ومن ثم لم يعد يعوزه شىء آخر ، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها الى نهايتها ، فكان يتدبرها فى خاطره مطمئنا ساكن النفس !

وكانت « ايما » فى دهشة بالغة - فى البداية - ثم أصبحت تتوق الى ان تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة ! .. ولما لم تكن تملك ان تنفق عن سعة لتعد للطفل مهدا متأرجحا - على شكل زورق - ذا ستائر من الحرير الوردى ، وطاقيات مطرزة ، فقد عدلت - والمرارة تمضها - عن كل هذا ، وعهدت الى امرأة تشتغل بالتطريز فى احدى القرى باعداد ما يلزم ، دون أن تختار بنفسها شيئا ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التى تذكى الحنان فى الامهات ، حتى لقد بدا أن حبها للصغير قد فتر - بعض الشىء - عنه فى البداية ! .. على انها لم تلبث ان أخذت تفكر فيه باسترسال متواصل ، اذ كان «شارل» لا يفتأ يتحدث عنه أثناء كل وجبة !

وتمنت ان ترزق بولد ، قوى ، أسمر ، تسميه « جورج » ! .. وكانت ترمق الفكرة كما لو كان انجاب الذكر انتقاما مأمولا من كل ما أصابها فى الماضى من قصور واستضعاف . فالرجل حر .. يستطيع على الأقل ان يجتاز كافة الانفعالات ، وان يجوب الاقطار ، وان يتخطى العقبات ، وان يتذوق ابعد الملذات منالا ! .. فى حين ان المرأة تتعثر دائما فى المثبطات .. فاذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث ان تجد ضعف جسدها والحياة التى فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها ، عوامل تقعد بها .. وما أشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف فى الهواء !

* * *

◆ وواتاها المخاض فى نحو الساعة السادسة من صباح يوم من أيام الآحاد ، والشمس تشرق .. وما لبث « شارل » ان قال : « انها بنت ! » .. فأشاحت برأسها ، وراحت فى اغماء !

وأقبلت مدام « هوميه » ومدام « لوفرانسوا » ـ صاحبة نزل الأسد الذهبى ـ مسرعتين لتقبلاها ، فور سماعهما النبأ .. أما الصيدلى ، فقد اكتفى ـ كرجل مهذب ، حيى ! ـ بأن ازجى اليها بعض التهانى خلال الباب المنفرج ، ثم رغب فى رؤية الوليدة ، وأعرب عن ارتياحه الى حسن تكوينها !

وشغلت « ايما » كثيرا ـ خلال فترة النقاهة ـ باختيار اسم لابنتها .. فاتجهت فى أول الأمر الى الأسماء التى تنتهى بمقاطع معينة ، على الطريقة الايطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، واماندا ، واتالا .. ومالت كثيرا الى اسم « جالسويند » .. وكانت أكثر ميلا الى « ايزولته » أو « ليوكادى » . ورغب « شارل » فى ان تحمل الطفلة اسم أمه ، ولكن « ايما » عارضته .. ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من أسماء القديسات ، وأخذا يستشيران الأغراب . فقال الصيدلى : « كنت أتحدث منذ أيام مع السيد ليون ، فأبدى عجبه لانكم لا تختارون اسم « مادلين » الذى يقبل الجميع عليه فى هذه الايام ! »

ولكن مدام « بوفارى » الكبيرة ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذى كانت تحمله احدى الخاطئات ! .. اما السيد « هوميه » ، فكان يفضل الأسماء التى تبعث الى الذهن ذكرى عظيم ، أو واقعة بهيجة ، أو فكرة كريمة .. وعلى هذا النحو سمى أبناءه الأربعة ، فكان « نابوليون » يمثل المجد ، و «فرانكلين» رمزا للحرية ، وربما كان اسم « ارما » مظهرا لتأثره بالخيال القصصى العاطفى .. اما اسم « اتالى » فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية ! .. اذ ان عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية .. ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها فى نفسه شخصية رجل العاطفة ، بل كان يعرف لكل حدودها ، وكان يفرق بين الخيال والتطرف المتعصب .. ففى مأساة « اتاليا » المسرحية ـ مثلا ـ كان ينتقد الآراء ، ولكنه يعجب بالاسلوب .. يكره الموضوع، ولكنه يصفق للتفصيلات جميعا .. يزدرى الشخصيات ، ولكنه يزداد تحمسا لحوارها ! .. وكان يسرح مع الخيال اذا ما قرأ فقرات بديعة ، ولكنه كان يغتم اذا ما تذكر أن أهل المجون والمهرجين قد يستغلونها فى ألاعيبهم على الغير ! .. وفى خضم هذه المشاعر المتضاربة التى كانت تجتاحه ، كان يود أن يتوج لفوره « راسين » ـ مؤلف المسرحية ـ بكلتا يديه ، وأن يقضى ربع ساعة فى نقاش معه !

وتذكرت « ايما » أخيرا انها سمعت المركيزة فى قصر (فوبيسار) تنادى شابة باسم « بيرت » .. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا

الاسم ! ٠٠ ولما لم يستطع السيد « روو » الحضــور ، فقد سئل السيد « هوميه » ان يكون اشبينا للطفلة ٠٠ وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقنينة مملوءة بأكسير مقو ، وثلاث أنابيب من معجون الشيح ، فضلا عن ست أصابع من سـكر النبات عثر عليها في أحد الصوانات ٠ وفي أمسية الاحتفال ، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللها هرج ومرج ٠٠ وعنـدما حان موعد الشراب ، أخذ السيد « هوميه » ينشد : « الله رب العالمين » ، وغنى السيد « ليون » احدى أغاني الجندول ، وألقت مدام « بوفاري » الكبيرة – وكانت اشبينة الطفلة – احدى أغاني العصر الامبراطوري العاطفية ! ٠٠ وأخيرا ، أصر مسيو « بوفاري » – الكبير – على احضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوبا من الشمبانيا ٠٠ وأثارت هذه السخرية من أقدس الشـعائر



الدينيــة غضب الأب « بورنيزيان » ، فرد عليه « بوفاري » الشيخ بفقرة من كتاب : « حرب الآلهة » ! ٠٠ وهم القس بالخروج ، فتضرعت اليه النسوة، وتدخل السيد « هوميه » ، حتى أفلحوا في حمل القس على الجلوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقي في قدح القهوة ، في هدوء !

ومكث مسيو « بوفاري » الكبير شهرا في « ايونفيل » بهر خلاله أهلهـا بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضي ، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليــونه في الميدان ! ٠٠ واذ كان من عادته الافراط في الشراب ، فكثيرا ما كان يوفد الخادم الى « الأسد الذهبي » لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه ٠ واستنفد – ليعطر مناديله – كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء « الكولونيا » ٠٠ بيد ان هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقا ، اذ كان

قد جاب الأقطار ، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورج ، وعن أيام الجندية ، وعن العشيقات اللاتى أحببنه ، والولائم الحافلة التى أقامها ! .. ثم انه كان لطيفا .. بل لقد كان فى بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه ـ على السلم أو فى الحديقة ـ ويصيح : « شارل .. احترس لنفسك ! »

اذ ذاك خشيت السيدة « بوفارى » ـ الأم ـ على سعادة ابنها ، وخافت أن ينتهى زوجهـا مع مرور الوقت الى أن يترك أثرا غير خلقى فى ما للمرأة من آراء وأفكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل .. ولعلها كانت تكتم أسبابا أخطر من ذلك لقلقها ، اذ ان السيد « بوفارى » لم يكن بالرجل الذى يحترم شيئا !!

واحست « ايما » يوما برغبة مفاجئة فى ان ترى ابنتها ـ التى كانت قد أسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها ـ وبدون ان ترجع للتقويم لتتبين ما اذا كانت اسابيع العذراء الستة قد انقضت ، انطلقت الى بيت « روليه » ـ النجار ـ فى الطرف الأقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول .. وكان الوقت ظهرا ، وقد أوصدت أبواب الدور ونوافذها ، وتألقت السقوف الاردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شررا من ابراجها ! .. وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت « ايما » ان شعرت خلال سيرها بوهن ، وأخذت أحجار الأرصفة تؤلم قدميها .. وترددت بين ان تعود الى البيت ثانية، أو تلوذ باى مكان .. وفى هذه اللحظة ، برز السـيد « ليون » من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحيتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة أمام حانوت « روليه »

وقالت مدام « بوفارى » انها فى طريقها لرؤية ابنتها ، بيد ان التعب اخذ يشتد بها ، فقال ليـون : « هل لك ... » ، ثم أمسك لا يجرؤ على ان يتم عبارته ، فسألته : « هل لديك أى عمل يشغلك الآن ؟ » .. واذ أجابهـا بالنفى ، رجته ان يصحبها .. فلم يحن المساء حتى كانت « ايونفيل » بأسرها قد عرفت النبأ .. وصرحت مدام « توفاش » ـ زوجة العمدة ـ أمام خادمتها بأن « مدام بوفارى قد ورطت نفسها ! »

★ ★ ★

◆ كان لا بد « لايما » ، كى تصل الى بيت المرضعة ، من ان تعـرج الى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى الى المقابر ، ثم تسلك ـ بين الدور والأفنية ـ طريقا ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنـات النـار المزدهرة ، وبالعوسج المنبعث من الأحراش . وخـلال ثغرات فى الأسيجة ، كانت الأبقار تلوح فى الخرائب وهى تحك قرونها فى جـذوع الأشجار .. وسارا فى هوادة ، جنبا الى جنب ، وقد استندت السيدة الى

زميلها الذى كان يضيق من خطاه كى تلائم خطاها ! .. وكان يحوم أمامهما سرب من الذباب يطن فى الهواء الدافىء ..

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله . وكان بيتا منخفضا ، مغطى بقرميد بنى اللون ، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل .. وخلف الحاجز الشوكى ، قامت عدة أغصان جافة تحيط بحوض زرع خسا ، وبعض عقل من « اللاوندة » ، وفروع من البازلاء المزدهرة استندت الى عصى صغيرة ، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة أشياء بالية غير واضحة المعالم : جوارب من نسج اليد ، وصدار من الحرير الهندى الأحمر ، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج ..

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلا يرضع ، وتسحب باليد الاخرى طفلا هزيلا مسكينا كست وجهه البثور ، وكان ابن صانع قبعات فى (روان) ، تركه أبواه فى الريف لفرط انصرافهما الى تجارتهما . وقالت المرضعة : « تفضلى .. ان طفلتك نائمة هناك ! »

وكانت الغرفة التى بالطابق الارضى ، هى الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد اقيم لصق الجدار - فى أقصاها - سرير واسع بدون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذى تخللته النافذة ، وقد ألصق فى مكان الزجاج المكسور فى هذه ، ورق أزرق .. وفى الركن القائم خلف الباب رصت أحذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار زجاجة زيت دست فى فوهتها ريشة . وعلى رف المدفأة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم «ماتيولانزبرج» وسط قطع من الصوان وأعقاب الشموع والصوفان . وأخيرا ، كانت آخر مظاهر الترف فى المسكن ، لوحة تمثل « الشهرة » تنفخ فى بوق ، يدل مظهرها على انها قصت من اعلان للعطور ، وثبتت الى الجدار بستة من مسامير الأحذية الخشبية (القباقيب) !

وكانت طفلة « ايما » ترقد فى سرير من الغاب ، فحملتها فى الغطاء الذى كان يلفها واخذت تغنى لها برفق وهى تهزها .. ومضى « ليون » يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب ان يرى سيدة جميلة فى ثوب أنيق وسط كل هذا البؤس والفاقة .. وتضرجت وجنتا مدام « بوفارى » ، فاشاح ببصره اذ خطر له ان نظرة فضولية بدت فى عينيه .. وما لبثت الأم ان ردت الطفلة الى مهدها بعد ان تقيأت على صدر مرولتها ، فاقبلت المرضعة لمسح القىء فورا ، مؤكدة انه لن يخلف اثرا .. وقالت : « كم من أفعال لها تشغلنى ، فاننى أحرص على تنظيفها باستمرار ، ولو انك تفضلت فأمرت « كاميس » البدال بأن يعطينى بعض الصابون ، لكان هذا ادعى لراحتك ، لأننى لن اضطر لازعاجك » !

فقالت « ايما » : « حسنا .. ليكن !.. طاب يومك ياسيدة روليه

وخرجت وهى تمسح نعليها عند العتبة .. وتبعتها المرضعة حتى نهاية الحديقة ، وهى تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذى تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : « ان الضنى يبلغ بى أحيانا أن أستغرق فى النعاس وأنا جالسة فى مقعدى ، وأعتقد أنه يخلق بك ان تمنحينى رطلا على الاقل من البن المجروش ، يكفينى شهرا ، لأتناول منه قدحا مع اللبن فى كل صباح »

وانصرفت مدام « بوفارى » بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر . على انها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتى انتبهت الى وقع حذاءين خشبيين .. واذا بالمرضعة ، فسألتها : « ماذا هناك ؟ » .. واذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانبا خلف احدى أشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذى اوتى حرفة ، لا تدر عليه غير النــذر الضئيل .. وقاطعتها « ايما » قائلة : « اسرعى ! » ، فاستأنفت وهى تتنهد بين كل كلمة وأخرى : « آه .. أخشى أن يغتم اذا رآنى أتناول القهوة وحدى .. فأنت تعرفين الرجال ... »

قالت « ايما » : « لسوف تحصلين على البن .. سأعطيك اياه .. انك تضايقيننى ! »

– أواه يا سيدتى العزيزة المسكينة !.. انه يعانى – بسبب جراحة – من انقباضات مزعجة فى الصدر .. ويقول ان شراب التفاح يضعفه !

– عجلى أيتها الام روليه !

فاستطردت المرضعةوهى تنحنى احتراما : «اذن ، فاذا لم أكن قد تماديت ..»، وانحنت مرة أخرى .. « فلو تكرمت » .. وبدت فى عينيها ضراعة ، ثم أفضت بغايتها أخيرا : « .. بقنينة براندى ! ولسوف أدلك منها قدمى طفلتك، فهما رقيقتان كاللسان » !

★ ★ ★

◆ ما ان تخلصت « ايما » من المرضعة ، حتى أمسكت بذراع « ليون » ، وسارت مسرعة بعض الوقت ، ثم تباطأت .. وفيما كانت تتطلع الى الأمام ، وقع بصرها على كتف الشاب الذى كانت لسترته ياقة من المخمل الاسود ، يتدلى فوقها شعره الكستنائى الذى نسق فى عناية ، ولاحظت ان أظافره كانت أطول مما اعتاد الناس فى « ايونفيل » أن يتركوا عليه أظافرهم ! .. وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التى تشغله .. ومن ثم كان يحتفظ فى درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك !

وعادا الى « ايونفيل » سائرين بمحاذاة مجرى الماء .. كانت الضفة تتسع فى الموسم الحار عنها فى الاوقات الاخرى ، فتكشف عن أساس جدران الحدائق، حيث تنحدر الى مجرى النهر بضع درجات .. وكان الماء يجرى سريعا ، هادئا، تكاد العين تلمس برودته ! .. والاعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع ، والتيار يدفعها ، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النمير كالشعر المسترسل ..

وكانت تبدو على قمم البوص او على احدى أوراق زنابق الماء - فى بعض الأحيان - حشرة دقيقة الأطراف تزحف أو تقبع مستريحة ٠٠ وكانت الشمس تخترق بأشعتها الفقاقيع الزرقاء الصغيرة التى تخلفها الامواج ، والتى كانت تتتابع متكسرة ٠٠ وأشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان ، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة ٠٠ وفى المؤخرة ، بدت المراعى محيطة بالمنظر ، ممتدة على مدى البصر ، خالية من كل شىء ٠٠ كانت ساعة العشاء قد حانت فى المزارع ، فلم تسمع الشابة وزميلها أى صوت وهما يسيران ، اللهم الا وقع خطواتهما على أرض الطريق ، والكلمات التى كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب « ايما » ٠٠

وكانت أسوار الحدائق - التى بدت من فوقها قطع الزجاج - ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين أحجارها ، فكانت مدام « بوفارى » تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهى تمر بها ، فتتساقط ترابا أصفر ٠٠ كما كان يشتبك بحافة المظلة أحيانا غصن من اللبلاب المتدلى ، ويتأرجح فوق حريرها لحظة ٠٠

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الاسبانيين مرتقبة الوصول الى مسرح (روان) ، فسألته : « هل ستذهب لرؤيتها ؟ » ٠٠ وأجاب : « اذا استطعت » ! ٠٠

أو لم يكن لديهما ما يقال غير هذا ؟! ٠٠ كانت عيونهما مفعمة بحديث أكثر جدية ٠٠ وكانا ، اذ يجهدان نفسيهما فى البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسرى فيهما ٠٠ ذاك كان همس الروح ٠٠ همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما !٠٠ وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما أن يتكلما عن هذا الاحساس أو أن يبحثا عن سببه ٠٠ فان المسرات فى اقبالها تلقى - كالشواطىء الاستوائية - على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية ، وتبعث فى الجو نسيما متضوعا ٠٠ فاذا هذه النشوة تسلمنا الى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير فى الأفق الذى نجهله !

وكانت الأرض قد مادت فى احدى البقاع تحت أقدام الماشية ، فكان لابد لهما من أن يقفزا على أحجار كبيرة خضراء تناثرت فى الوحل ٠٠ وكثيرا ماكانت « ايما » تتريث لتستبين موقع قدمها ، وهى تتأرجح على حجر مهتز ، وقد بسطت ذراعيها فى الهواء ، وانحنت قامتها فى حيرة ، وراحت تضحك وهى تخشى أن تهوى فى برك الماء !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام « بوفارى » الباب ، وطوت السلالم عدوا ، واختفت ٠٠ فعاد « ليون » الى مكتبه - وكان رئيسه غائبا - فألقى على الملفات نظرة ، وشحذ لنفسه قلما ، ثم تناول قبعته أخيرا وانصرف

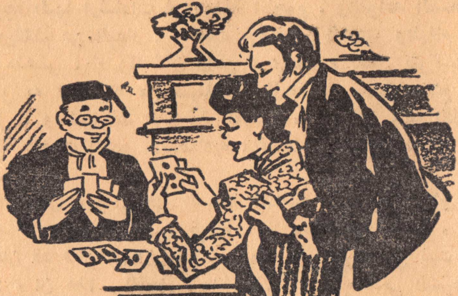
متجها الى المرج باعلى هضبة (ارجى) - عند مدخل الغابة - حيث استلقى على الأرض تحت أشجار الصنوبر ، وأخذ يتطلع الى السماء من خلال أصابعه ، محدثا نفسه : « ما أشد ضجرى ! »

كان يحس انه خليق بالرثاء لاقامته فى هذه القرية ، حيث لا صديق سوى « هوميه » .. ومع السيد « جويومان » رئيسه ! .. وكان الأخير ، بمنظاره ذى الاطار الذهبى ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، يكب على عمله ، ولا يفقه شيئا من المتع الفكرية ، وان اتخذ لنفسه مظهرا انجليزيا صارما بهر الكاتب فى الأيام الأولى !

أما زوجة الصيدلى ، فكانت خير زوجة فى (نورمانديا) .. وديعة كالحمل، تحب أولادها وأباها وأمها وبنى عمومتها ، وتبكى لأحزان الآخرين ، مهملة فى الوقت نفسه كل شئون دارها !.. وكانت تكره المشدات (الكورسيهات) ، غير انها كانت بطيئة الحـركة ، مملة الحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان أحد ليتصور انها تصلح زوجة لغير الصيدلى ، أو انها أوتيت شيئا من خصائص جنسها فيما عدا الثوب !.. وكانت هى فى الثلاثين بينما كان هو - (أى ليون) - فى العشرين ، وكان مخدعه ملاصقا لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يوميا !

ثم .. ماذا كان هناك غير ذلك ! .. « بينيه » ، وبعض أصحاب الحوانيت ، واثنان أو ثلاثة من أصحاب الحانات ، والقس ، وأخيرا مسيو « توفاش » ، العمـدة ، وأولاده : وكلهم ثراة ، متغطرسون ، أغبيـاء ، يزرعون الأرض بأنفسهم ، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لاتطاق صحبتهم !

ولكن .. ماذا عن « ايما » ؟.. لقد كانت تقف بمعزل عن كل الاطار العام الذى يضم هذه الوجوه البشرية .. وبعيدا عنه هو الآخر ، اذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة !.. كان قد زارها مع الصيدلى عدة مرات فى البداية، فلم يبد « شارل » ميلا واضحا الى أن يراه مرة أخرى ، فلم يدر « ليون » ماذا يفعل ، اذ حار بين الخوف من أن يبدو متطفلا ، والرغبة فى الفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة !



الفصل الرابع

◆ نقلت « ايما » ـ عندما بدأت أيام الشتاء ـ مخدعها الى حجرة الجلوس ٠٠ وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف ، استقرت على رف مدفأتها ـ أمام المرآة ـ حزمة كثيفة من المرجان ٠ وكانت تجلس فى مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد أهل القرية وهم يمرون على الافريز ٠٠

وكان « ليون » يسعى بين مكتبه وفندق « الاسد الذهبى » مرتين في اليوم ، فكانت « ايما » اذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع ، بينما يمر الشاب دون ان يلتفت ، فتراه من خلف الستائر فى نفس المظهر والملبس دائما ٠٠ ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التى تطرزها تسقط على ركبتيها ، وتستند بذقنها الى يدها اليسرى ـ عند الغروب ـ كانت تسرى فى جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت !٠٠ وكانت لا تلبث أن تنهض ، وتأمر باعداد المائدة ٠٠

وكان السيد « هوميه » يصل أثناء العشاء ، وطاقيته الاغريقية في يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كى لا يزعج أحدا ، وهو يردد نفس العبارة دائما : « مساء الخير أيها الزميلان ! » ٠٠ فاذا اتخذ مجلسه الى مائدة الزوجين ، سأل الطبيب عن أنباء المرضى ، فيستشيره هذا فيما يقدر من أتعاب ، ثم يخوضان فى الحديث عما جاء بالصحيفة التى يكون « هوميه » قد استظهر كل مافيها تقريبا ! ٠٠ فكان يرويه ، مع التعليقات ، كما كان يروى جميع النكبات الفردية التى وقعت فى فرنسا أو فى الخارج ٠ ولم يكن يتوانى ـ اذا ما نضب موضوع الحديث ـ عن أن يلقى بعض الملاحظات عن أصناف الطعام التى يراها !٠٠ بل

انه كان ينهض أحيانا عن مقعده ليرشد السيدة الى أطرى قطع اللحم ، او يتحول الى الخادم يوجه اليها ارشادات فى معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل ٠٠ ويتكلم عن البهار ، والمغات ، وأنواع العصير والهلام (الجيلاتين) ٠٠ على نحو مدهش !٠٠ ولما كان رأس « هوميه » يحفل بتركيبات تفوق فى الكثرة ماتزخر به صيدليته من قنينات ، فانه كان يحذق صنع جميع أنواع المربى ، والخل ، والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملما بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية ، فضلا عن أصول صيانة الجبن ،وعلاج النبيذ الفاسد !

وكان « جوستان » يأتى فى الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية ، فيرمقه السيد « هوميه » بنظرة خبيثة ، لا سيما اذا كانت « فيليسيتيه » واقفة ، اذ كان قد فطن الى أن مساعده يميل الى التردد على بيت الطبيب !٠٠ وكان يقول : « ان هذا « الفحل » بدأ يفكر ٠٠ وليأخذنى الشيطان اذا كنت مخطئا فى ظنى انه يحب خادمتكما ! »

بيد ان أخطر عيب كان يؤاخذ « جوستان » عليه ، هو انه كان ينصت دوما الى الحديث ٠ فلم يكن من السهل ابعاده عن « الصالون » فى يوم الأحد مثلا ، عندما تناديه مدام « هوميه » لينقل الأطفال الذين ناموا فى مقاعدهم ، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها !٠٠ ولم يكن يحضر سهرات الصيدلى أناس كثيرون ، اذ نجح ميله للخوض فى الفضائح والآراء السياسية فى تنفير مختلف الاشخاص المحترمين منه ٠ على أن الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان اذا سمع جرس الباب بادر مسرعا الى استقبال مدام « بوفارى » ، فيأخذ عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلية الخفين السميكين المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها اذا كان الجليد يملأ الشوارع ٠٠

وكانوا يلعبون أدوارا من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١ ، ثم ينفرد السيد « هوميه » باللعب مع « ايما » ، و« ليون » من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمدا بيديه على ظهر مقعدها ، محدقا فى أسنان المشط التى تعض عقصة شعرها ٠ وكان الجانب الايمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون اسود ينساب على ظهرها ، ويأخذ فى الشحوب تدريجا ، حتى يتلاشى فى الظلال ٠٠ ثم يتهدل ثوبها على جانبى المقعد ، منتفخا ، مليئا بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الأرض ٠٠ فاذا أحس « ليون » بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلا وكأنما داس شخصا !

وعندما كان ينتهى لعب الورق ، كان الصيدلى والطبيب يلعبان « الدومينو » ، فتنتقل « ايما » الى مقعد آخر لتتكىء على المائدة وتقلب صفحات مجلة « الالستراسيون » ٠٠ كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس «ليون» يتأمل الصور الى جانبها ، ويتريث احدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ

منها الآخر . وكثيرا ماكانت ترجوه ان ينشدها شعرا ، فكان « ليون » يفعل بصوت متراخ كان يعنى بخفضه عند العبارات الغرامية ، لتطغى عليه جلبة « الدومينو » ! .. وكان السيد « هوميه » بارعا فى هذه اللعبة ، الى حد انه كان يفوز على « شارل » بدورين ، حتى اذا فرغا من الدور الثالث ، اضطجعا معا أمام المدفأة ، فلا يلبثان أن يغفوا !.. وتموت النار .. ويخلو ابريق الشاى .. و «ليون » ماض فى القراءة ، و « ايما » تنصت اليه ، وهى تعبث بمظلة المصباح فى حركة آلية ، وتحدق فى الرسوم المنقوشة عليها : من عصافير فى عربات ، الى راقصين على الحبال ممسكين بالعصى التى يحفظون بها توازنهم .. وكان « ليون » لا يلبث ان يمسك عن القراءة ليشير بايماءة الى النائمين .. واذ ذاك يشرعان فى الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لهما أعذب من أى حديث ، لأن أحدا لم يكن يسمعه !

.. وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص ، وأخذا يتبادلان الكتب والروايات . ولم يكن السيد « بوفارى » ليشغل باله بهذا .. فقد كان قليل الانسياق للغيرة !

وتلقى « شارل » فى عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الأزرق ، لبيان الجهاز العصبى ، وقد انتشرت عليه الأرقام والبيانات حتى القفص الصدرى !.. تلك كانت هدية من الكاتب الذى أخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات، حتى لقد كان يقضى للطبيب حوائجه فى (روان) . وكان أحد الروائيين قد أورد فى كتاب له فصلا عن نبات « الصبار » جعله بدعة لقيت رواجا ، فابتاع « ليون » بعض نبتات منه لمدام بوفارى ، وقد أدمى بعض أشواكها أصابعه ، اذ حملها فى « العصفورة » على ركبتيه !.. وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص . ولما كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد أخذ كل منهما يشاهد الآخر وهو يعنى بأزهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها أكبر قدر من النشاط .. فطيلة أيام الآحاد ـ نهارها ومساؤها ـ وبعد ظهر كل يوم ، حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظرا جانبيا لوجه « بينيه » وقد انحنى على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتى صار يسمع فى فندق « الاسد الذهبى » ..

وولج « ليون » غرفته ذات يوم ، فألفى فيها سجادة من المخمل والصوف ، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة ، فاستدعى مدام « هوميه » والسيد « هوميه » و « جوستان » والأطفال والطباخة ليشهدوها !.. وتحدث الى رئيسه عنها .. ورغب الجميع فى أن يروا هذه السجادة ، وهم يسائلون أنفسهم: ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب هدايا ؟.. انه لأمر جد عجيب !.. ووقر فى نفوسهم انها لابد حبيبته ، لا سيما وقد كان فى مسلكه مايبرر هذا الظن ،

اذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه « بينيه » مرة فى عنف قاس : « وماذا يعنينى من أمرها وانا لست من أصدقائها ؟! »

وأخذ « ليون » يعتصر ذهنه بحثا عن وسيلة يعلن بها حبه لها ٠٠ فقدكان يتردد بين الخوف من أن يثير استياءها وبين الخجل من جبنه !٠٠ كان يبكى من الرغبة وعدم الجراة ، ثم لا يلبث ان يستجمع عزيمته ويعمد الى كتـــابة خطابات يمزقها بعد أن ينتهى منها ، ويرجىء الأمر الى أوقات أخرى ،ثم يعود فيرجئه من جديد !٠٠ وكثيرا ماكان يهم بمواجهة الأمر فى عزم ، فلا تكاد تحضر « ايما » حتى يتبدد هذا العزم !٠٠ وكان اذا دعاه « شارل » الى مرافقته فى عربته لعيادة مريض فى قرية مجاورة لبى الدعوة لفوره ، فيحيى السيدة وينصرف ٠٠ ولم لا ، أليس زوجها جزءا منها ؟

أما « ايما » ، فلم تسائل نفسها قط عما اذا كانت تحبه ٠ فهى تعتقد أن الحب يفد فجأة مصحوبا برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض ، فتقلب كيانها ، وتنتزع الارادات انتزاعها لأوراق الشجر ، وتجرف القلب !٠٠ ولم تفطن الى أن المطر يحيل الشرفات بحيرات اذا كانت الميازيب مغلقة ٠٠ وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجأة صدعا فى الجدار ٠٠ جدار قلبها !!



الفصل الخامس

◆ كان ذلك فى أصيل يوم أحد من شهر فبراير ، والجليد يتساقط ٠٠وهم جميعا - السيد بوفارى وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون - على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل) ، وقد خرجوا فى رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جاريا فى اقامته فى الوادى ٠٠ وكان الصيدلى قد اصطحب معه « نابوليون » و « أمالى » للرياضة ، كما رافقهم « جوستان » حاملا المظلات على كتفه ٠٠

بيد انهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئا يثير الفضول ٠٠ مساحة أرض واسعة ، خالية ، تناثرت فى أرجائها بين أكداس الرمل والحصى الملقاة فى غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ ٠ ووسط هذه الارض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة ٠٠ ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذى علقت باحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف فى الهواء بألوانها الثلاثة ٠٠ وانطلق « هوميه » يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من اهمية ، وما ستكون عليه أرضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك ٠٠ وأبدى أسفه اذ لم يكن يملك عصا للقياس كتلك التى كان السيد « بينيه » يقتنيها لأغراضه الخاصة !

وكان يتأبط ذراع « ايما » التى راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشىء ، لتتطلع الى الشمس التى كان قرصها يرسل من بعد - خلال الضباب - ضوءا أخذ يسطع فى شحوب ٠٠ وحانت منها التفاتة ، فرأت « شارل » قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ، مما أضفى على وجهه

مزيدا من الغباء !٠٠ حتى ظهره ٠٠ ظهره الساكن ٠٠ كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على « ردنجوته » مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفيما كانت تتأمله ، مستشعرة فى اشمئزازها لونا من المتعة الشاذة ، اقترب «ليون » خطوة ،وقد لاح أن البرد الذى أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء ٠٠ وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء ، تكشف ـ بين الرقبة ورباطها ـ عن بشرته ٠٠ وبرز طرف أذنه من خلال خصلة من الشعر ٠٠ وخيل لايما أن عينيه الواسعتين الزرقاوين ـ اللتين كانتا تتطلعان الى السحب ـ أكثر صفاء وجمالا من البحيرات الجبلية التى ينعكس لون السماء على مياهها !

وهتف الصيدلى فجأة : « يا للشقى ! » ٠٠ ثم عدا نحو ابنه الذى قفز الى كومة من الجير ليطلى حذاءيه بلون أبيض ٠٠ وراح « نابوليون » يصرخ اذ انهال عليه توبيخ أبيه ، بينما أسرع « جوستان » ينظف له حذاءيه بحزمة من القش. بيد أنه احتاج الى سكين ، فقدم اليه « شارل » واحدة ٠٠ واذ ذاك حدثت «ايما» نفسها قائلة : « آه ! ٠٠ انه يحمل سكينا فى جيبه كالفلاحين ! »

وتساقط الصقيع ، فعادوا الى « ايونفيل » ٠٠ ولم تذهب مدام « بوفارى » لزيارة جيرانها فى ذلك المساء ٠٠ واذ غادرها « شارل » وخلت الى نفسها ، عادت اليها المفارقة بوضوح الاحساس المباشر الذى يكاد يكون واقعا ، وبالعمق الذى تخلعه الذاكرة على الأشياء ! ٠٠ وتمثل لعينيها ـ وهى تتأمل من سريرها النار وهى تستعر صافية فى المدفأة ـ المنظر الذى رأته هناك ، وكأنه لا يزال أمامها : « ليون » وقد وقف يثنى عصاه باحدى يديه ، ويمسك « اتالى » باليد الأخرى ، وهى تستحلب فى هدوء قطعة من الثلج ٠٠ وبدا لها فاتنا ! ٠٠ ولما لم تستطع أن تنتزع نفسها عنه ، أخذت تستعيد مواقف أخرى له فى أيام غير ذاك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجرس صوته ، وكل كيانه ٠٠ ومضت تردد وهى تمط شفتيها كأنها تقبل أحدا : « أجل ٠٠ فاتن ٠٠ فاتن !٠٠ ألا تراه قد أحب ؟٠٠ ومن عساه أحب ؟٠٠ أنا ؟! »

وأخذت الأدلة تنبعث أمامها ، فقفز قلبها ٠٠ وألقى وهج النار على السقف ضوءا راح يتراقص فى مرح ، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها ٠٠ واذ ذاك بدأ الرثاء الأبدى : « أواه ٠٠ ليت السماء دفعته الى حبى ٠٠ ولم لا ؟ ٠٠ ما الذى يحول دون ذلك ؟! »

ولاحت ـ حين عاد « شارل » فى منتصف الليل ـ وكأنها استيقظت لتوها ٠٠ وشكت من صداع اذ أخذ يخلع ثيابه فى جلبة ، ثم سألته عرضا عما حدث فى السهرة فقال : « لقد غادرنا السيد ليون مبكرا وأوى الى غرفته » !

ولم تتمالك أن ابتسمت ، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها !

* * *

وعند غروب شمس اليوم التالى ، زارها السيد « لوريه » تاجر الاقمشة . وكان بائعا ماهرا ، ولد فى (جسكونيا) ولكنه نشأ فى (نورمانديا) كأحد أبنائها ، فجمع بين لباقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل (كو) . وكان وجهه السمين ، المتهدل ، الحليق ، يبدو وكأنه طلى بنقيع باهت من « العرقسوس » ، وقد زاد شعره الابيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء ! .. ولم يكن ثمة من يدرى ماضيه ، فهناك من يقول انه كان بائعا متجولا ، بينما يقول آخرون انه كان صرافا فى (روتو) .. على ان المحقق انه كان قديرا على أن يجرى فى ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها « بينيه » نفسه . وكان يغالى فى التأدب نفاقا ، فيقف محدودب الظهر كمن ينحنى للتحية او الدعوة !

وبعد أن ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقا اخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة - فى أدب جم - من انه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلا ان من الصحيح ان حانوته الفقير لم يكن اهلا لان يجتذب « سيدة أنيقة » - وضغط على هاتين الكلمتين - مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى ان تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأى شىء تبغيه من الخردوات أو الثياب الداخلية او القبعات او الكماليات ، لانه يتردد على المدينة بانتظام أربع مرات فى الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها..وتستطيع أن تسأل عنه فى «التروا فرير» - (الاخوة الثلاثة) - و « البارب دور » - (اللحية الذهبية) - و « الجران سوفاج » - (المتوحش الكبير) - فان اصحاب هذه المتاجر جميعا يعرفونه معرفتهم لما فى جيوبهم ! ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة - اذ مر بدارها - بضع سلع قدر له ان يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم أخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة ، فحصتها مدام بوفارى ثم قالت : « لست فى حاجة الى شىء ! » .. واذ ذاك عرض فى رفق ثلاثة من شيلان الجزائر ، وعدة مجموعات من الابر الانجليزية ، وزوجا من النعال القش ، وأخيرا ، أربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة . ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه ، وراح يرقب « ايما » - التى كانت تجول بين سلعه مترددة - وقد انحنى الى الامام وفغرفاه .. ومن وقت لآخر ، كان يمس بأظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها - وكأنه ينفض عنها غبارا - فكانت تهتز فى حفيف ضئيل ، وتبرق الخيوط المذهبة التى تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض فى ضوء الغسق الضارب الى الخضرة .. وسألته أخيرا : « ما ثمنها ؟ » .. فأجاب : « لاشىء فى الواقع .. ثمن ضئيل لا يذكر .. ولا داعى للعجلة ، بل ادفعى حين يحلو لك .. فلسنا يهودا ! »

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت الى رفض ما عرض المسيو « لوريه » من

جديد ، فأجاب غير آبه لرفضها : « حسنا ٠٠ سيفهم كل منا الآخر شيئا فشيئا ٠٠ لقد اعتدت دائما أن أوفق الى ارضاء السيدات ، وان لم أفلح فى ارضاء زوجتى ! »

وابتسمت « ايما » ، بينما استطرد قائلا فى طيبة قلب ، بعد النكتة : « انما احببت ان انبئك بان النقود ليست بالشىء الذى يقلقنى ، بل اننى على استعداد لان اقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة اليه ! »

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة ، فبادر قائلا بصوت خفيض : « آه ، لن اضطر الى أن أذهب بعيدا للحصول على ما تريدين ، فاركنى الى ! »

وتحول يسأل عن الاب « تيلييه » ـ صاحب « المقهى الفرنسى » ـ الذى كان السيد « بوفارى » يعالجه : « ما بال الاب تيلييه ؟ ٠٠ انه ليسعل حتى يهز بيته بأسره ، واخشى أن لا يمضى طويل وقت حتى يكون اكثر حاجة الى كفن منه الى صدار من « الفانيلا » ! ٠٠ لقد كان فى شبابه مسرفا فى العربدة ! ٠٠ هؤلاء الناس يا سيدتى لا يعرفون الاعتدال ، لقد أحرق نفسه بكحول الخمر ٠٠ على انه من المحزن ـ مهما يكن الأمر ـ أن يرى المرء أحد معارفه يفنى ! »

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم أردف وهو يتأمل الارض عابسا : « ان الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض ٠ فأنا الآخر أشعر بتوعك ، وما أرانى الا مضطرا لان استشير الطبيب يوما ما بشأن ألم بظهرى ٠ حسنا يا مدام « بوفارى » ٠٠ استودعك الله٠٠ انى خادمك الخاضع فى خدمتك !» ٠٠ واغلق الباب فى رفق

وطلبت « ايما » أن يحمل اليها العشاء على صفحة لتتناوله الى جوار المدفأة فى مخدعها ٠٠ وقضت وقتا طويلا فى الاكل ، اذ كانت راضـية عن كل شىء ٠٠ وقالت لنفسها وهى تفكر فى الشيلان : « ما كان أحكم تصرفى ! »

وسمعت خطى على السلم ، فادركت أن القادم « ليون » ، ونهضت فتناولت من الصوان أول صف من المنافض التى لم تثن أطرافها بعد ٠٠ فلما وصل ، بدت جد منهمكة فى العمل ٠ ودار الحديث بينهما متراخيا ، اذ كانت مـدام « بوفارى » تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكا ٠٠ وأخذ يقلب علبة « الكستبان » العاجية بين أصابعه ، وهو جالس على مقعد منخفض الى جـوار المدفأة ، وهى ماضية فى التطريز ، تطوى ـ من آن لآخر ـ طرف القمـاش بظفرها ، دون أن تتكلم ٠ ومن ثم لزم هو الآخر الصمت ، وقد أسره سكوتها ، كما كان من الممكن ان يأسره حديثها ! ٠٠ وقالت تحدث نفسها : « يا للشاب المسكين ! »

على أن « ليون » لم يلبث أن قال انه مضطر لان يذهب الى (روان) يوما فى بعض مهام عمله ، وأردف : « لقد انتهى اشتراكك فى الموسيقى ، فهل أجدده

لك ؟ » .. فأجابت : « لا ».. وسألها « لماذا ؟ » .. فقالت : « لأن ... »

ثم زمت شفتيها وأخذت تشد الخيط الرمادى فى غرزة طويلة .. وكان عملها هذا يضايق « ليون » ، اذ بدا انه يؤدى الى تخشين أناملها ! .. وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها .. بل قال : « اذن فسوف تستغنين عنها ؟ » .. فقالت : « ماذا ؟ » .. ثم اردفت بسرعة : « الموسيقى ؟.. آه !.. اجل !.. أليس لدى بيتى أرعاه ، وزوجى أعنى به ، وألف شىء .. وكثير من الواجبات التى يجب أن أؤديها أولا ؟ »

ونظرت الى الساعة ، فاذا « شارل » قد تأخر ، واذ ذاك تظاهرت بالقلق .. بل لقد رددت مرتين أو ثلاثا : « لكم هو طيب ! » .. وكان الكاتب يحب السيد « بوفارى » ، ولكن حنان زوجته نحوه أدهشه وساءه . ومع ذلك فقد أخذ يمتدحه ويقول ان كل امرىء – لا سيما الصيدلى – يثنى عليه .. فعادت «ايما» تردد : « آه .. انه طيب ! » .. واجاب الكاتب : « حقا ! » .. وشرع يتحدث عن مدام « هوميه » التى كان اسرافها فى اهمال مظهرها يثير ضحكهما ، فقاطعته « ايما » قائلة : « وما قيمة ذلك ؟ .. ان ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها » .. ثم أخلدت الى الصمت !

وتكررت الحال فى الايام التالية .. حديثها ، ومسلكها ، وكل شىء فيها قد تغير . وأخذت تبدى اهتماما بشئون منزلها ، وتذهب الى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها فى مزيد من الشدة . واستردت طفلتها « برت » من المرضعة. وكانت « فيليسيته » تحملها – اذا وفد ضيوف – فتخلع مدام « بوفارى » عنها ثيابها لتعرض أطرافها ، وتردد انها تعبد الاطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها .. وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بأن تذكر أى فرد – عدا سكان (ايونفيل) – بساشيت فى رواية « نوتردام دى بارى » (١)

وأصبح « شارل » يجد خفيه – حين يعود الى الدار – وقد وضعا الى جوار المدفأة ليكتسبا دفئا ! .. ولم يعد صداره يفتقد البطانة ، ولا أقمصته تعوزها الازرار .. وكان يسره ان يرى الطاقيات فى الصوان وقد انتظمت فى صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد « ايما » تتذمر من المساهمة فى الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح ، وان لم تفهم الرغبات التى كانت تنصاع لها دون تململ . وكان «ليون» حين يرى الزوج الى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ، وقدماه على حافة المدفأة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المرأة ذات الخصر

---

(١) كانت ساشيت راهبة تحدث عنها « فيكتور هيجو » فى روايته الخالدة : « أحدب نوتردام » .

النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة .. كان « ليون » حين يرى هذا ، يقول لنفسه : « يا له من جنون ! .. وكيف السبيل اليها ؟! »
كانت بأعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد فقد كل أمل . ولكنه - بهذا التحول - أنزلها مكانا غير عادى ، اذ أصبحت فى نظره مجردة من مفاتنها البدنية التى لم ينل منها شيئا ، ومن ثم أخذت تسمو فى قلبه ، وتبعد عن متناوله كروح الهية تحلق عاليا ! .. وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التى لاتمت الى الحياة الدنيوية ، والتى يتعهدها المرء فى نفسه لانها نادرة ، ويخلف فقدها من الحزن أكثر مما يضفيه من اللذات !
وأخذت « ايما » تزداد نحولا ، وخداها يزدادان شحوبا ، ووجهها يستطيل . ألم تصبح بشعرها الاسود ، وعينيها الواسعتين ، وانفها الاقنى ، ومشيتها التى تشبه حجل الطير ، والسكون الذى أصبحت تخلد اليه .. أو لم تكن تبدو - بهذا كله - وكأنها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها ، وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسى ؟! .. كانت جد حزينة وهادئة، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة، حتى ليشعر المرء الى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه .. كما يحدث لنا فى الكنائس حين يبعث أريج الزهور فى امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة فى أبداننا ! .. بل ان الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة ، حتى لقد قال الصيدلى : « انها امرأة عظيمة المواهب .. ما كان ينبغى أن تعيش فى بلدة صغيرة ! »
وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بأدبها ، والفقراء ببرها .. ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء ! .. كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفى قلبا حائرا ، لا تنفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شىء من عذابه .. كانت تهوى « ليون » وتنشد العزلة لتسعد بطيفه فى طمأنينة !.. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها !.. كانت تهتز طربا لوقع خطواته ، ثم يخمد الانفعال فى حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهى الى أسى طاغ !

* * *

. ولم يكن « ليـــون » يعلم انها كانت - اذا غادرها قانطا - تنهض بعد انصرافه لترقبه فى الطريق .. وانها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل انها لفقت قصة محبوكة لتجد عذرا يبرر لها زيارة غرفته .. وبدت لها زوجة الصيدلى سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذى يأويه ! .. وأخذت أفكارها تحوم دائما حول ذلك البيت ، كحمائم فندق « الأسد الذهبى » التى كانت تاتى لتغمس أرجلها الوردية وأجنحتها البيضاء فى ميـــاه ميازيبه . على أن « ايما » كانت تزداد كبتا لحبها كلما ازدادت ادراكا له ، حتى لا يتجلى واضحا ، وحتى تســتطيع ان تضعفه ! .. كانت تود ان يحدسه « ليون » من تلقاء

نفسه ، وتتصور ما يمكن ان ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الاولى سوى الكسل ، والخوف .. وشعور بالحياء أيضا ! .. وخيل اليها انها قد تمادت فى صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شىء .. واذ ذاك ، كانت تجد فى الكبرياء ، وفى البهجة التى تراودها اذ تملك أن تقول لنفسها : « أنا امرأة فاضلة » ، وان تتأمل نفسها فى المرآة متخذة أوضاع الاذعان والاستكانة .. كانت تجد فى كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التى اعتقدت انها كانت تقوم بها !

ثم أخذت شهوات الجسد ، وجشع المال ، وأشـجان العاطفة ، تختلط جميعا فى نوع واحد من العذاب، كانت تزداد استكانة اليه ــ بدلا من أن تنتزع نفسها منه ــ مستحثة نفسها على الشعور بالألم ، باحثة فى كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل اذا اسىء تقديم صنف من الطعام ، أو اذا رأت بابا منفرجا ، وتندب ما لا تملكه من مخمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن متناولها من أحلام ، وما كان عليه بيتها من ضيق !!

وأغاظها ان « شارل » لم يبد أى انتباه الى عذابها .. وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة اهانة وقحة ، واطمئنانه الى هذا الاعتقاد جحودا .. فمن أجل من اذن كانت عفتها وفضيلتها ؟!.. أو لم تكن من أجله هو ؟!.. هو الذى كان حجر العثرة فى سبيل كل سعادة ، والسبب فى كل تعاسة .. والذى كان كالمحبس المدبب يحكم اغلاق ذلك الطوق المعقـد اللعين الذى يطبق عليها من كافة النواحى ! .. لذلك صبت عليه وحده كل تلك الأحقاد العديدة التى تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الاحقاد انما يضاعفها ، اذ كان المجهود الضائع يضيف سببا جديدا لخيبة الأمل ، ويزيد الهوة بينهما عمقا ! .. وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمردا على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها الى أحلام ملؤها البذخ ، كما كانت المـلاطفات الزوجية تسلمها الى شهوات داعرة ! .. ولكم ودت لو ان « شارل » ضربها حتى تجد مبررا لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه ! .. وكانت تذهل أحيانا للخيالات الفظيعة التى كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من ان تستمر فى الابتسام ، وان تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها فى كل الاوقات، وان تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقد أنها سعيدة !

على انها كانت تشعر باشمئزاز من هذا النفاق . وتملكها اغراء راح يزين لها الفرار الى مكان ما ، مع « ليون » ، لتبدأ حياة جديدة .. ولكن هـوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث ان تنشق فى أعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : « ثم انه ــ الى جانب هـذا ــ لم يعد يحبنى ، فماذا يصيبنى ؟.. أى عون يرجى .. أى عزاء .. أية تسرية ؟ » .. وتخرج من هذا كله محطمة ، لاهثة ، عاجزة ، فتنتحب فى صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !

وكانت الخادم تسالها اذا اقبلت عليها خلال هذه الأزمات : « لم لا تخبرين السيد بهذا ؟ » .. فتجيبها « ايما » : « انها الأعصاب ! .. لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الهموم »

وتقـول « فيليسيتيه » : « آه ، حسن !.. انك مثل « لاجيرين » ابنـة الأب « جيران » صياد السمك فى (بوليه) ـ التى كنت اعرفها فى (دييب) قبل ان آتى اليكما .. كانت جد حزينة ، مفرطة الحزن ، حتى ليخالها المرء ـ حين يراها على عتبة دارها ـ كفنا مبسوطا امام الباب ! .. وكان مرضها على ما يبدو نوعا من الضباب ينتشر فى رأسها . ولم يستطع الأطباء ، ولا القس ، ان يفعلوا شيئا .. وكانت اذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة الى شاطىء البحر ، فكان ضابط الجمرك يراها كثيرا ـ أثنـاء طوافه ـ منكفئة على الحصى تبكى . ثم قيل انها شفيت بعد الزواج » !

وتعقب « ايما » قائلة : « اما أنا ، فقد بدأ مرضى بعد الزواج » !!



الفصل السادس

◆ بينما كانت « ايما » جالسة الى جوار النافذة المفتوحة ، فى احدى الأمسيات ، رات « ليستيبودوا » ـ الشماس ـ يشذب أغصان حديقة القس . ولم تلبث ان سمعت الناقوس يدق معلنا صلاة المساء ..

وكان ذلك فى أوائل ابريل ، حين تتفتح البراعم ، وتهب ريح دافئة على أحـواض الزهور التى تم حرثها منذ عهـد قريب .. والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف.ومن بين أعمدة العرائش ، وحولها من كل النواحى ، كان النهر يرى فى الحقول ، هائما بين العشب فى انحناءات مرتجلة .. وأبخرة المساء تتصاعد بين أشجار الحور المجردة من أوراقها ، فتضفى على اطارها لونا بنفسجيا ، أشد شحوبا وشفافية من شاش رفيع يعلق بين أغصانها .. وكانت الماشية تبدو عن بعد وهى تتحرك دون ان يسمع لها خطو ولا خوار .. والناقوس ماض فى رنينه ، ناشرا فى الهواء شجاه وحزنه الوديع !

وعـلى رنين دقاته المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة فى ذكرياتها القديمة ، أيام الشباب والدراسة فى الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التى كانت تبدو من وراء الأوانى المليئة بالأزهار فوقُ المذبح ، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة .. وتمنت لو انها ظلت كمـــا كانت اذ ذاك ، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذى كانت تتخلله ـ هنا وهناك ـ بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكع .. ثم قداسات أيام الأحد ، حين كانت ترفع رأسها أثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب ، وسط غلالات الدخان المائلة الى الزرقة ، التى كانت تتصاعد من المباخر ! .. اذ ذاك جاشت

عواطفها ، فأحست بأنها ضعيفة ، مهجورة ، كريشة فى مهب العاصفة ٠٠ وسعت ـ دون وعى منها ـ الى الكنيسة ، تواقة الى أية فرائض تتاح لها ، كى تذيب روحها فيها ٠٠ فيتلاشى الوجود !!

والتقت فى الميدان المؤدى الى الكنيسة بليستيبودوا عائدا ٠٠ فقد كان يؤثر ان يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلا من ان يتحيف ساعات العمل اليومية ٠٠ حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه ٠٠ فضلا عن ان دقه مبكرا عن موعده كان ينبه الصبية الى موعد درس الدين !

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلا ، وراحوا يلعبون « البلى » على بلاط المقابر ، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور « بنات النار » التى نمت بين السور والمقابر المتاخمة له ٠٠ هذا هو المكان الوحيد الذى تشيع فيه الخضرة ٠ أما ما عداه ، فلم يكن سوى أحجار يكسوها دواما غبار ناعم ، رغم مكنسة الشماس ! ٠٠ وكان الصبية يعدون فى ارجاء المكان بأحذيتهم ذات الأعناق الطويلة ، وكأنه ساحة أعدت لهم ، وأصواتهم تعلو خلال رنين الناقوس الذى أخذ يخفت رويدا تبعا لاهتزازات الحبل الطويل الذى كان يتدلى من البرج ، فيتجرر طرفه على الارض ٠٠ وأخذت بعض الطيور تحوم ، مرسلة صرخات رفيعة ، وتشق الهواء بحواف أجنحتها ، ثم ترتد فى رشاقة الى أعشاشها الصفراء ، تحت قرميد حافة البناء البارزة ٠٠ وفى أقصى الكنيسة كان ثمة مصباح يتقد ، أو بالأحرى فتيلة فى زجاجة معلقة يلوح ضوؤها من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت ٠٠ بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة كله ، فزاد من ظهور ظلام جانبيها وأركانها ٠٠

وسألت مدام « بوفارى » صبيا كان يلهو بهز مزلاج الباب فى عروته الواسعة: « أين القس ؟ » ٠٠ فأجاب الصبى : « هاهو ذا قادم »

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس ٠ وما لبث الأب «بورنيزيان» أن ظهر ، فهرع الأطفال الى الكنيسة فى هرج ٠٠ وتمتم القس : « يا لهؤلاء الأوغاد ! ٠٠ انهم دائما على هذه الحال ! » ٠٠ ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال : « انهم لا يحترمون شيئا ! »

على انه لم يكد يلمح مدام « بوفارى » حتى هتف : « معذرة ! ٠٠ لم أتبينك ! » ٠٠ ودس كتاب الصلوات فى جيبه ، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول ان يوازنه بين اصبعيه ٠٠ وفى ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه ، بدا مسوحه الصوفى حائل اللون ، لامعا عند المرفقين ، باليا عند الذيل ٠٠ وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التى ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر ، المتهدل ، الذى تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب ٠٠ وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء ،

فراح يتنفس بصوت مسموع ٠٠ وعاد يقول : « كيف حالك ؟ »

فأجابت « ايما » : « ليست طيبة ٠٠ انني مريضـــة ! » ٠٠ ورد القس قائلا : « وأنا كذلك ٠٠ ان أيام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة ٠٠ أليست كذلك ! ٠٠ لكنا على كل حال خلقنا لنتعذب ، كما يقول بولس الرسول ٠ ولكن ، ما رأى السيد بوفارى فى مرضك ؟ »

فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : « هو ؟! » ٠٠ فقال الرجل الطيب وقد أخذته الدهشة : « ماذا ؟ ٠٠ أولم يصف لك دواء ؟ »

فقالت « ايما » : « آه ٠٠ ليس الذى احتاج اليه بعلاج دنيوى ! »

ولكن القس كان ينظر من آن الى آخر نحو الكنيسة ، حيث ركع الأطفال وأخذوا يتدافعون بالمناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق ٠٠

ومضت « ايما » تقول : « أريد ان أعرف ٠٠٠ »

وهنا صاح القس فى صوت غاضب : « حذار يا ريبوديه ٠٠ لسوف ألهب اذنيك أيها الشيطان ! » ٠٠ ثم قال اذ تحول نحو « ايما » : « انه ابن بوديه النجار ٠٠ والداه فى يسر ، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له ٠٠ على ان بوسعه أن يتعلم بسرعة لو انه أراد ، فهو شديد الذكاء٠٠وكيف حال السيد بوفارى ؟»

ولاح انها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قائلا : « لا ريب انه جم المشاغل دائما ٠٠ فهو وأنا أكثر الناس عملا فى الأبرشية ٠٠ هو طبيب الأجسام » ٠٠ ثم أردف وهو يطلق ضحكة أجشة : « وأنا طبيب الأرواح ! »

وحدجته «ايما» بعينين ضارعتين وهى تقول : « أجل٠٠انك تخفف الاحزان ! »

– آه يا مدام بوفارى ٠٠ لا تحدثينى عن ذلك ، فقد اضطررت فى هذا الصباح الى الذهاب الى (باديوفيل) من أجل بقرة كانت مريضة ، فظنوا انها كانت تحت تأثير الشيطان ٠٠ كل أبقارهم هكذا ، وان لم أدر لهذا مبررا ! ولكن ، معذرة ٠٠ » ثم التفت نحو الصبية وصاح : « لونجمار وبوديه ٠٠ هلا كففتما عن هذا ؟ » ٠٠ وقفز مسرعا الى داخل الكنيسة

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الـــكبير ، وتسلقوا مقعد المنشد ، وفتحوا كتاب القداس ، بينما أخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كاد يبـــلغ جوف « مقصورة الاعتراف » ٠٠ ولكن القس انهـــال عليهم فجأة بوابل من الصفعات ، ممسكا بتلابيب ستراتهم ، وأخذ يرفعهم عن الارض ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة ، كما لو كان يريد أن يغرسهم فيها !

وقال حين عاد الى « ايما » وهو ينشر منديله القطنى ، ويمسك بأحد أطرافه بين أسنانه : « أجل ٠٠ ما أجدر المـــزارعين بالرثاء ! » ٠٠ قالت : « وغيرهم أيضا ! »

– بالتأكيد ٠٠ هناك عمال المدن مثلا

ـ لست أقصدهم ...
ـ عفوا !.. لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يعلن أسرات .. ونساء فاضلات ـ بل أؤكد لك انهن قديسات فعلا ـ لا يجدن الخبز !
فقالت « ايما » وقد أخذ جانبا فمها يختلجان وهى تتكلم : « ولكن أولئك .. أولئك اللاتى يجدن الخبز يا سيدى القس ، ولا يجدن ... »
قال : « النار فى الشتاء » ؟!
ـ أواه .. وما قيمة هذا ؟
ـ ماذا ؟.. ما قيمته ؟.. يخيل الى انه اذا ما وجد المرء الدفء والغذاء .. اذ .. على كل حال ..
فتنهدت قائلة : « يا الهى ! يا الهى ! »
ـ انك تعانين من عسر هضم ولا ريب .. يجب أن تعودى الى دارك يا مدام « بوفارى » فتشربى قليلا من الشاى ، فانه يقويك .. أو تناولى كوبا من الماء البارد الممزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقود)
وتساءلت « ايما » وقد بدت كمن يفيق من حلم : « لماذا ؟ » .. فقال : « ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيل الى انك تشعرين بدوار » .. ثم استدرك قائلا : « ولكنك كنت تسألينني عن شيء .. فما هو ؟.. انني لا أذكره »
فرددت « ايما » : « انا ؟ .. لاشيء ! لاشيء ! » .. ووقع بصرها ـ اذ أجالته ببطء فيما حولها ـ على مسوح القس .. ثم عاد كل منهما يحدق فى الآخر صامتين . وما لبث أن قال فى النهاية : « والآن ، معذرة يا مدام بوفارى ، فان الواجب قبل كل شيء ، كما تعلمين ، ولابد من أن أتولى علاج تلاميذى هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء ، فان حفلة « التناول » الاولى قادمة عما قريب ، وأخشى أن تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا .. ولذلك استبقيهم ساعة بالاضافة الى الفترة المحددة للدرس فى يوم الاربعاء من كل أسبوع ، منذ عيد الصعود ، فى مواظبة قاسية .. يا للمساكين !.. ان المرء لا يملك أن يرشدهم بسرعة كبيرة الى طريق الرب ، كما أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس .. لك تمنياتى ياسيدتى بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتى ! »
ودلف الى الكنيسة وهو يثنى ركبته احتراما عند الباب .. ورأته « ايما » يغيب بين صفى المقاعد ، وهو يسير بخطى ثقيلة ، ورأسه مائل على كتفه قليلا ، ويداه مبسوطتان ، وقد أخرجهما من المسوح .. وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل جسمها ـ قطعة واحدة ـ كتمثال على قاعدة تدور ، ويممت شطر بيتها . غير أن صوت القس المرتفع ، واصوات الاطفال الصافية ، ظلت تصل الى أذنيها وتلاحقها .. « هل أنت مسيحى ؟ » .. « نعم ، أنا مسيحى » ..« ومن هو المسيحى ؟ » ..« هو ذلك الذى عمد .. عمد .. عمد »!!

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز (الدرابزين) ، حتى اذا بلغت حجرتها ألقت بنفسها فى مقعد مريح ٠٠ وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط فى تموجات خفيفة ٠٠ ولاحت قطع الاثاث فى أماكنها أكثر جمودا مما هى عادة ، وأشد تواريا فى الظلال وكأنها تغوص فى بحر من الظلمات ٠٠ والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة فى دقاتها ٠ وساور « ايما » عجب غامض لهذا الهدوء الذى يسود كل الاشياء ، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب !٠٠ وفطنت الى أن « برت » الصغيرة كانت هناك ـ بين النافذة ومنضدة الحياكة ـ تتأرجح على حذاءيها المنسوجين باليد (تريكو) ، وتحاول أن تسعى الى أمها لتمسك بأطراف أشرطة مرولتها ٠٠ فقالت وهى تنحيها بيدها : « دعينى وشأنى ! »

على أن الصغيرة لم تلبث أن اقتربت من ركبتى امهـا ، فأستندت اليهما بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من اللعاب أخذ يتساقط على مرولتها الحريرية ٠٠ فكررت الشابة فى ضيق : « دعينى وحدى ! » ٠٠ وأفزع وجهها الطفلة ، فأخذت تصرخ ٠٠ ولكزتها الأم بمرفقها قائلة : « هلا تركتنى وحيدة ؟ » ٠٠ وسقطت « برت » عند قاعدة الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسى خدها ، الذى شرع ينزف دما ٠ ووثبت مدام « بوفارى » لترفعها ، وقطعت حبل الجرس ، فنادت الخادم بأعلى صوتها ٠٠ وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر « شارل » ، اذ كانت ساعة العشاء قد حانت ، فعاد الى البيت ٠٠

وقالت « ايما » فى صوت هادىء : « انظر يا عزيزى ! ٠٠ لقد وقعت الصغيرة وهى تلعب ، فجرحت نفسها » ٠٠ فطمأنها « شارل » الى ان الأمر ليس خطيرا ، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة (البلاستر)

ولم تهبط مدام « بوفارى » الى قاعة الطعام ، اذ رغبت فى ان تخلو للعناية بالطفلة ٠ واذ أخذت ترقبها وقد نامت ، زايلها رويدا ما احست به من قلق، وبدا لها انها كانت غبية وساذجة اذ داخلها كل ذلك الانزعاج لأمر بسيط كهذا ٠ فالواقع ان « برت » لم تعد تشهق بنهنهة البكاء ، بل ان أنفاسها أخذت ترفع فى رفق الغطاء القطنى الذى أسبغته عليها أمها ٠٠ وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها نصف المغمضة ، التى كان المرء يلمح بين أهدابها حدقتين شاحبتين ، غائرتين ٠٠ والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدها فى خط منحرف ٠ وعبر خاطر ببال « ايما » ، فقالت لنفسها : « يا عجبا !٠٠ ما أقبح هذه الطفلة ! »

وعندما عاد « شارل » فى الساعة الحادية عشرة من الصيدلية ـ حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة ـ وجد زوجته تقف الى جوار المهد، فقال وهو يقبل جبينها : « قلت لك انها اصابة تافهة ، فلا تنزعجى

يا حبيبتى المسكينة ، والا أسلمت نفسك للمرض » .. وكان قد مكث طويلا فى بيت الصيدلى ، اذ جهد « هوميه » فى التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم انه لم يبد كثيرا من القلق والتأثر .. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التى يتعرض لها الأطفال ، وعن اهمال الخدم . وكانت مدام «هوميه» على دراية بشىء من هذا ، اذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء ملىء بالحساء الساخن ، أسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى ، فتجشم أبواها من أجلها متاعب لما تكد تنتهى ! ومن ثم أصبحت السكاكين - فى منزل الصيدلى - لا تشحذ قط ، والأرض لا تدهن بالشمع ، وأقيمت قضبان على النوافذ ، وقضبان أخرى متينة من الحديد أمام المدفأة .. وكذلك أصبح أبناء « هوميه » لا يكادون - رغم حريتهم - يتحركون دون رقيب يرعاهم . وكان أبوهم « يحشوهم » بأدوية الصدر عند أتفه اصابة بالبرد .. كما كانوا - حتى سن الرابعة - يقسرون فى غير اشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر .. وكان هذا تطرفا من مدام « هوميه » فى الواقع ، مما كان يبعث فى نفس زوجها قلقا ، اذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على أجهزة الرأس ، حتى لقد كان يقول لها أحيانا : « أتريدين ان تجعلى منهم فرقة من الهنود الحمر أو من قبائل حوض البحر الكاريبى ؟! »

وحاول « شارل » ان يقطع الحديث أكثر من مرة ، فهمس فى اذن الكاتب : « أود ان أتحدث اليك فى أمر » .. فتقدمه الكاتب صاعدا السلم وهو يسائل نفسه : « أتراه قد حدس شيئا ؟ » .. وأخذ قلبه يخفق ، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات .. وأخيرا ، رجاه « شارل » - بعد ان أغلق الباب - ان يسأل بنفسه فى (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة ، اذ كان يود ان يعد لزوجته مفاجأة عاطفية .. لفتة رقيقة تتمثل فى صورة له وهو يرتدى الحلة السوداء . ولكنه أراد أولا ان يعرف كم تتكلف .. وما كان السؤال ليضايق السيد « ليون » فى شىء ، اذ كان يذهب الى المدينة فى كل أسبوع تقريبا

ولكن .. لماذا « ليون » بالذات ؟! .. حدس السيد « هوميه » ان وراء المسألة مغامرة من مغامرات الشباب .. أو مؤامرة ! .. ولكنه كان مخطئا ، اذ ان السيد « ليون » لم يكن يسعى الى غرام .. بل انه كان أكثر اكتئابا منه فى أى وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام « لوفرانسوا » من كمية الطعام التى اصبح يتركها فى طبقه . وقد سألت محصل الضرائب عله يزيدها علما وايضاحا ، ولكن « بينيه » أجابها فى جفاء بأنه « لا يعمل فى البوليس » !

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله فى حال جد غريبة ، اذ كثيرا ما كان « ليون » ينطرح فى مقعده ، ويمد ذراعيه ، ويشكو من الحياة فى اسلوب غامض ! .. وقد قال له المحصل : « انما يرجع ذلك الى انك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية » ..

ـ اية تسلية ؟
ـ لو كنت فى مكانك لهويت العمل بالمخرطة ٠٠
قال الكاتب : « ولكنى لا أعرف كيف أديرها » ٠٠ فرد الآخر وهو يحك ذقنه فى مزيج من الترفع والرضى : « آه ٠٠ هذا صحيح ! »

* * *

◆ كان « ليون » قد برم بالحب الذى لا غاية له ، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذى يسببه مضى الحياة على وتيرة واحدة متكررة ، دون ما هدف يوجهها ، أو أمل يعززها ٠ واشتد به الملل من « ايونفيل » وأهلها ، حتى أصبحت رؤيته بعض الأشخاص والبيوت ، تثيره الى درجة لم يعد يحتملها ! ٠٠ وقد كان الصيدلى رجلا طيبا ، الا انه أصبح لا يطيقه البتة ٠٠ ومع ذلك فان التفكير فى نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! ٠٠ وتحولت هذه الهواجس بعد قليل الى نفاد صبر ، واذ ذاك أخذت باريس تناديه ـ على البعد ـ بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ، وضحكات عاملاتها اللعوبات ! ٠٠ واذ كان لا بد له من ان يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل اليها لتوه ؟٠٠ وما الذى يمنعه ؟ ٠٠ وشرع يعد متاعه ، ودبر أعماله مقدما ، وأثث فى خياله مسكنا يعيش فيه حياة فنان ٠٠ فيتلقى دروسا فى العزف على « الجيتار » ، ويقتنى « روب دى شامبر » ، وقلنسوة على غرار قلنسوات أهل (الباسك) ، وخفين من المخمل الأزرق ! ٠٠ بل انه بدأ يتصور فى اعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما « جيتار » تعلوها جمجمة !

وكانت العقبة تنحصر فى الفوز بموافقة أمه ٠٠ على انه لم ير ما هو أحكم من هذا التدبير ٠٠ بل ان رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه ان يحرز تقدما سريعا فى مرانه ودراسته ٠ واذ ذاك ، انتهج « ليون » طريقا وسطا ، فأخذ يبحث عن مكتب فى (روان) يقبله ككاتب ثان ، فلما لم يجد ، كتب الى أمه فى النهاية خطابا طويلا مسهبا شرح فيه أسباب مبادرته للرحيل الى باريس والاقامة فيها ٠٠ فوافقت ! ٠٠ على انه لم يتعجل ٠٠ وظل « هيفير » شهرا بأكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) الى (روان) ، ومن (روان) الى (ايونفيل) صناديق ، وحقائب ، وحزما ٠٠ حتى اذا أعد « ليون » ثيابه ، وجدد حشو مقاعده المريحة الثلاثة ، واشترى عددا من ربطات العنق ، وقام ـ بالاختصار ! ـ باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول العالم ، أخذ يرجىء سفره من أسبوع الى آخر ، حتى تلقى من أمه خطابا ثانيا تستحثه فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم ان يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكت مدام « هوميه » ، وانتحب « جوستان » ، واخفى « هوميه » تأثره ـ كرجل قوى الأعصاب ! ـ ورغب فى ان يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذى كان سيقل « ليون » فى عربته

الى (روان) ٠ ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد « بوفارى » ٠ فلما بلغ قمة السلم ، توقف وقد تتابعت أنفاسه لاهثة ٠٠ واذ دلف الى المكان، نهضت مدام « بوفارى » فى عجلة ، فقال ليون : « ها أنذا مرة أخرى » ٠٠ فقالت : « كنت متأكدة من هذا » ٠٠ وعضت شفتيها ، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت ـ من منابت شعرها حتى طوق ثوبها ـ بالحمرة ٠ وظلت واقفة ، مستندة بكتفها الى الخشب الذى كان يكسو الجدار ٠٠ بينما مضى متسائلا : « هل الطبيب هنا ؟ » ٠٠ فأجابت : « انه فى الخارج ٠٠ فى الخارج ! » ٠٠ ثم سادهما صمت ٠٠ وأخذ كل منهما يرمق الآخر ، وقد رزحت أفكارهما تحت ألم واحد ، متعانقة كصدرين ينبضان ٠٠ ثم قال « ليون » : « أود ان أقبل برت » ٠٠ فهبطت « ايما » بضع درجات ونادت « فيليسيتيه » ٠٠ وألقى نظرة طويلة على ما حوله من جدران ، وزخارف ، ومدفأة ، وكأنه ينفذ خلال كل شىء ، ويحمل معه كل شىء ! ٠٠ وعادت الخادم تحمل « برت » وهى تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأسا على عقب ومعلقة فى خيط ٠ وطبع « ليون » عدة قبلات على عنقها وغمغم : « فى رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة ! ٠٠ استودعك الله أيتها الصغيرة الحبيبة ! ٠٠ وداعا ! » ٠٠ ثم ردها الى أمها ، فقالت للخادم : « اخرجى بها » ٠٠ وبقيا وحيدين ، وقد أولته مدام « بوفارى » ظهرها ، والصقت وجهها بزجاج النافذة ٠٠ بينما أمسك « ليون » بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق ٠٠

وقالت «ايما» : « السماء ستمطر ! » ٠٠ فأجاب : « لدى معطف » ٠٠ قالت : « آه » ٠٠ ثم استدارت ، وقد خفضت ذقنها ، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضوء ـ كما يسقط على قطعة من مرمر ـ فانحدر حتى حاجبيها ، دون ان يملك المرء ان يحدس ما كانت « ايما » تراه عند الأفق ، ولا ما كان يجول فى سريرتها ٠٠ وما لبث « ليون » أن تنهد قائلا : « والآن ٠٠ وداعا ! » ٠٠ فرفعت « ايما » رأسها بحركة سريعة وقالت : « أجل ، وداعا ٠٠ اذهب ! » ٠٠ وتقدم كل منهما نحو الآخر ، ومد يده ، ولكنها ترددت ٠٠ ثم قالت وهى تسلمه يدها ، وتغتصب ضحكة : « فليكن على الطريقة الانجليزية اذن ! » ٠٠ وتحسس « ليون » راحتها بين أصابعه ، ولاح له ان روح كيانه كله قد انسابت الى يدها الرطبة ٠٠ ثم فتح يده ، وتلاقت أعينهما مرة أخرى ٠٠ ثم اختفى !٠٠ حتى اذا بلغ السوق ، انحرف متواريا خلف عامود ، وتزود بنظرة أخيرة من البيت الأبيض ذى النوافذ الخضراء ٠٠ وخيل اليه انه رأى طيفا خلف نافذة حجرة « ايما » ، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن شخصا أخذ يزحزحها ، فراحت تنسدل رويدا ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها أمام النافذة ، وظلت مسدلة فى استقامة ودون ما حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق « ليون » يعدو ٠٠ ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق ، والى

جوارها رجل فى مرولة سميكة ، يمسك بالجواد .. وكان « هوميه » والسيد « جويومان » يتحدثان .. ريثما يصل ! .. وقال له الصيدلى والدموع تترقرق فى عينيه : « قبلنى ! .. هاك معطفك يا صديقى العزيز .. خذ حذرك من البرد ، واحترس لنفسك .. اعتن بنفسك ! » . وقال موثق العقود : « هيا يا ليون .. اصعد ! » .. وانحنى « هوميه » على « رفرف » العربة ، ونطق بهاتين الكلمتين الحزينتين بصوت يقطعه النشيج : « رحلة سارة ! » .. فأجابه السيد « جويومان » : « عم مساء ! »

وتحركت العربة .. وقفل « هوميه » عائدا

★ ★ ★

◆ كانت مدام « بوفارى » قد فتحت النافذة المطلة على الحديقة واخذت ترقب السحب ، فاذا هى تتجمع حول الشمس الغاربة فى اتجاه (روان) ، ثم تطوى بسرعة ذيولها السوداء ، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب فى درع معلقة ، بينما كانت بقية السماء خالية ، بيضاء كالخزف .. على ان الريح لم تلبث ان هبت فأحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر فى صوت مسموع .. ثم عادت الشمس الى البزوغ ، فانبعث صوت الدجاج ، وأخذت الطيور تنفض أجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معها وهى تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية ..

وحدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه ! .. ما أبعد المسافة التى يكون ولا بد قد قطعها الآن ! »

وجاء السيد « هوميه » فى منتصف السابعة ، أثناء تناول العشاء ـ كعادته ـ وقال : « لقد ودعنا صديقنا الشاب ! » .. فقال الطبيب : « علمت بذلك » .. ثم دار فى مقعده وقال : « هل من أنباء عن الاسرة ؟ »

ـ لا شىء يستحق الذكر ، اللهم الا ان زوجتى كانت متأثرة بعد ظهر اليوم .. أنت تعرف النساء .. يتأثرن لأتفه الأمور ، ولا سيما زوجتى .. ونخطىء لو اننا عارضنا ذلك ، اذ ان جهازهن العصبى أرق من جهازنا !

وقال شارل : « مسكين ليون ! .. ترى كيف سيعيش فى باريس ؟ .. وهل يألفها ؟ » .. فتنهدت مدام « بوفارى » .. وطقطق الصيدلى بلسانه قائلا : « يألفها ! .. حفلات العشاء فى المطاعم والمراقص التنكرية والشمبانيا .. أؤكد لك ان كل هذا سيحلو له ! » .. فاعترض « بوفارى » قائلا : « ما أظنه سينزلق الى الفساد » .. فأسرع السيد « هوميه » قائلا : « ولا أنا .. وان كان سيضطر الى ان يجارى الآخرين خشية ان يظنوه من « الجيزويت » ! .. وما أراك تعرف أية حياة يمارسها أولئك «الكلاب» من شباب الحى اللاتينى مع الممثلات .. ثم ان الطلبة يحظون بنظرة طيبة فى باريس ،

ويكفى أن يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم فى خير المجتمعات ٠٠ بل ان من سيدات حى « سان جيرمان » من يتدلهن فى هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جدا » !

قال الطبيب : « ولكنى أخشى عليه ٠٠ هناك ٠٠ » ، فقاطعه الصيدلى قائلا : « أصبت ٠٠ هذا هو الجانب الآخر للموضوع ٠ فالمرء هناك مضطر الى ان يبقى يده فوق جيبه ٠٠ انك قد تكون فى حديقة عامة - مثلا - فيتقدم اليك شخص حسن الهندام - وربما كان يحلى صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الديبلوماسي - ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم اليك قبضة من سعوط ، أو يلتقط قبعتك اذا وقعت ، ثم يزداد ودا فيصحبك الى مقهى ، ويدعوك الى منزله الريفى ٠٠ وبين كأسين من النبيذ يقدمك الى كافة أنواع الناس ٠ وفى ثلاثة أرباع الحالات لا يكون ذلك الا لينشل ساعتك ، أو ليورطك فى مأزق خبيث ! » ٠٠ فقال « شارل » : « هذا صحيح ! ٠٠ على اننى كنت أفكر بوجه خاص فى الأمراض ٠٠ حمى التيفويد مثلا ، التى تصيب الطلبة الوافدين من الريف » !

وارتعدت « ايما » ٠٠ بينما قال الصيدلى : « هذا راجع الى تغيير نظام الأكل ، وما يترتب عليه من اضطراب فى الجهاز كله ٠٠ ثم ، هناك ماء باريس، ألم تسمع عنه ؟ ٠٠ وكل تلك الأطعمة التى تقدم فى المطاعم ٠٠ كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل، التى تنتهى الى اشاعة الحرارة فى الدم ، وهى لا تعادل - مهما يقول الناس عنها - حساء طيبا ! ٠٠ لقد اعتدت - شخصيا - أن أفضل الطعام البسيط دائما ، فهو أكثر فائدة من سواه ٠ لذلك اقمت - حين كنت أدرس الصيدلة فى (روان) - فى نزل خاص (بنسيون) ، وكنت أتناول طعامى مع الاساتذة »

وهكذا استمر يعرض آراءه ، وميوله الشخصية ، حتى أقبل « جوستان » يدعوه ٠٠ فصاح : « أما من لحظة راحة ؟ ٠٠ دائما أرانى مشدودا الى الصيدلية والعمل ! ٠٠ أو أستطيع ان اخرج دقيقة ؟ ٠٠ هل أظل اكد وأكدح كالحصان المشدود الى المحراث ! ٠٠ يالها من عبودية ! » ٠٠ حتى اذا بلغ الباب ، التفت قائلا : « بهذه المناسبة ، هل عرفتما النبأ ؟ »

- أى نبأ ؟

أجاب « هوميه » رافعا حاجبيه ، متخذا أكثر مظاهره جدية : « من المحتمل جدا ان الاجتماع الزراعى - الذى كان يعقد عادة فى مقاطعة السين السفلى - سيعقد هذا العام فى (ايونفيل) ٠٠ هذه هى الشائعة المنتشرة ٠ وقد أشارت اليها الصحيفة فى هذا الصباح ٠ وسيكون هذا أمرا بالغ الأهمية لمنطقتنا ٠ على أننا سنتحدث عن هذا فيما بعد ٠٠ شكرا ، انى أرى طريقى ، فان « جوستان » يحمل المصباح »



الفصل السابع

◆ كان اليوم التالى حزينا بالنسبة لايما ، اذ لاح لها كل شىء ملتفا فى جو أسود يطفو فى اضطراب حائر على أسطح الأشياء ومظاهرها .. واخذ الأسى يغوص فى أعماق نفسها فى عواء واهن كالذى تبعثه رياح الشتاء فى القلاع الخربة ! .. كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذى نخلعه على الأشياء التى لا رجعة لها ، أو الكلل الذى يعتريك بعد الجهد المبذول ، أو الألم الذى يسببه جمود حركة معتادة سادرة ، أو التوقف الفجائى لأى اهتزاز طال به الأمد !

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) - حين كانت الرقصات تدور فى رأسها - اعترتها كآبة قاتمة ، وقنوط خدر نفسها .. وعاودها طيف « ليون » أطول قامة ، وأكثر ملاحة ، وفتنة ، وغموضا .. فهو لم يفارقها ، وان كان قد انفصل عنها .. كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه ! .. ولم تكن تملك ان تحول بصرها عن البساط الذى سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التى كان يجلس عليها .. ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع فى بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة .. كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب ، يرافقهما خرير الأمواج ؟! .. ما كان أشد تألق الشمس اذ ذاك ! .. أية أصائل هانئة شهداها وحدهما فى الظل عند نهاية الحديقة ! .. كان يقرأ لها بصوت مرتفع ، وهو عارى الرأس ، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وازهار الخميلة .. أواه ! .. لقد ذهب ! .. فتنة حياتها ، والأمل الوحيد فى

السعادة المحتملة ! ٠٠ لم لم تقتنص تلك السـعادة حين واتتها ؟ ٠٠ لم لم تتشبث بها بكلتا يديها ، وكلتا ركبتيها ، حين همت بأن تفر منها ؟!٠٠ وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب « ليون » ٠٠ لشد ما كانت ظامئة الى شفتيه !٠٠ واسـتولت عليها الرغبة فى ان تفر وراءه وتلحق به ، فتلقى بنفسـها بين ذراعيه وتقول له : « ها أنذى ! ٠٠ اننى لك ! » ٠٠ ولكنهـا ما لبثت أن تقاعست ازاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها ـ التى ضاعفها الندم ـ الا ضراوة !

★ ★ ★

◆ ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى « ليون » محورا لسأمها ٠٠ كانت تشتعل هنـاك ، فى ازيز يفوق أزيز نار خلفها المسافرون فوق الجليـد ، فى سهول المراعى الروسية ! ٠٠ وكانت تقفز نحوه ، وتلتصق به ، وتحرك فى عناء النار المحتضرة وتبحث فى كل ماحولها عن شىء يذكيها !٠٠ وجمعت أبعد الذكريات ، وأقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته ، وشهواتها العربيدة التى لم تحظ بالاشباع ، ومشروعات السـعادة التى تكسرت فى الرياح كما تتكسر الأغصان الذاوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والألفة المنزلية ٠٠ كل هذا جمعته ـ دون أن تغفل شيئا ـ ثم اتخذته وقودا لشجونها !!

على ان اللهب لم يلبث ان خمد ، اما لأن الوقود قد نفد ، أو لأنه تراكم أكثر مما ينبغى ٠ وشيئا فشيئا ، أخذ الحب يخمد بسبب الفراق ، والندم يختنق بحكم الاعتياد ، ووهج الحريق الذى أشاع فى سمائها الشاحبة لونا قرمزيا يخبو رويدا ! ٠٠ وفى غفلة ضميرها ، ظنت ان اشمئزازها من زوجها ان هو الا تلهف لحبيبها ! ٠٠ بيد ان العاصفة ظلت هوجاء ٠٠ حتى اذا احترقت الشهوة فصارت رمادا ، دون ان تتلقى عونا ، ودون ان تشرق شمس ، اطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت فى البرد الفظيع الذى كان يخترمها ٠٠ ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة ٠٠ واصبحت ترى نفسها أكثر تعاسة ، اذ كانت قد خبرت الحزن ، فأيقنت انه لن ينتهى !

٠٠ وان امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات ، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات ! ٠٠ وبالفعل ، ابتاعت «ايما» مقعدا قوطيا للصلاة ، وانفقت خلال شهر واحد أربعـة عشر فرنكا فى شراء ليمـون لتنظيف اظافرها ، وكتبت الى (روان) فى طلب ثوب من الكشمير الأزرق ، واختارت شالا من أبدع شيلان « لوريه » ، واعتادت ان تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النـوافذ ، وتستلقى فى هذا الزى على أريكة ، وفى يدها كتـاب ! ٠٠ وكثيرا ما أخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ، فأحيانا تصففه على الطريقة الصينية ، أو ترسله فى خصـلات رخوة تجدلها فى ضفائر ، او تفرقه على جانب الراس مقصوصا من أسفل كما يفعل الرجال !

وارادت ان تتعلم الايطالية فابتاعت معاجم وكتابا فى النحو ، وكمية من الورق الأبيض ٠٠ وجربت القراءة الجدية فى التاريخ والفلسفة ٠٠ وكان « شارل » يستيقظ مجفلا أثناء الليل احيانا ، ظانا ان أحدا يناديه لاسعاف مريض ، فيغمغم : « ها انذا قادم ! » ، ثم يفطن الى ان ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب أشعلته « ايما » لتوقد المصباح ! ٠٠ ولكن قراءاتها لم تكن أسعد حظا من تطريزها ٠٠ كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى ، ثم كانت تلقى بها فى الصوان ، وتشرع فى تطريز غيرها ، لتلقى بها بدورها ٠٠ وهكذا لم تكن تشرع فى قراءة كتاب حتى تطرحه جانبا وتتناول سواه !

وكانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق خلالها الى ارتكاب أية حماقة ٠٠ فقد تحدت زوجها يوما بأنها تستطيع ان تشرب كأسا كبيرة من « البراندى » ٠ واذ كان « شارل » من الحمق بحيث قبل هذا التحدى ، فقد ازدردت ما كان فى الكأس حتى آخر قطرة ! ٠٠ وبالرغم من تصرفاتها النزقة ـ كما كانت ربات البيوت فى (ايونفيل) يصفنها ـ فان « ايما » لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبى فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذى ينتاب وجوه العوانس ، والرجال ذوى الطموح الخائب ! ٠٠ واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الأبيض ، وأصبح جلد أنفها مشدودا عند الفتحتين ، وغدت عيناها ترنوان اليك بنظرات مبهمة ٠٠ وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد ان اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء فى مفرقها !

وكثيرا ما كانت تصاب بالاغماء ، حتى بصقت دما ذات يوم ٠ وعندما أخذ « شارل » يروح ويجيء حولها فى اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : « آه ! ٠٠ وما أهمية هذا ؟ » ٠٠ فأسرع « شارل » الى مكتبه وانخرط فى البكاء ، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس فى مقعده تحت صورة الجهاز العصبى ٠٠ ثم كتب لأمه يسألها ان تحضر ، وراحا يعقدان معا الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الرأى بشأن « ايما » ٠٠ ما الذى ينبغى ان يتخذاه ؟ ٠٠ ما الذى ينبغى فعله ما دامت ترفض كل علاج طبى ؟ ٠٠ وقالت مدام « بوفارى » الأم : « أفتعرف ما الذى يلزم لزوجتك ؟ ٠٠ انها تحتاج الى أن تنهمك فى عمل يدوى يشغلها ٠٠ ولو انها كانت مضطرة ـ ككثيرات غيرها ـ الى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التى تواتيها من كثير من الأفكار التى تحتشد بها رأسها ، ومن البطالة التى تعيش فيها » ٠٠ فقال « شارل » : « ولكنها دائما مشغولة » ٠٠

ـ آه ، حقا ٠٠ مشغولة بماذا ؟ ٠٠ قراءة الروايات ، والكتب الرديئة ، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتى يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن « فولتير » ؟ ٠٠ كل هذا يشتت العقل يا بنى المسكين ! ٠٠ أى انسان بلا دين لا بد ان ينتهى أسوأ نهاية !

.. ومن ثم استقر الرأى على منع « ايما » من قراءة الروايات .. ولم يكن الأمر هينا ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، فرؤى ان تذهب بنفسها الى متعهد الكتب - عند مرورها بروان - فتخبره بأن « ايما » أوقفت اشتراكها .. ترى، اليس لهما الحق فى ان يلجآ الى البوليس اذا أصر صاحب المكتبة - رغم ذلك - على المضى فى تجارته التى تسمم العقول ؟!

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاترا .. لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتاها معا قد تبادلتا ست كلمات ، فوق الاسئلة والعبارات التى كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء الى الفراش بالليل .. ثم رحلت مدام « بوفارى » الكبيرة فى أحد أيام الأربعاء ، التى تعقد فيها سوق (ايونفيل) .. وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التى امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة الى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت أذرعها فى الهواء .. وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الأقمشة القطنية والأغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الأشرطة الزرقاء التى تتطاير أطرافها مع الريح .. وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل أهرامات ، وأقراص الجبن التى يبرز منها قش لزج .. والى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينقنق فى اقفصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان .. والجمهور متجمع فى مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالا ، حتى لقد كان يوشك أحيانا ان يهشم واجهة الصيدلية التى كانت لا تخلو أبدا فى أيام الأربعاء من الذين كانوا يقبلون طلبا للمشورة الطبية أكثر منهم لشراء أدوية ، نظرا لما كان للسيد « هوميه » من صيت ذائع فى القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون بقوة اعتداده بنفسه ، فكانوا يعتبرونه أعظم الأطباء طرا !!

وكانت « ايما » تتكىء على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل فى كثير من الأحيان .. فالنافذة تحل فى الريف محل المسرح والنزهة .. وفيما هى تتسلى بمشاهدة حشد من الأجلاف ، رأت سيدا فى « ردنجوت » من المخمل الأخضر ، وفى يديه قفازان أصفران ، وقد غطى حذاءيه بزوج من « جيتر » سميك .. وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعه فلاح يسير مطأطىء الرأس ، بادى الاستغراق فى التفكير .. وقال الرجل يسأل « جوستان » - الذى كان يتحدث الى « فيليسيتيه » عند درجات المدخل - وقد ظنه خادما فى المنزل : « هل أستطيع ان اقابل الطبيب ؟ .. قل له ان السيد « رودولف بولانجيه » من (لاهوشيت) هنا » .. وما قرن اسمه ب « لاهوشيت » من قبيل النعرة الاقليمية ، وانما زيادة فى التعريف بنفسه .. والواقع ان (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل) ، ابتاع السيد « رودولف » قصرها ، ومزرعتين منها يستطيع ان يزرعهما بنفسه ، ولكن دون ان يجشم نفسه كثير عناء .

وكان يعيش أعزب ٠٠ وقيل ان دخله بلغ « خمسة عشر ألفا من الفرنكات في العام ، على الأقل » !

وأقبل « شارل » على الغرفة ، فقدم اليه السيد « بولانجيه » رفيقه الذى كان يريد ان يفصد لأنه كان يحس « بتنميل يسرى فى كل جسمه » ! ٠٠ وقال الرجل يعارض كل حجة : « لسوف يطهرنى هذا » ٠٠ ومن ثم أمر « بوفارى » بضمادة ووعاء سأل « جوستان » ان يمسكه له ، ثم قال للفلاح الذى شحب لونه : « لا تخف يا بنى ! » ٠٠ فقال الآخر : « لا ٠٠ لا ، يا سيدى ٠٠ هيا » ٠٠ وفى تظاهر بالجرأة ، مد ذراعه الضخمة ٠٠ وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ملطخا المرآة ، فهتف شارل : « قرب الوعاء » ٠٠ بينما قال الفلاح : « يا الهى !٠٠ ان المرء ليحسبها نافورة صغيرة ٠٠ ما أشد حمرة دمى !٠٠ انها دلالة طيبة ٠٠ أليست كذلك ؟! »

فقال الطبيب : « ان المرء لا يشعر بشىء فى البداية ـ أحيانا ـ ثم يواتيه الاغماء فيما بعد ، لاسيما ذوى البنية القوية كهذا الرجل ! » ٠٠ وعند هذه الكلمات ، أفلت الفلاح الكيس الذى كان يعبث به بين أصابعه ٠٠ وطقطق ظهر المقعد اذ سرت فى كتفيه رعدة ٠٠ وسقطت قبعته ، فقال « بوفارى » وهو يضغط الوريد باصبعه : « لقد توقعت هذا » ٠٠ وأخذ الوعاء يهتز بين يدى «جوستان» ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : «ايما ! ٠٠ ايما !»٠ وهبطت السلم فى وثبة واحدة ، فصاح : « بعض الخل ٠٠ يا الهى !٠٠ اثنان فى وقت واحد » ٠٠ وتعذر عليه ـ لفرط انفعاله ـ أن يضع الكمادة !

وقال السيد « بولانجيه » فى هدوء وهو يمسك بذراع « جوستان » ويجلسه على المائدة وظهره الى الحائط : « ما هذا بشىء ! » ٠٠ وراحت مدام « بوفارى » تخلع عنه رباط رقبته ٠٠ وانعقد الشريط الذى يضم فتحة قميصه ، فظلت دقائق تحرك أصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها « الباتيسته » ، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق ٠٠ وما لبث الفلاح أن أفاق ، ولكن اغماء « جوستان » طال ، واختفت حدقتاه فى بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء فى اللبن ٠٠ فقال شارل : « يجب أن نخفى هذا عنه » ، فتناولت مدام « بوفارى » الوعاء لتضعه تحت المائدة ٠٠ واذ تحركت منحنية ، انتشر حولها ـ على بلاط الغرفة ـ ثوبها ٠ وكان ثوبا صيفيا أصفر ، ذا أربعة « كرانيش » وخصر طويل وذيل واسع ٠٠ وترنحت « ايما » قليلا وهى منحنية فبسطت ذراعيها ، فالتف القماش حول صدرها ، مبينا قسماته ٠٠ ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء ٠ وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلى ، وكانت الخادم قد ذهبت فى غمرة الارتباك لاستدعائه ٠ وما أن رأى عينى تلميذه تحملقان ، حتى تنفس الصعداء ،

ثم ذهب اليه فحدق فيه من راسه الى قدمه وقال : « مغفل ! ‥ مغفل كبير !‥ مغفل بالثلث !‥ كأنى بالحجامة عملية خطيرة ، أليس كذلك ؟!‥ أفهكذا يتحول الصنديد الذى لايخشى شيئا الى سنجاب من النوع الذى يتسلق الى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق !‥ أى نعم ، تكلم وأطنب مزهوا فى مدح نفسك!‥ يالها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد !‥ انك قد تستدعى فى ظروف خطيرة الى المحاكم لتنير أذهان القضاة ، واذ ذاك يتحتم عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك ، وأن تظهر بمظهر الرجل ‥ والا كنت أبله ! »

ولم يجب « جوستان » ، فاستطرد الصيدلى : « من سألك أن تحضر ؟ انك لتثقل دائما على السيد والسيدة ، فضلا عن أننى لا أستغنى عنك فى أيام الاربعاء ، ففى الحانوت الآن عشرون شخصا ، وقد تركت كل شىء وحضرت نظرا لاهتمامى بأمرك . فهيا ، انهض ‥ اسرع !‥ عجل !‥ انتظرنى هناك ، وانتبه للقوارير » ‥ وما أن انصرف « جوستان » - بعد أن سوى ثيابه - حتى أخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الاغماء ، فزعمت مدام « بوفارى » انها لم تفقد قط وعيها ‥ فقال السيد « بولانجيه » : « هذا عجيب بالنسبة لسيدة !‥ على أن بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رأيت - فى احدى المبارزات - شاهدا يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات ! »

وقال الصيدلى : « ان مرأى دماء الغير لا تؤثر فى - شخصيا - على الاطلاق ، ولكن مجرد التفكير فى أن دمى يسيل كاف لأن يفقدنى الوعى ‥ لو تماديت فى التفكير ! » ‥ وعندئذ سرح السيد « بولانجيه » خادمه ، موصيا اياه بأن يهدىء من جأشه بعد أن تخلص من وهمه . ثم أضاف : « انه قد أتاح لى فرصة التعرف بكم » ‥ ونظر نحو « ايما » اذ قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى فى غير اكتراث ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقا على الضفة الأخرى للنهر ، فى طريقه الى (لاهاشيت) ‥ ورأته « ايما » يسير فى المرعى تحت أشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر ، كما لو كان يفكر ‥

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : « انها لطيفة جدا ‥ لطيفة جدا ‥ زوجة الطبيب هذه !‥ أسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدم صغيرة ، وقوام كقوام الباريسيات ‥ من اين جاءت بحق الشيطان ؟‥ من أين التقطها هذا الرجل البدين ؟ »

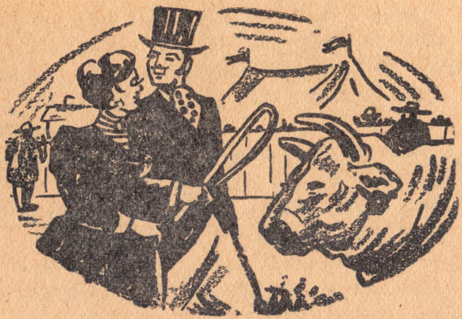
وكان « رودولف بولانجيه » فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خالط كثيرا من النساء حتى غدا خبيرا بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة ، فراح يفكر فيها وفى زوجها ‥ ويقول لنفسه : « أعتقد انه مغفل ، وانها قد سئمته ولا ريب ، فان أظافره قذرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام . وبينما ينطلق لعيادة مرضاه ، تعكف هى على رتق الجوارب ، فلا

تلبث أن تسأم !٠٠ ولابد أنها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص « البولكا » كل مساء٠٠ياللمرأة المسكينة !٠٠ كأنى بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ !٠٠ وان ثلاثا من كلمات الغزل لكافية لان تجعلها تعبد المرء ٠ اننى واثق من ذلك !٠٠ ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة ٠٠ أجل ، ولكن ، كيف السبيل الى التخلص منها بعد ذلك ؟ »

غير أن متاعب اللذة التى تراءت له جعلته ينقلب الى التفكير فى عشيقته على سبيل المقارنة ٠٠ كانت ممثلة فى (روان) ، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها ٠ وما أن أخذ يتأمل صورتها - على صفحة ذاكرته - حتى أحس بجذوة رغبته تخمد ٠٠ فقال لنفسه : « آه !٠٠ ان مدام بوفارى أجمل ، وأكثر نضرة بوجه خاص ٠٠ فلقد بدأت فرجينيا تميل للبدانة بالتأكيد ٠٠ وهى امرأة من العسير ارضاء رغباتها ٠٠ ثم انها ذات ولع جنونى ببراغيث البحر (الجمبرى) !!»

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الأعشاب اذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة ٠٠ وصرخة جرادة تختفى بين الشوفان بعيدا ٠٠ وعاد يتمثل صورة « ايما » فى الحجرة ، وفى الثوب الذى رآها فيه ٠٠ ثم شرع يخلع عنها ثيابها فى خياله ! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه : « آه ٠٠ لسوف أنالها ! » ٠٠ وشرع لفوره يدرس الأسلوب « السياسى » للمغامرة ، فساءل نفسه :« أين نلتقى ؟ ٠٠ وبأى الوسائل ؟٠٠ لسوف تضايقنا دائما الطفلة ، والخادم ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم ٠ أف !٠٠ ان المرء معرض لأن يضيع كثيرا من الوقت فى كل ذلك»٠٠ ثم عاد يقول : « ان لها فى الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة ٠٠ ويالشحوب بشرتها !٠٠ اننى أعبد الشاحبات ! »

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى) ، كان ذهنه قد استقر على أمر ، فقال : « لم يبق الا تصيد الفرص ٠ حسنا، لسوف أقدم على زيارتهم بين آن وآخر ٠٠ وسأرسل لهم بعض الصيد والدواجن ، وسأطلب « حجامة » لنفسى لو استدعى الأمر ٠٠ ولن نلبث أن نغدو أصدقاء ، فأدعوهم الى منزلى » ٠٠ ثم أضاف : « مرحى !٠٠ ان المعرض الزراعى عما قريب ، ولسوف تزوره فأراها هناك ٠٠ ولنبدأ فى جراة ، فهذه اضمن الطرق ! »



الفصل الثامن

◆ حان أخيرا موعد المعرض الزراعى الذى ذاع ذكره ٠٠ وفى صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع أهل (ايونفيل) على أبوابهم يتحدثون عن الاستعدادات ٠٠ كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب ، وأقيم سرادق فى أحد المروج للمأدبة ٠٠ وأمام الكنيسة - فى وسط الميدان - نصب مدفع من النوع الذى يحدث فرقعة ، لاعلان وصول مدير المقاطعة ، وتحية أسماء المزارعين الفائزين بجوائز ٠ ووفد الحرس الوطنى من (بوشى) - اذ لم يكن فى (ايونفيل) حرس - لينضم الى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يرأسهم ٠٠ وقد ارتدى فى ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الازرار سترته حول جسمه الى درجة أحالت جذعه الى كتلة متيبسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان الجزء الحى من جسمه كله قد هبط الى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان فى خطوات رتيبة على ايقاع واحد ٠٠ ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطنى ، فقد أخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله - على حدة - ليظهر مواهبه ٠٠ فكان المرء يرى الاشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون أن يكون لهذا العرض من نهاية ! ٠٠ أبدا لم ير فى قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا !

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم فى المساء السابق ، وتدلت الاعلام الثلاثية الالوان من النوافذ المنفرجة المصاريع ٠٠ وازدحمت الحانات جميعا ٠٠ وفى الجو - الذى كان صحوا - بدت الياقات المنشاة ، والصلبان المذهبة ، والاوشحة الملونة ، أنصع بياضا من الثلج فى ضياء الشمس ، فكانت

تخفف بتباينها وتناثرها من اطراد حلكة « الردنجوت » والملابس الشعبية الزرقاء .. وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن - اذا ما ترجلن عن جيادهن - الدبابيس الكبيرة التى كانت تثبت ذيول ثيابهن حول أجسامهن ، اذ كن قد رفعنها خشية الوحل .. فى حين كان الازواج ، من ناحيتهم ، ينشرون حول قبعاتهم - حماية لها - مناديل أمسكوا أطرافها بين أسنانهم .

وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف أنحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت لآخر ، كان المرء يسمع ارتطام الابواب وهى تغلق وراء النسوة اللاتى يخرجن من دورهن - وقد ارتدين قفازاتهن - يسعين الى مشاهدة الاحتفال .. وكان أشد ما حاز الاعجاب ، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح ، وقد حفا بمنصة أعدت لجلوس ذوى النفوذ . والى جانب ذلك ، أقيمت حول أعمدة دار البلدية أربع قوائم تحمل كل منها علما صغيرا من قماش يميل لونه الى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية .. وقد كتب على العلم الاول : « الى التجارة » ، وعلى الثانى : « الى الزراعة » ، وعلى الثالث : « الى الصناعة » ، وعلى الرابع : « الى الفنون الجميلة » .

وكأن الحبور الذى أشرقت به الوجوه جميعا قد انقلب تجهما على وجه مدام « لوفرانسوا » ، صاحبة الفندق . اذ راحت تتمتم لنفسها ، وهى واقفة على درجات مطبخها : « يا للحماقة ! .. يا للسخف ! .. هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع) ! .. أو يظنون ان مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟! .. أويسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟..اذن ، ففيم كان استدعائى «المرمطون» من (نيوشاتل) !.. ولمن ؟.. لرعاة البقر ! .. للحفاة ! ».. ومر بها الصيدلى اذ ذاك ، وكان يرتدى سترة سوداء ، وبنطلونا من المخمل القطنى ، وحذاءين من نسيج الفراء .. ومن العجيب انه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال « هوميه » لصاحبة الفندق : « ايذنى لى !.. معذرة ، فانى على عجل ! » .. واذ سألته الارملة البدينة الى أين هو ذاهب ، أجاب : « ان الامر يبدو لك غريبا .. أليس كذلك ؟.. أنا الذى أظل حبيسا فى معملى أكثر من فأر الرجل فى جبنه ! » .. فسألته : « أى جبن ؟ » .. فتابع حديثه قائلا : « آه ، لاشى ! لاشىء ! .. انما أردت أن أنبئك يا مدام لوفرانسوا بأننى أعيش فى بيتى عادة كالناسك . أما اليوم ، فمن الضرورى ، بحكم الظروف... » ، فقاطعته فى ازدراء: « آه .. أنت ذاهب الى هناك ! » ، فأجاب الصيدلى فى دهشة : « أجل ، أنا ذاهب .. أو لست عضوا فى اللجنة الاستشارية ؟ » ..

وحدقت فيه الأم « لوفرانسوا » بضع لحظات ، ثم قالت فى النهاية وهى تبتسم : « هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهمك الزراعة ؟ أتفهم فيها شيئا ؟ » - بالتأكيد .. انني أفهمها ما دمت صيدليا .. أى كيميائيا . فان غاية

الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هى معرفة التفاعل الجزئى والتأثير المتبادل بين كافة الأجسام الطبيعية ، ومن ثم فان الزراعة تدخل فى نطاقها . والواقع ان تركيب السماد ، وتخمر السوائل ، وتحليل الغازات ، وتأثير التعفن .. اننى لأسألك ما هذا كله ؟.. أليس هو الكيمياء فى أنقى وابسط مظاهرها ؟!

ولم تجب صاحبة الفندق ، فاستطرد « هوميه » قائلا : « هل تظنين انه لا بد للمرء من أن يحرث الارض أو يربى الدواجن ويسمنها بنفسه لكى يكون من رجال الزراعة ؟ .. ان الاكثر ضرورة هو أن يعرف تركيب المواد التى تتعلق بالزراعة .. الخواص الجيولوجية ، والعوامل الجوية ، ونوع التربة ، والمعادن ، والمياه ، وكثافة الأجسام المختلفة ، وخاصية الجاذبية الشعرية – التى يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات – وما الى هذا .. كذلك يجب أن يكون المرء على المام تام بمبادىء الصحة كى يتولى التوجيه ونقد العيوب فى انشاء المبانى ، وتغذية الحيوان ، وتغذية الخدم . وفوق ذلك يا مدام « لوفرانسوا » ، يجب أن يكون المرء على دراية بعلم النبات ، وأن يستطيع أن يميز بين النباتات كما تعلمين .. فيعرف أيها الصحى المفيد ، وأيها الضار !.. أيها لا ينتج ، وأيها ذا القيمة الغذائية .. وهل من المفيد أن نقتلعها من هنا ونعيد زرعها هناك ، وأن نستكثر بعض الانواع ، ونقضى على البعض الآخر..وبالايجاز ، يجب أن يظل المرء متتبعا للعلمعن طريق النشرات والصحف العامة،وأن يكون يقظا ليتعرف التحسينات..»

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن « المقهى الفرنسى » ، بينما مضى الصيدلى قائلا : « انى لأدعو الله أن يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماما ، على الاقل .. فأنا مثلا قد ألفت أخيرا كتيبا لا بأس به .. مذكرة فى أكثر من اثنتين وسبعين صفحة ، بعنوان : « شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره .. مع بعض الأفكار الجديدة فى الموضوع » .. وارسلتها الى الجمعية الزراعية فى (روان) ، فكانت سببا فى « أن حظيت بشرف الانضمام الى عضويتها .. فى قسم الزراعة ، وفى الفرع الخاص بزراعة الفواكه . ولو ان مؤلفى هذا أتيح للجمهور ... »

على ان الصيدلى أمسك هنا عن الكلام ، اذ بدا ان مدام « لوفرانسوا » كانت فى شغل عنه .. ثم قالت أخيرا : « الا أنظر اليهم ! .. شىء غير مفهوم ! .. هذه الحانة الحقيرة ! » .. وهزت كتفيها فى حركة أزاحت عن جسمها الصدار الصوفى (التريكو) ، واشارت بكلتا يديها الى حانة منافسها ، التى كانت تنبعث منها أصوات تغنى .. ثم أضافت قائلة : « لن يدوم هذا أمدا طويلا ، على أية حال ، وسينتهى كل شىء قبل أسبوع » .. فتراجع « هوميه » مذهولا ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس فى أذنه : « ماذا ! .. أو لا تعلم هذا ؟ .. هناك حجز سيوقع فى الاسبوع المقبل ، و « لوريه » هو الذى سيتسبب فى بيع الحانة، اذ قضى عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات) .. » ، فصاح الصيدلى الذى

كان يجد دائما من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : « يا لها من نكبة مفزعة ! »

اذ ذاك شرعت ربة الفندق تروى له القصة التى كانت قد سمعتها من «تيودور» ـ خادم السيد «جويومان» ـ ومع انها كانت تبغض « تيلييه » ، الا انها راحت تنحى باللوم على «لوريه» واصفة اياه بانه غشاش ، دنىء ! .. وقالت : « هاهو ذا ! .. أنظر اليه ، انه فى السوق ، ينحنى لمدام « بوفارى » التى ترتدى قبعة خضراء . عجبا ، انها تأخذ بذراع السيد بولانجيه » .. فهتف هوميه : « مدام بوفارى ! .. يجب أن أذهب فورا فاقدم لها احتراماتى .. لعلها ستسر جدا بأن تحصل على مقعد فى الحلبة ، تحت الرواق » .. ولم يلق الصيدلى بالا الى الام «لوفرانسوا» التى اخذت تناديه لكى تسهب له فى القصص ، بل ابتعد فى خطوة سريعة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وقد شد عرقوبه ، وراح يسخو فى الانحناء يمنة ويسرة موزعا التحيات ، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاغلا فراغا كبيرا .. لكن « رودولف » لمحه من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن أنفاس مدام « بوفارى » تقطعت ، فاضطر الى أن يتباطأ ، وقال فى لهجة جافة وهو يبتسم : « ما هـــذا الا لكى نفر من هـــذا الرجل البدين .. الصيدلى ، كما تعلمين ! » .. فضغطت مرفقه .. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه : « ما معنى هذا ؟ » .. وكانت صفحة وجهها هادئة ، لا تنم عن شىء ، وقد برزت من اطار قلنسوتها البيضاوية الشكل ، التى كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه أوراق البوص . وكانت عيناها ـ بأهدابهما الطويلة المقوسة ـ تنظران الى الامام فى خط مستقيم . ومع انهما كانتا مفتوحتين عـــلى وسعهما ، الا انهما لاحتا متواريتين بعض الشىء ،كما لو كانتوجنتاها تدفعانهما، وقد راح الدم يسرى برفق تحت بشرتهما الرقيقة .. وعلى طول الحاجز الذى كان يتوسط فتحتى أنفها ، امتد خط وردى . وكان راسها يميل على احدى كتفيها ، كما كانت الاطراف اللؤلؤية لاسنانها البيضاء ترى من بين شفتيها !

وساءل « رودولف » نفسه : « أتراها تسخر منى ؟ » .. غير أن الحركة التى بدرت من « ايمـا » لم تكن ترمى الا الى تنبيهه . فقد كان الســـيد « لوريه » يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود أن يندمج معهما فى الحديث .. وما لبث أن قال : « يا له من يوم رائع !.. لقـــد غادر الجميع دورهم !.. ان الرياح تهب من الشرق ! » .. ولم ترد عليه مدام بوفارى ولا رودولف بشىء ، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تبدر منهما ويقول : « معذرة ! » ، ويرفع قبعته !.. حتى اذا بلغوا منزل البيطار ، لم يمضوا فى الطريق العامة حتى الحاجز ، بل انحرف رودولف فجأة الى طريق ضيقة ، ســاحبا معه مدام بوفارى ، وهو يهتف : « عم مساء يا مسيو لوريه !.. الى اللقاء ! »

وقالت « ايما » ضــاحكة : « ما أبرع ما تخلصت منه ! » .. فعقب قائلا :

« ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون ؟ .. ولما كنت اليوم سعيدا بأن أكون معك ... »

وتضرج وجه « ايما » .. ولم يتم رودولف عبارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب .. وكانت بعض زهرات « المرجريت » قد استوت على سيقانها فقال : « ها هى ذى بعض زهـــور المرجريت البديعة تبشر بعيد الفصح .. وها هوذا عدد منها يكفى لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات فى المنطقة ! » .. ثم أضاف : « هل أقتطف بعضها ؟.. ما رأيك ؟ » .. فسعلت قائلة : «وهل أنت عاشق ؟» .. فأجاب رودولف : « ا .. ا .. من يدرى ؟! ».. وكان المرج يمتلىء ، وربات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة ، وسلالهن ، وأطفالهن.. وكثيرا ما كان المرء يضطر الى افساح الطريق لصف طويل من الريفيـــات أو الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء ، وأحذية مسطحة النعال ، وخواتم من الفضة .. وتفوح منهن - اذا ما مر المرء بالقرب منهن - رائحة اللبن ! .. وقد سرن متشابكات الأيدى ، شاغلات عرض الميدان .. من أشجار الحور الى سرادق الاحتفال !.. وكان موعد فحص المعروضات قد حان ، فأخذ الفلاحـون يدخلون - واحد بعد آخر - الى مايشبه حلبة للسباق ، يحدها حبل طويل شد الى عصى ..

وكانت الماشية تربض هناك وانوفها موجهة نحو الحبـل ، وقد اصطفت فى مجموعات غير متساوية ولا منتظمة . وخياطم الخنازير المتثـاقلة مدسوسة فى الأرض ، والعجول تخور ، والنعاج تثغو ، والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت سيقانها تحتها ، وهى تجتر فى بطء ، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذى كان يحوم حولها فى طنين . والحوذية قد شمروا عن سواعدهم يشـدون أعنة الجياد الجامحة التى راحت تصهل - منتفخة الخيـاشيم - وهى تنظر نحو اناثها التى وقفت هادئة ، تمد أعناقها ، وأعرافها متدلية ، بينما كانت صغارها مستكينة فى ظلالها ، تقبل على الرضاع منها بين آن وآخـر ! .. وفوق هـذا الخضم الزاخر من الأجسام المكدسة ، كانت ترتفع فى الهواء أوراق بيضاء كانها الموجات ، أو تبرز قرون حادة ، أو رؤوس رجال يجرون حولها .. وخارج الحلبـــة ، وقف - على بعد نحو مائة خطوة - ثور أسود ضخم ، مكمم فى أنفه بحلقة من حديد .. وهو لا يتحرك ، كأنه صيغ من البرونز ، بينما أمسكه بحبل أطفال فى اسمال مهلهلة ..

وسار بين الصفين أعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون كل حيـوان ، ثم يستشير كل منهم الآخر فى صوت خفيض ، وقد أخذ واحد منهم - كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - فى تدوين بعض الملاحظات من وقت الى آخر .. ذاك كان السـيد « ديروزيراى دى لابانفيل » ، رئيس المحكمـين .. وما ان رأى رودولف حتى أسرع متقدما منه ، وابتسم فى ود قائلا : « ما هذا يا سـيد

بولانجيه .. أتتخلى عنا ؟ » .. فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما ان انصرف الرئيس حتى قال لايما : « لعمرى ! .. لن أذهب ، فان صحبتك خير من صحبته ! » .. وكان يبرز بطاقتـــه الزرقاء لرجال الشرطة - ليمر في يسر - وهو يسخر من المعرض .. وكان يقف أحيانا أمام حيوان بديع ، لا يروق لمدام بوفارى على الاطلاق . واذ فطن الى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وأزيائهن ، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من اهمال ، اذ كان خليطا من المبتذل والأنيق معا ، يرى فيه عامة الناس دليلا على غرابة في الطباع، واضطراب في الاحساس ، ومغالاة في الفن ، و - دائما - نوعا من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة ، مما يفتنهم أو يغيظهم ! .. من ذلك ان قميصه كان من « الباتيسته » ، تكثر الثنيات عند معصمي كميه .. وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذى كان يتسلل من فتحة صدار من التيل الرمادى .. وكان ساقا سرواله ذى الخطوط العريضة يكشفان عند الكعبين عن حذاءين من « الشمواه » الذى تتخلله أجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب .. وكان يطأ بهذين الحذاءين روث الخيل وقد دس احدى يديه في جيب من سترته، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانبا ..

وعاد يتابع الكلام قائلا : « ثم ان المرء حين يكون مقيما في الريف .. » ، فقالت ايما : « انها مضيعة للوقت » ، فأجاب : « هذا حق .. تصورى ان أحدا من هؤلاء الناس لا يستطيع ان يفهم ، حتى طراز سترته ! » .. ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من أعمـــار ، وينهار من آمال .. فقـــال رودولف : « لهذا السبب تغمرنى الكآبة » .. فعقبت مذهولة : « أنت !؟ .. ظننتك شديد المرح ! »

- آه .. أجل . هكذا أبدو ، لأننى أعرف كيف أخفى وجهى وراء قنـــاع ساخر ، وسط المجتمع .. ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسى حين كنت أرى مقبرة فى ضوء القمر : أليس من الخير ان أشارك أهلها فى سباتهم !

فهتفت : « اواه ! .. وأصـــدقاؤك ؟ .. الست تفكر فيهم ؟ » .. فقال : « أصدقائى ! .. أى أصدقاء ؟ .. هل لى أصدقاء ؟ .. من يحفل بى ؟ » .. وأردف بصفير خافت من بين شفتيه .. وما لبثا ان اضطرا الى الانفصال ، كل عن الآخر ، بسبب حمل كبير من المقـــاعد كان أحد الرجال يرفعه خلفهما .. وكان من الكثرة بحيث لم يكن فى وسع الرجل ان يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، أو نهاية ذراعيه المبسوطتين . وكان هـــذا الرجل هو « ليستيبودوا » ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، وأخذ يجوس بين الناس ، اذ كان نشيط الذهن فى كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن الى هذه الطريقة للافادة من المعرض، وصادفت فكرته نجاحا ، اذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدرى أيها يجيب، والواقع ان القرويين الذين برح بهم التعب ، أخذوا يتشاجرون من أجل هـــذه

المقاعد التى كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة ـ المتسخة بدهن الشموع ـ فى زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفارى فأمسكت بذراع رودولف الذى كان ماضيا فى الحديث ، وكأنه يكلم نفسه : « أجل ، كم أضعت من أشياء ‥ فأنا وحيد على الدوام ! ‥ آه ، لو كان لى هدف فى الحياة ! ‥ لو أننى لقيت شيئا من الحب ‥ لو أننى التقيت بشخص يعطف على ! ‥ ما كان أحرانى اذ ذاك أن أبذل كل ما أوتيت من طاقة ، وأن أذلل كل شىء ، وأن أتغلب على كل شىء ! » ‥ فقالت : « ومع ذلك ، انك لا تبدو فى حال تدعو للرثاء ! » ‥ قال : « آه ‥ أوهذا ظنك بى ؟ » ‥ فاستطردت قائلة : « لأنك قبل كل شىء ، حر ‥‥ » ، وترددت ، ثم أردفت : «وغنى !»‥فأجاب : «لاتسخرى منى»‥وبينما كانت تؤكد انها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فاذا الجميع ينطلقون متدافعين فى هرج نحو القرية ‥ ولكن التنبيه كان كاذبا ، فان مدير الاقليم لم يكن قد حضر ، وشعر أعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، اذ كانوا لا يدرون أيبدأون الحفل ، أم ينتظرون أمدا آخر ‥

واخيرا ، ظهرت فى أقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة ـ من الطراز المغلق الجوانب ـ يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما بكل قوته حوذى بقبعة بيضاء ‥ واسرع « بينيه » صائحا : « قرقول سلاح ! » ، فحذا الضابط حذوه ، وهرول الجنود نحو السرادق ، لقد نسى بعضهم ان يرتدوا ياقاتهم ‥ ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدما ، فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا على رنين أعنتهما الى منصة البلدية ، فى اللحظة التى تم فيها تجمع الحرس الوطنى وفريق الاطفاء ، ومن ثم أخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم ‥ وصاح «بينيه» : « خطوة تنظيم ! » ‥ فصاح الضابط : « قف ! ‥ الى اليسار در ! » ‥ وبعد ان ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسى ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد ٠ واذ ذاك ، غادر العربة سيد فى حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية ‥ وكان أصلع فى مقدمة رأسه ، ويضع شعرا مستعارا فى مؤخرتها ، وقد بدا كالح اللون ، تلوح عليه امارات الطيبة ٠ وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان ، نصف مطبقين عليهما ، اذ راح ينعم النظر فى الجماهير ، رافعا ـ فى الوقت ذاته ـ أنفه الحاد ، راسما على فمه الفاغر ابتسامة ٠ وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فأوضح له أن مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور ، وانه هو مستشار الاقليم ٠ ثم اردف مرددا بعض الاعذار ، فرد السيد « توفاش » ـ العمدة ـ ببعض المجاملات ‥ وبدا على الآخر الارتباك ! ‥ وظلا واقفين وجها لوجه ، تكاد جبهتاهما ان تتلامسا ، وحولهما اعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدى ، والأعيان ، والحرس الوطنى ، والجمهور ٠ وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم الى صدره قبعته

الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى « توفاش » كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلعثم اذ حاول أن يقول شيئا ، ثم أكد ولاءه للملكية ، وأعرب عن الشرف الذى أتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض !

وأخذ « هيبوليت » ـ سائس الفندق ـ عنانى الجوادين من الحوذى ، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء الى باب « الأسد الذهبى » ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة ٠٠ ودقت الطبول ، ودوى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التى أعارتها مدام « توفاش » للمحتفلين ٠٠ وكان هؤلاء السادة جميعا متشابهين ٠٠ فوجوههم السمينة الشقراء التى لوحتها الشمس قليلا تبدو فى لون شراب التفاح ، وشعور لحاهم تنتفش على جانبى وجوههم متهدلة على ياقات كبيرة متيبسة ، تحيط بها أربطة عنق بيضاء ، لها عقدة عريضة ٠٠ وصداراتهم جميعا من القطيفة ، وكافة الساعات تحمل ـ فى نهاية أشرطة طويلة ـ ما يشبه خاتما بيضاويا من العقيق ٠٠ والأيدى مرتكزة على الأفخاذ ، تسوى فى عناية ثنيات السراويل التى كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعانا ٠

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الأعمدة ، بينما احتشد الجمهور فى الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلوس على المقاعد ، اذ كان « ليستيبودوا » قد نقل جميع المقاعد من المرج الى هناك ، وراح يجرى طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها ٠٠ وسبب بنشاطه التجارى هذا ارتباكا جعل بلوغ سلم المنصة أمرا عسيرا ! ٠٠ وقال « لوريه » للصيدلى اذ مر به ذاهبا الى المكان المخصص له : « من رأيى انه كان من الواجب عليهم ان يقيموا صاريين على طراز البندقية، يحملان بعض الزينة القيمة ، حتى يصبح المنظر متعة للعين » ٠٠ فأجاب هوميه : « هذا حق ٠٠ ولكن ، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شىء ٠٠ لكم هو محدود الذوق هذا التوفاش المسكين ! ٠٠ بل انه محروم مما يسمى عبقرية الفن ! »

* * *

وفى تلك الأثناء ، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفارى الى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية ٠٠ واذ كانت القاعة خالية ، فقد قال ان فى وسعهما ان يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان ٠ وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفى للملك ، ووضعها على مقربة من احدى النوافذ ، ثم جلسا متجاورين ٠٠ وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة ، ومفاوضات ٠٠ وأخيرا وقف السيد المستشار ، فعرف الجمهور اذ ذاك انه يدعى « ليفان » ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص الى آخر ٠٠ وبعد ان أخرج بضعة أوراق ، وانحنى عليها ليراها بوضوح ، شرع يقول : « سادتى : اسمحوا لى أولا وقبل ان أحدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم

ان أقر بالفضل ـ وأنا واثق من انكم تشاطرونني هذا الشعور ـ للحكومة ٠٠ للملك ٠٠ لملكنا أيها السادة ٠٠ هذا الملك المحبوب الذى لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحى الرخاء العام أو الخاص ، والذى يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطار المتلاحقة فى بحر عاصف، وهو يعرف ـ فوق هذا ـ كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة ! »

وهنا قال رودولف : « يجب ان أرتد قليـــلا الى الوراء » ٠٠ فقالت ايما : « لماذا ؟ » ٠٠ وفى تلك اللحظة ، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول: « لقد مضى أيها الســـادة ذلك الزمن الذى كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العـــامة بالدماء ، والذى كان فيه المالك ، وصاحب الاعمال ، والعـــامل



نفسه ، يأوون الى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق ٠٠ والذى كانت فيه أعنف المبادىء الهدامة تدك فى جرأة كافة الاسس » ٠٠

وعاد رودولف يتابع الكلام : « قد يلمحنى أحد ، فأضطر عندئذ الى ان أظل أسبوعين انتحل الاعذار ٠٠ فضلا عن أن سمعتى سيئة ! » ٠٠ فقالت ايما : « انك تظلم نفسك ! » ٠٠قال : « لا ٠٠ انها سيئة ٠٠ أؤكد لك ! » ٠٠ ومضى المستشار يقول : « على اننى حين أنحى عن الذاكرة هذه الصور الحالكة ـ أيها السادة ـ أنتقل ببصرى الى الأحوال الراهنة فى وطننا العزيز ٠٠ فماذا أرى ؟ ٠٠ فى كل مكان تزدهر التجارة والفنون ، وفى كل مكان طرق جديدة للمواصلات ، كأنها شرايين حديثة فى جسد الدولة ، تقيم فى أرجائها علاقات جـديدة ٠٠ وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها ٠٠ والدين ـ الذى ازداد وحدة

وتوطدا – يبتسم فى كل قلب .. وموانئنا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديد .. وفرنسا قد عادت تتنفس ! »

واستأنف رودولف الحديث : « الواقع انهم ربما كانوا – من وجهة نظر المجتمع – على حق ! » .. فقالت ايما : « كيف ذلك ؟ » .. قال : « الأمر بسيط .. أو لا تعلمين ان هناك نفوسا مضناة تعيش فى عذاب دائم ، وان لا بد لها من ان تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل .. بين العواطف السامية النبل ، وبين الشهوات المتطرفة العنف ! .. ومن ثم تلقى بأنفسها فى كافة ألوان الاهواء والحماقات ؟! » .. فنظرت اليه كما ينظر المرء الى رحالة ارتاد بلادا غريبة ، وقالت : « نحن النساء البائسات لا نملك حتى هـــذه التسلية ! » .. فقال : « وانها لتسلية محزنة ، اذ ان المرء لا يجد فيها السعادة ! » .. فتساءلت : « وهل من سبيل الى العثور على السعادة يوما ؟ » .. فأجاب : « أجل .. انها لا تلبث ان تجىء يوما ! » .. هـذا بينما كان المستشار ماض فى خطـابه : « .. وهذا هو ما فهمتموه انتم ، معشر الزراع وعمال الريف .. أيهـا الرواد المسالمون ، فى ميدان الحضارة الفسيح ! .. أنتم يا رجال التقدم والأخلاق قد فهمتم ان العواصف السياسية أشد خطرا – فى الحقيقة – من اضطرابات الطبيعة .. »

وتابع رودولف حديثه : « ان المرء لا يلبث أن يلقى السعادة فجـــأة .. يوما ما ، بعد ان يكون قد يئس منها .. فاذ ذاك ، ينفرج الأفق .. وكأن صوتا يصيح : « ها هى ذى ! » .. وتحسين بالحاجة الى ان تفضى بكل أسرار حياتك ، وبأن تهبى كل شىء ، وتضحى بكل شىء ، من أجل ذلك الكائن ! .. ولا داعى عندئذ للكلام ، فان كلا يفهم الآخر ، اذ يكون كل قد رأى الآخر فى أحلامه ! » .. ورمقها بنظرة وهو يستطرد : « وبالاجمال ، ترين أمامك أخيرا الكنز الذى طالما بحثت عنه .. انه يتلألأ ، ويبرق .. ومع ذلك فان المرء يظل فى ريب ، فلا يصدق .. يظل مبهورا ، وكأنه خرج من الظلمة الى النور ! » .. وما ان انتهى الشاب من هذا القول ، حتى قرنه بالاشارة ، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار ، ثم تركها تسقط على يد ايما .. فسحبت هذه يدها !

هذا والمستشار ماض فى خطابه : « .. أى وجه للعجب فى ذلك ! .. لا ينكر روح أهل الزراعة الا من أصيب بالعمى ، وغرق – ولا أخشى من ان أقولها بهذه الصراحة – فى أوهام عصر مضى وانقضى ! .. وفى الحق ، أين نجد وطنية تفوق ما نجد فى الريف ، واخلاصا للصالح العام فوق اخلاصهم ؟ .. وفى كلمـــة واحدة ، أين نجد ذكاء أعظم مما نجد فى الريف .. ولست أعنى ، أيها السادة ، هذا الذكاء السطحى الذى تتحلى به النفوس المتسكعة ، وانما أعنى ذلك الذكاء المتزن ، الذى ينصب على السعى الى الأهداف النافعة قبل كل شىء ، وبذلك يساهم فى رخاء كل فرد ، والارتفاع بالمستوى العام ، وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات » !

وعقب رودولف قائلا : « آه ٠٠ هل عدنا ثانية ٠٠ الواجبات ، دائما ! ٠٠ لقد سئمت هذه الكلمة ٠٠ ان هؤلاء الذين يطنون فى آذاننا باستمرار قائلين : « الواجب ! الواجب ! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامد الملتفين فى صدارى من « الفانيلا » ، ومن العجائز المتعبدات ! ٠٠ آه ، لعمرى ! ٠٠ ما الواجب الا أن نحس بما هو عظيم ، وأن نحب ما هو جميل ، لا أن نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربقة واذلال ! » ٠٠ فاعترضت مدام بوفارى قائلة : « ومع ذلك ٠٠ مع ذلك ٠٠ »

ـ لا ، لا ! ٠٠ لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية ؟ ٠٠ أليست هى الشىء الجميل الوحيد على الأرض ؟٠٠ أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون ٠٠ أو بايجاز : كل شىء ؟

فقالت ايما : « ولكن على المرء ان ينحنى الى حد ما لرأى المجتمع ، وان يتقبل قانون الأخلاق » ٠٠ فأجاب : « أجل ، ولكن هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعوه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ فى صخب ، ويثير مثل هذه الجلبة التى نراها تحتنا ٠٠ انه أرضى من تراب ، كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك ، تحتنا ! ٠٠ أما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا ويعلونا ، كالطبيعة التى تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التى تمنحنا النور ! »

وكان السيد « لييفان » قد مسح فمه بمنديل ، واستطرد فى خطابه : « وماذا على ان أفعل أيها السادة ، لأظهركم على فائدة الزراعة ؟ ٠٠ من الذى يمدنا بحاجاتنا ؟ ٠٠ من الذى يقدم لنا أقواتنا ؟ ٠٠ أليس هو الزارع ؟ ٠٠ الزارع أيها السادة هو الذى يبزر بيده النشيطة فى خطوط الحقل الخصيبة ، فينبت القمح الذى يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق ٠٠ ثم ينقل الى المدن ، فينتهى الى الخباز الذى يصنع منه غذاء للفقير والغنى على السواء ! ٠٠ أليس هو الفلاح الذى يربى هذه القطعان الوفيرة ليوفر لنا الكساء ؟ ٠٠ أنى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح ؟ ٠٠ بل ، هل أنا بحاجة أيها السادة الى ان أذهب بعيدا لأبحث عن أمثلة ؟ ٠٠ منذا الذى لم يفكر كثيرا فى تلك الأشياء العظيمة التى نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل ، زينة حظائر الدواجن عندنا ، والذى يوفر لنا وسائد لينة لمضاجعنا ، ولحما طريا لموائدنا ، وبيضا ؟٠٠ على اننى لن أنتهى اذا مضيت فى تعداد المنتجات المختلفة التى تجود بها الأرض ـ اذا نحن أحسنا زراعتها ـ كالأم السخية على أبنائها ! ٠٠ فها هنا شجر الكروم للنبيذ ، وفى مكان آخر شجر التفاح لشراب « السيدر » ٠٠ وهناك اللفت ، وبعده أنواع الجبن ، والتيل الذى تقدم انتاجه بخطى واسعة جدا فى السنوات الأخيرة ، والذى أود ان ألفت اليه انتباهكم بوجه خاص »

ولم تكن ثمة حاجة به الى ان يلفت انتباههم ، اذ كانت أفواه الحشد كله

فاغرة ، وكأنهم يعبون من كلامه ٠٠ وكان « توفاش » الى جواره ، ينصت وهو يحملق فيه ٠٠ والسيد « ديروزيراى » يغمض عينيه فى رفق بين آن وآخر ٠٠ وعلى مسافة منه ، وضع الصيدلى يده خلف أذنه حتى لا يفوته مقطع من كلمة ، وابنه « نابوليون » على ركبتيه ٠٠ وكانت ذقون أعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز فى بطء على صداراتهم ، دليل الاستحسان ٠٠ أما رجال الاطفاء ، فاستندوا - أسفل المنصة - على حرابهم ، ووقف « بينيه » جامدا فى مكانه ، وقد ثنى ذراعيه ، وذؤابة سيفه فى الهواء ٠٠ ولعله كان يسمع ، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئا ، بسبب حافة قلنسوته التى كانت تهبط فوق انفه ! ٠٠ وكان مساعده - الابن الأصغر للسيد « توفاش » - يلبس قلنسوة أكبر من تلك ، اذ كانت واسعة ، تترجرج فوق رأسه ، وقد برز منها طرف منديله القطنى ٠٠ وكان يبتسم تحتها فى وداعة الطفل ، وقطرات العرق تتساقط من وجهه الصغير الشاحب ، وقد لاحت عليه امارات الانشراح والنوم !

* * *

◆ وكان الميدان مزدحما بالناس حتى مواقع المنازل ، فكان المرء يرى قوما متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ ، وآخرين يقفون أمام الأبواب ، وبدا « جوستان » أمام الصيدلية وقد سمر فى مكانه لفرط ما استهواه المنظر ٠٠ وكان صوت السيد «ليفان» يضيع فى الهواء رغم الصمت الشامل ، فلا تصل الى مسمعيك سوى نتف من العبارات ، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك ٠٠ ثم لا تلبث أن تسمع خوار ثور ، أو ثغاء الحملان ، يجاوب بعضه بعضا عند أركان الشارع ٠٠ اذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن الى آخر وهى تنتزع بألسنتها نتفا من أوراق الشجر المتدلية امام افواهها

وكان رودولف قد ازداد من ايما اقترابا ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : « أولا يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو ؟٠٠ وهل هناك احساس واحد لا يستنكره ؟ ٠٠ ان أنبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها ٠٠ واذا حدث أن التقت روحان بائستان ، فان كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما ٠٠ ومع ذلك فانهما ستحاولان ، وترفرفان بأجنحتهما ، وتسعى كل منهما الى الأخرى ٠٠ أواه ! ٠٠ لا بأس ، فانهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا ، طال الزمن أو قصر ٠٠ فى ستة أشهر او فى عشر سنوات ٠٠ فان القدر قد كتب هذا لهما ، اذ خلقت كل منهما للأخرى »

وكان جالسا وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه ٠٠ وتطلع الى ايما وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت فى عينيه خطوطا ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداوين ٠٠ بل انها راحت تشم عطر الدهان الذى ضمخ به

شعره ٠٠ وما لبثت أن غشيتها نوبة من شرود ، فذكرت الفيكونت الذى رقصت « الفالس » معه فى (فوبيسار) ، اذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التى تفوح من هذا الشعر ٠٠ وأسبلت جفنيها - بحركة آلية - فى نصف اغماضة ، وهى تنشق فى شعره هذا العطر ٠ ولكنها حين اضطجعت فى المقعد لمحت على البعد - عند حافة الأفق - عربة الركاب القديمة ، « العصفورة » تنحدر فى بطء هابطة تل (ليو) ، وهى تجر ذيلا طويلا من الغبار ! ٠٠ هذه العربة الصفراء التى كثيرا ما عاد اليها فيها « ليون » ، وفى ذلك الطريق رحل عنها الى غير رجعة ٠٠ وخيل اليها أنها تراه واقفا عند نافذته ٠٠ ثم اختلطت الرؤى ، واكفهرت السحب ، وخيل اليها أنها عادت تدور فى رقصة «الفالس » - تحت أضواء الثريات - بين ذراعى « الفيكونت » ، وان « ليون » ليس بعيدا عنها ، وانه قادم٠٠ومع ذلك ، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف الى جانبها ٠ وتغلغل هذا الاحساس العذب فى رغباتها القديمة ، التى أخذت تتحرك جيئة وذهابا ، فى نفحات هذا العطر الذى ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل فى مهب الريح ٠٠ ففتحت طاقتى أنفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الاعمدة ٠ ونزعت قفازيها ، فمسحت يديها ، ثم حركت منديلها أمام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل اليها - خلال نبض صدغيها - مرددا عباراته ، وكأنه يترنم بها : « واصلوا ، وثابروا ، ولا تنصتوا الى ما يوصى به الروتين ، أو ما تدعو اليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة ! ٠٠ واتجهوا بجهودكم - بنوع خاص - الى تحسين التربة ، والسماد الجيد ، والاكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والأغنام الجيدة ٠٠ ولتكن هـــذه المعارض - بالنسبة لكم - أشبه بالساحات السلمية ، يمد المنتصر فيها يده - اذ يغادرها - الى المنهزم ، ويؤاخيه ، أملا فى فوز أفضل ٠٠ وأنتم أيها العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار ٠٠ تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة ، وثقوا من أن الدولة ترمقكم ، وتشجعكم وتحميكم ٠٠ وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم ! »

وجلس السيد « ليفان » اذ ذاك ، فنهض السيد « ديروزيراى » ، وشرع يلقى خطابا آخر ٠٠ ولعله لم يكن خطابا منمقا كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه بأسلوب أكثر ايجابية ، أو بالأحرى ، بمعلومات أدق ، واعتبارات أسمى ٠٠ فلم يشغل مدح الحكومة - مثلا - سوى حيز صغير منه ٠ أما الدين والزراعة ، ففازا بقسط أوفر ، اذ ألقى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك فى خدمة الحضارة ٠٠ وبينما كان رودولف يحـــدث مدام بوفارى عن الأحلام والتكهنات ، والجاذبية المغناطيسية ، كان الخطيب يتكلم عن نشـــأة المجتمع ،

متدرجا من العصور الأولى التى كان الانسان يتغذى فيها بثمار البلوط فى أعماق الغاب ، الى تلك العهود التى تحول فيها الناس عن جلود الحيوان الى الأقمشة المنسوجة ، وراحوا يحرثون الأرض ويزرعون الكروم ٠٠ أفكان هذا التحول خيرا ؟ ٠٠ أولم يكن فى هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع ؟ ٠٠ وتولى السيد « ديروزيراى » علاج السؤال ٠٠ بينما كان رودولف قد تطرق متنقلا من المغناطيسية الى الميول والعلاقات ٠٠ وأخذ رئيس اللجنة يذكر « سنسناتوس » ومحراثه ، و « ديوكلسيان » اذ زرع الكرنب ، وأباطرة الصين حين كانوا يفتتحون العام ببذر البذور ٠٠ فى حين كان الشاب -رودولف- ماضيا يشرح للشابة أن الميول والانجذابات ترجع فى سببها الى نوع سابق من الوجود ٠٠ أو حياة سابقة !

ومضى يقول : « ومن ثم ، لماذا قدر لكل منا أن يعرف الآخر ؟ ٠٠ أية ارادة شاءت هذا ؟ ٠٠ لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا الى الآخر ـ كجدولين يجريان لكى يلتقيا ويتحدا ـ وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا الى صاحبه ! »

وأمسك بيدها ، فلم تسحبها منه ٠٠ وفى تلك اللحظة ، كان الخطيب يصيح : « جائزة الزراعة الجيدة ٠٠ » ٠٠ ورودولف ماض فى حديثه : « فمثلا عندما أتيت الى بيتكم ٠٠ »

وهكذا أخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع فى تناوب واختلاط :

كان الخطيب يقول : « الى السيد بريه من كونكانبوا »

ورودولف يقول : هل كنت أعلم أن قد قدر لى أن أصحبك ؟

الخطيب : سبعون فرنكا ٠٠

رودولف : بل لقد حاولت مائة مرة أن أرحل ٠٠ ولكننى تبعتك ٠٠ وبقيت !

الخطيب : جائزة الأسمدة ٠٠

رودولف : وسوف أبقى الليلة ، وغدا ، وكل الأيام المقبلة ، وحياتى كلها !

الخطيب : الى السيد « كارون » من (أرجيى) ٠٠ ميدالية ذهبية

رودولف : فانى لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة فى صحبة أى شخص آخر

الخطيب : الى السيد « بان » من جيفرى سان مارتان ٠٠

رودولف : وسوف أحمل معى ذكراك ٠٠٠

الخطيب : جائزة عن كبش أسبانى من نوع « مارينو »

رودولف : ولكنك سوف تنسيننى ٠٠ سأتلاشى كالطيف !

الخطيب : الى السيد « بيلو » من نوتردام ٠٠٠

رودولف : آه ، لا ! ٠٠ بل سأبقى فى فكرك ، وحياتك ٠٠ أليس كذلك ؟

الخطيب : سلالة الخنازير ٠٠ الجائزة مناصفة بين السيدين « لهيريسيه »

و « كيلمبور » ٠٠ وقدرها ستون فرنكا

وضغط رودولف يد ايما ، فاحس بها دافئة ، تنتفض ، كاليمامة الحبيسة التى تبغى انطلاقا ٠٠ وسواء كانت تحاول ان تنتزع يدها ، او كانت تستجيب لضغطه ، فانها حركت أصابعها ، فهتف : « آه ، شكرا لك٠٠فأنت لاتصدينني ! ٠٠ ما أطيبك ! ٠٠ انك تدركين أنني ملك يديك ! ٠٠ ألا دعينى أنظر اليك ! ٠٠ دعينى أتأملك ! »

وهبت من النافذة ريح ثنت أطراف غطاء المائدة ، وأطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة ـ فى الميدان ـ فطارت كأجنحة فراشات بيضاء ترفرف ! ٠٠ وكان رئيس لجنة التحكيم ماضيا فى قوله : « جائزة استخدام كسب البذور الزيتية٠٠السماد الفلمنكى ٠٠ زراعة التيل ٠٠ الصرف ٠٠ الايجارات الطويلة٠٠الخدمات الاهلية » ٠٠٠ أما رودولف فلم يعد يتكلم ، اذ راح يرمق « ايما » ٠٠ وهى ترمقه ، وشفاههما ترتجف بتأثير رغبة جامحة ! ٠٠ وفى استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت أصابعهما ٠٠ ورئيس لجنة التحكيم ماض فى سرد الجوائز !

ـ كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستولاجيريير) ٠٠ من أجل بقائها خمسا وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة ٠٠ ميدالية فضية ومكافاة قدرها خمسة وعشرون فرنكا !

وردد المستشار النداء قائلا : « أين هى كاترين ليرو ؟ » ٠٠ لكنها لم تتقدم٠٠ وسمعت أصوات تتهامس : « استمر ! » ٠٠ « لا » ٠٠ « الى اليسار » ٠٠ « لا تخافى ! » ٠٠ « آه ، يا لها من غبية ! » ٠٠ وصاح «توفاش» : « وبعد ، أموجودة هى ؟ » ٠٠ « نعم ٠٠ ها هى ذى ! » ٠٠ « فلتتقدم اذن ! » ٠٠ ورؤيت اذ ذاك امرأة عجوز ، ضئيلة الجسم ، تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهى تكاد تتوارى فى ثيابها التعسة ، وفى قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينما انسدلت على ردفيها مرولة كبيرة زرقاء ٠٠ وكان وجهها الضامر ، المحاط بطاقية لا حافة لها ، أكثر تجعيدا من تفاحة صغيرة ذابلة ٠٠ ومن كمى سترتها الحمراء ، برزت يدان بدت مفاصلهما كالعقد ، وقد غطتهما البقع والبثور والبشرة الخشنة من أثر غبار الأجران ، و « البوتاس » الذى تستخدمه فى ازالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى انهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غسلهما بالماء الصافى ٠٠ وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقدمان دليلا متواضعا على ما تكبدتا من مشاق مضنية ! ٠٠ وأكسب وجهها جلالا شىء من جمود الرهبنة ٠ ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شىء من الحزن أو من الحنان٠٠وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد أخذت عنها الصمت والسكوت ٠٠ وكانت هذه هى أول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير ، فداخلها ذعر من الأعلام والابواق ، وأولئك السادة الذين كانوا فى ثياب سوداء ، وذلك الوسام الذى كان يزين صدر المستشار ٠٠

فظلت مسمرة فى مكانها ، لا تدرى أتتقدم ، أم تلوذ بالفرار ‥ ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها الى الأمام ، ولا لماذا كان الحكام يبتسمون لها ؟! ‥ وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء ، تمثالا حيا لنصف قرن من العبودية ! ‥ وكان المستشار قد اخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : «اقتربى أيتها المبجلة كاترين نيكيز اليزابيث ليرو » ‥ واخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكررا فى لهجة أبوية : « اقتربى ! اقتربى ! »

وقال « توفاش » وهو يتململ فى مقعده : « أصماء أنت ؟ » ‥ ثم راح يصيح فى أذنها : « أربع وخمسون سنة فى الخدمة ! ‥ ميدالية فضية ! ‥ وخمسة وعشرون فرنكا ‥ لك ! » ‥ وتأملت « الميدالية » اذ تناولتها ، وما لبث وجهها أن اشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتمت وهى تنصرف : « سأعطيها لقس قريتنا كى يقيم لى قداسا ! » ‥ فمال الصيدلى نحو موثق العقود قائلا : «ياللتعصب !»

★ ★ ★

◆ وانتهى الحفل ، فاخذ الجمهور يتفرق ‥ وعاد كل امرىء الى مكانه ، وكل شىء الى مجراه ‥ واخذ السادة ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون الماشية ‥ تلك الماشية الفائزة ، التى علق بقرونها تاج أخضر ، وهى تعود الى حظائرها ! ‥ هذا بينما صعد جنود الحرس الوطنى الى الطابق الأول من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة فى حرابهم ، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات ‥ واخذت مدام بوفارى بذراع رودولف الذى رافقها حتى دارها ، ثم افترقا لدى الباب ، وسار هو يتنزه وحيدا فى المرج ، فى انتظار موعد الوليمة

وكانت المأدبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام ، ازدحمت الى درجة لم يكن معها فى وسع المرء أن يحرك مرفقه ، وحتى أوشكت الألواح الضيقة — التى استخدمت كمقاعد — أن تتحطم تحت ثقل الجالسين ‥ وأكل القوم فى اسراف ، اذ عنى كل واحد بأن يملأ بطنه ، حتى تفصد العرق على كل جبهة ، وانبعث بخار يميل الى البياض — كذلك الذى يتصاعد من جـدول فى صباح يوم من أيام الخريف — وأخذ يخيم فوق المائدة بين المصابيح المدلاة ‥ واستند رودولف الى قماش السرادق ، وقد استغرقه التفكير فى ايما ، حتى انه لم يسمع شيئا مما كان يدور حوله . وكان الخدم من ورائه يجمعون الاوانى المتسخة ، وجيرانه يوجهون اليه الحديث فلا يظفرون منه بجـواب ‥ ومن ثم ملأوا له كأسه ! ‥ وران على فكره سـكون رغم الضجيج المحيط به ‥ كان يحلم بما قالت ، وبشكل شفتيها ‥ وكان وجهها يتمثل له منعكسا على خوذات الجنود ، وكأنه يراه فى مرآة سحرية ‥ وثنايا ثوبها تنتشر على الجدران ‥ وأخذت أيام الهوى تتتابع أمام عينيه فى أفق المستقبل ، وهى لا تكاد تنتهى !

ورآها ثانية فى المساء ، أثناء الاحتفال باطلاق الصواريخ . بيد أنها كانت مع

زوجها ومدام « هوميه » ، والصيدلى الذى كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة ، حتى انه كان يترك الجماعة فى كل لحظة ، ليذهب الى « بينيه » ويقدم له النصائح ٠٠ وكانت الصواريخ - التى وردت باسم السيد « توفاش » - قد اختزنت فى قبو منزله ، زيادة فى الحيطة ، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل ٠٠ وفسدت تماما القطعة الرئيسية ، وكانت صاروخا يمثل تنينا يعض ذيله !٠٠ ومن وقت لآخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتى كان الرجال يدغدغون خصورهن فى الظلام ، وقد التصقت ايما - فى رفق - بكتف شارل ، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الصواريخ فى السماء المعتمة ، وهى رافعة الذقن ، ورودولف يتأملها فى ضوء المصابيح المشتعلة !

وخمدت الصواريخ شيئا فشيئا ، وأضاءت النجوم ، وسقطت بعض قطرات من المطر ، فعقدت ايما حرملتها فوق رأسها العارية ٠٠ وفى هذه اللحظة ، اقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد أخذت الحوذى المخمور غفوة طارئة ، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحى العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة ٠٠ فقال الصيدلى : « الحق أن من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط فى تناول الخمر ٠٠ وبودى لو سجلت أسبوعيا على لوحة خاصة - على باب البلدية - أسماء الذين يثملون خلال الاسبوع من المشروبات الكحولية !٠٠ فضلا عن اننا سنحصل بذلك - من الناحية الاحصائية - على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها عند الحاجة ، ولكن ٠٠ اسمحوا لى ! » ٠٠ وعدا ثانية نحو القائد !٠٠ وكان هذا الاخير عائدا الى منزله ليتفقد مخرطته ٠٠ فقال له هوميه : « انك لن ترتكب خطأ لو انك أوفدت أحد رجالك ٠٠ أو تذهب بنفسك ٠٠ » ، فأجاب محصل الضرائب : « دعنى وشأنى !٠٠ اطمئن ! »

وبعد أن عاد الصيدلى الى أصدقائه قال : « اطمئنوا !٠٠ لقد أكد لى السيد بينيه أن التدابير اتخذت ، ولم تسقط أية شرارة ، كما أن المضخات مليئة ٠٠ فهيا بنا نستريح ! » ٠٠ فقالت مدام « هوميه » وهى تتثاءب بقوة : « الواقع اننى بحاجة الى النوم ، ولكن ٠٠ لا بأس ، فقد قضينا يوما جميلا كأنه العيد ! » ٠٠ فردد رودولف بصوت خفيض ، ونظرة ناعمة : « آه ، أجل ! ٠٠ كان جميلا جدا » ٠٠ وانحنى كل منهم لسواه ، ثم انصرفوا

وبعد ذلك بيومين ، نشرت صحيفة «فنال دى زوان» مقالا طويلا عن المعرض ، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس فى اليوم التالى للاحتفال ، وقال فيه : « لم هذه الولائم ، وهذه الازهار ، وهذه الباقات ؟٠٠ والى أين يعدو هذا الجمهور وكأنه أمواج بحر ثائر ، تحت سيل من أشعة الشمس الحامية التى تنشر حرارتها فوق حقولنا ؟! » ٠٠ وتكلم عن حال الفلاحين ، فقال ان الحكومة

قد فعلت الكثير ولاشك من أجلهم ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، ومن ثم أهاب بها : « الى الامام ، فهناك ألف مشروع لازمة ، وعلينـا أن ننجزها » • ثم تحدث عن وصول المستشار ، فلم ينس «المظهر العسكرى الرائع لجنودنا» ، ولا «فلاحاتنا الموفورات النشاط» ، ولا «الشيوخ ذوى الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة •• وقد أحس من بقى منهم من رجال كتائبنا القدامى ، بقلوبهم لاتزال تخفق على دق الطبول القوى» •• وذكر نفسه بين أوائل الأعضاء المكونين لهيئة التحكيم ، مشيرا ـ بطريقة تستلفت الانتباه ـ الى أن السيد هوميه ، الصيدلى ، قد أرسل مذكرة عن شجر التفاح الى الجمعية الزراعية ! •• واذ تطرق الى الحديث عن توزيع الجوائز ، صور فرح الفائزين بأسلوب خيالى مبالغ فيه : « فالأب يقبل ابنه ، والاخ أخاه ، والزوج زوجته • وكم من واحد منهم كان يزهو باظهار « ميداليته » المتواضعة ، التى لن يلبث ـ اذا ما عاد الى زوجته الصالحة ـ أن يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه •• وحوالى الساعة السادسة ، أقيمت مأدبة فى بستان السيد «ليجار» ضمت الشخصيات الرئيسية التى حضرت الاحتفال ، وسادتها روح المودة الخالصة •• وشربت عدة أنخاب ، فشرب السـيد « ليفان » نخب الملك ، والسـيد « توفاش » نخب المدير ، والسيد « ديروزيراى » نخب الزراعة ، والسـيد « هوميه » نخب الصناعة والفنون الجميلة ـ التوأمين ـ والسيد « ليبليشيه » نخب الاصلاحات • وفى المساء ، انطلقت فى السماء صواريخ لامعة أضاءتها فجأة ، حتى لقد كان يخيل للمرء أنها منظار سحرى ، أو منظر مسرحى حقيقى •• وكأنى بالقرية الصغيرة قد انتقلت ـ للحظة من الزمن ـ الى حلم من أحلام ألف ليلة وليلة ! »

ثم أضاف قائلا : « ولنسجل أنه لم يكدر صفو هذا الاجتماع العائلى أى حادث يدعو للاسف •• وكانت الملاحظة الوحيدة هى تخلف رجال الدين ، ولعـل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر ! •• كما تشاؤون يا رسل ليولا ! »

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى والأخير فى منتصف فبراير

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
افتتاحية العدد	٧
جوستاف فلوبير : دراسة تحليلية لحياته وأدبه ، للمحرر	٨
مدام بوفارى : الترجمة الكاملة الأمينة للقصة	٣٥

القسم الأول

الفصل الأول	٣٧
الفصل الثانى	٥١
الفصل الثالث	٥٩
الفصل الرابع	٦٧
الفصل الخامس	٧٣
الفصل السادس	٧٨
الفصل السابع	٨٣
الفصل الثامن	٩٢
الفصل التاسع	١٠٢

القسم الثانى

الفصل الأول	١١٧
الفصل الثانى	١٣١
الفصل الثالث	١٣٧
الفصل الرابع	١٤٧
الفصل الخامس	١٥١
الفصل السادس	١٥٩
الفصل السابع	١٦٩
الفصل الثامن	١٧٦



مطبوعات كتابى
الترجمة الأمينة "الكاملة" لشوامخ الكتب العالمية
.. تقدم لك فى أعدادها القادمة ، النص الكامل لأعظم ماكتب
هؤلاء العباقرة من أدباء العالم ، فى جميع العصور :
دستويفسكى ، تولستوى ، جوجول ، ترجنيف ، بوشكين ، جوركى ،
بلزاك ، روسو ، ڤولتير ، هوجو ، زولا ، دوديه ، ديكنز ،
والتر سكوت ، أوسكار وايلد ، برنارد شو ، د. ه. لورنس ،
جيته ، شيللر ، زفايج ، ابسن ، برونتى ، موراڤيا ، بوكاشيو ،
سرڤانتس ، هوميروس .. الخ .. الخ
احرص على اقتناء اعداد هذه السلسلة بانتظام ،
فى منتصف كل شهر ، تؤسس لأسرتك وأولادك أوفى
وأرقى مكتبة عربية لأعظم كتب العالم ، القصصية وغير القصصية ،
مترجمة بأرشق أسلوب ، فى أجمل مظهر ، وبأزهد ثمن !
مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد
شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩